الكتب اللغوية

اللغة بين العقل والمغامرة

دكتور
مصطفى مندور
رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة أسيوط

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه

مقدمتـــان

- ١ -

على درب الحياة

اللغة ضرورة الحياة البشرية ، وهى صانعة رحلة الانسان الطويلة على الأرض ، ومعها العديد من الأدوات التى كانت معينـــا له ، يتغلب بها عـلى ما حوله من ظروف البيئة : الخارجية والداخلية ، التى كثيرا ما بدت أمامه غير قابلة للاختراق ٠٠٠ ثم بعد أن امتلك بعض مفاتيحها صارت طيعة هادئة ، تغلب بأدواته التى عثر بها على أزمات حياته النفسية والفـكرية والعاطفية ، تلك التى كانت فى فترات من عمره سرا هائلا ووعاء محكما لا يستطيع الولوج اليه أو حتى الفرار منه ٠

وبغير رغبة فى الحصر نقول انه اكتشف الكهف والكوخ والمنجل ، تماما كما اكتشف الزواج والأسرة والقبيلة ، وورث معانى الالتقاء وبقايا الفراق ٠ ثم جاءت مع ذلك ألوان من الحق والواجب والاثرة والايثار ٠٠٠ وما من شك فى أن عددا كبيرا من العلاقات قد تم احداثه اما عن طريق المصادفات ، واما من خلال التجارب غير المخططة ، ثم منها كذلك ما عـرفه الانســـان بالجهد القاصد ، وبالتجارب الواعية التى تفاوتت المخاطر المحيطة بها : فى خيرهـا وفى شرها ٠ والشىء الذى يبدو واضحا فى تاريخ الانسان انه ما من مرة تم له استجلاء شىء جديد أو وقع فى طريقه على فتح بديع الا وصار ذلك الحادث ملكا له ، يتحكم فيه ، ويدخل فيه من التعديلات والتغييرات ما يجعله دائمـا طوع ارادته ، بل وتوشك الصورة الأخيرة التى تصل اليها ذات المستكشفات أن تبدو منبتة الصلة بصورها الأولى ٠ ولو شئنا المثـــال على ذلك فدوننا الطاقة الحرارية التى عرفها الأوائل فيما نسميه بـ « النار » ، وكان اكتشافها قلبا لصفحة تكاد تكون كاملة من التاريخ ٠ وكم غمرته الأساطير عن أصلهـا ومنشئها ! ولعله من خلال فيض الخـير وفيض التـــوجس أيضـــا أن عزا

اليونانيون وجودها الى الاله بروميثيوس الذى يروى أفلاطون أسطورته فى محاورته « بروتاجوراس » ، وفيها غامر الاله ليسرق قبسا من النار يهديه للانسان فيستفيد بها فى حياته وفى فنونه ٠٠ ولو تجاوزنا ما بعد البدايات والاساطير ، ونظرنا الى أوضح المراحل التى غيرت فيها وجه الحياة : من طاقة البخار الى طاقة الكهرباء الى طاقة الذرة ، لو تجاوزنا ذلك ولمحنا الآفاق التى تفتحها للبشرية ألا يهولنا الأمر ونشعر بالاطمئنان الكبير !!

ولقد يقال ان مثل تلك الطاقة ذات وجود خارجى عن الانسان ، ومن ثم أبيح له أن يزاول فيها ما شاء من اجراءات مما هون عليه دفعها ، ولكن : ألم يحدث الانسان نفس الدفعات فى امكاناته الخاصة ؟ لقد أدرك مرونة عضلاته فاستخدمها بذكائه وارادته مما شق له حجبا كثيرة : لقد مكنته اليدان من ارتياد مجالات باهرة ومن صنع أعاجيب معجزة ٠ ولو تجاوزنا مراحل البدايات والأساطير واسترجعنا صورة الكائنات التى تسعى على قوائمها الأربعة أمام الانسان المتربع على عرش ساعد على بنائه بذراعيه ، ألا يهولنا الأمر ثم نشعر باطمئنان كبير !!

ومن بين الاكتشافات تنفرد اللغة فى حياة الانسان بمنزلة خاصة ٠لقد اكتسبت منذ وعاها وضعا أسطوريا فى حياته ٠ فهى عند الأصل البعيد لعمليات السحر والكهانة ، وهى عند الأصل البعيد للطقوس الدينية التى التزم بها الانسان ارضاء لقوى حسية تحيط به ، يبغى حنانها أو يدرأ قسوتها ٠ هى عند جهوده لارضاء أسرار تكتنفه ويبقى عاجزا عن كشف لثامها ٠ فى حياتنا الأولى ، كما فى حياتنا المعاصرة مشاهد متتابعة لأنواع من السحر أو القوى المتافيزيقية عمادها اللغة ٠ وليس من قبيل المصادفات أن المعرفة تكاد تتناسى الأصول التى التفت حول أصول الكثير من وسائل الحياة : النار ، الزراعة ، الصناعة ٠٠٠ الزواج ، الولادة ، الموت ٠٠٠ وربما تنفرد اللغة بثوبها الأسطورى الذى أحاط بها قديما ويحيط بها حديثا ٠ ولعلى أقول ان وجودها ذاك لا فكاك للانسان منه ٠ فهى أسطورية حين اصطنعها لنقل تراث الأوائل ٠ وهى أسطورية حين نلتمس سحرها لدى المعاصرين خلال عروض المسارح أو من بين دقات حروف المطابع ! ومثال : لعل «الرقى» أقل الأنواع اختفاء ، وهى صياغات لغوية التمس فيها الأجداد الشفاء

والراحة عبر ابتهالات لقوى الخير أن تعينهم علـى قوى الشر ، ثم هي ، في صورة معاصرة ، كشف لعلماء النفس أو لبعض الأطباء عن أسرار من المكبوتات عسى أن يكون لديهم شفاء وراحة · وحين نبحث عن الأصل اللغوى «للرقية» نجد المعجم يرده الى الفعـل « رقـا » ومنه « الرقـوة » التى هى دعص من الرمل · ويقولون رقا الرجل الى الشىء رقيا ، وارتقى بمعنى صعد · وكأن « الرقى » من سياق مجازى فيه يصعد المسترقى الى منزلة أعلى من المحيط به ، لائذا ـ أثناء دعواته ـ بقوى تفوقه · أو ربما كان صاحب الرقية يتخذ منزلا فى مكان قصى لتنضج هناك طقوسـه · وأما عن ماهيتهـا فهى كما يقول ابن الأثير : العوذة التى يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات(١) · وتسوق بعض مصادرنا القديمة أحاديث نبوية فيها ما ينـكر « الرقى » وأخرى فيها اجازتها · من الأول قوله : « ما كنا نأبه بالرقى » ، ومن الأخر قوله : « استرقوا لها فان بها النظرة » · وأيا ما كان الأمر فى صحة هذه الأحاديث ، فلا شك فى أن جمع الموقفين المتعارضين يعرض ضربين من الفكر : أحدهما لا يستطيع الهروب من صيغ كان عليها السلف ، والآخر يمثل فكرا مريدا للتخلص من تأثير الاستسلام لجانب من قوى الغيب المبهم · والجمع بينهما هو الممثل الشرعى لعـلاقة الانسان باللغـة ، بجـانبيها : العاطفى ـ وهو أصل مكين ـ والعقلى ، وهو فرع مكين كذلك · ويصبح المزج بينهما وضعا أسطوريا وشرعيا كما نقول · ومثل هذا القلق هو ما يصـوره أحد الرجاز فى صورة حية نابضة أمام خوف الموت ثم أمام الأمل فى الحياة :

قد علمت والأجـل الباقى أن لن برد القدر الرواقى(٢)

ان « الرقى » تفسح الآمال · ولكن أنى لها والموت مـمـر !! ·

ولسنا فى حاجة للالحاح على دور اللغة فى مثل ذلك المدار · هى من الأسباب الأولى لتوكيد ذلك الايمان · وحتى حين تتظاهر أمامنا المعتقدات فى رداء حسى خالص ، وفى مظهر مادى مستقل ، فمن المستحيل تصـور توارثهم

---

(١) لسان العرب ، جـ ٥ ، ص ٣٤

(٢) لسان العرب : جـ ١٩ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ ·

لتلك المعتقدات الا من خلال صيغ لغوية تناقلتها الأجيال : يحكون أن أهل الجاهلية كانوا اذا نزلت رفقة منهم فى واد قالت : « نعوذ بعزيز هذا الوادى من مردة الجن وسفهائهم » • كم كان التعوذ كافيا ليتطاير الجن والخطر من طرقاتهم !!

هى اذن مأثورات سجلتها أقوالهم ، وهى معتقدات وجدت الطريق الى حيواتهم فى صلب التراكيب اللغوية • وللشاعر الأعشى أبيات يقول فيها :

فانى وما كلفتمونى وربكم ... ليعلم من أمسى أحق وأحوبا

لكالثور والجنى يركب ظهره ... وما ذنبه ان عافت الماء مشربا

وما ذنبه ان عاقت الماء باقر ... وما تعاف الماء الا ليضربا

ويفسر ابن طباطبا المعتقد الأسطورى بقوله : « انهم كانوا يضربون الثور اذا امتنعت البقر من الماء • ويقولون ان الجن تركب الثيران فتصد البقر عن الشرب »(١) • وهل كان تراثنا العربى ، بل وكل تراث الانسانية ، حول الجن وأساطيره ، هل تعدى كل ذلك التراث عدة ألفاظ لغوية حملت للأجيال المتلاحقة صورة من خيال انسانى عن مثل تلك المخلوقات التى لا يمتلك الانسان عنها سوى صور مشوهة يذكيها الخيال ويضفى عليها الوهم حماية من غزوات العقل العالم ! ومن الغريب فى حياة الانسان أنه حين تتكشف أمامه بعض أسرار تلك القوى ، فانه لا يلبث أن يتحول عنها الى غيرها ، وكأن للمجهول دائما سحرا خاصا يجتذب الانسان اليه كما يجتذب السنا الفراش !

واذا كان بعض السنا يوقع بالانسان أنواعا من القلق أو الشقاء فان المنطق العاقل يسعى دائما ليحول بعض السنا الى مصابيح كاشفة •

وأيا ما كانت التحولات فى حياة البشر فان اللغة هى قناة الاتصال

---

(١) عيار الشعر : ص ٣٤

بينه وبين الجديد ، بل هى التى تجمع له الماضى وتصفى منه خلاصته لتصبها فى الجديد · ونخطىء اذ نظن بالانسان المعاصر تخليصا للغة من الهـالة (الأولى الأسطورية) ، وما زال الكلام الكثير والرغى الذى لا نهاية له حول أسرار الجمال ، وحول عبقرية القول ، وحول أجنحة ربات الشعر ، وأرباب الفنون ، أقول ما زال كل ذلك يصدر عن جهد لكشف بعض سمات اللغة ، وليس هناك مجال لرفض الفكرة التى ترى أن الهـالة الأسطورية التى لفت اللغـة فى طياتها نابعة من ارتباطها بـ « الفعل » ، ذلك يعنى أن ترقب الانسان للغة يصدر عن ترقبه للحدث الذى تدل عليه ، أو أن الوجود الخارجى للماهيات ينعكس حتما على الوجود الداخلى للألفاظ حين تدور فى عقـل المتحـدث أو القارىء ·

واذا كان علماء اللغة يذهبون الى أن « اللفظة » توضع لموضوع واحد فقد لا يصعب على غيرهم ادراك أن الفكر قادر دائما على أن يحرك هذا الموضع من منزله الى منازل أخرى ، كما أنه يستطيع — أعنى الفكر — تغيير شحنات الألفاظ فيما بين الجمود والسيولة ، أو فيما بين الطمأنينة والعذاب ، وذلك حين يسكبها فى عبارات على غير النسق المألوف فى مثالية الواضـعين ! · ولا يحدث شىء من ذلك الا اذا كان للغة جوانبها الميتافيزيقية والأسطورية · وبحكم ذلك التلازم تصير اللغة موضوعا لاثارة التفكير ، كما يصير الفـكر محركا للغة من مكامنها التى تبدو فيها كوحدات القطا الكدرى لا يفزعها الا المتجول فى الغدو والرواح · ولو ان بعض تقاسيم المواد اللغـوية تنزع الى التعامل بين بعضها البعض على أساس ما نسميه بالذاتية وبالموضوعية ، أو ما نسميه بالعاطفية وبالمنطقية فما أشد تداخل القسمين عندما يعركهما العقل لخلق الأحداث · ولو أخذنا فعلا مثل « يحب » وافترضنا أنه يحمل أعمـق الجوانب الانفعالية أو الذاتية ورأيناه يتركب فى مثل : يحب المال — يحب العلم — يحب السفر وما اليها ، ثم يتركب مع مثل : يحب نفسـه — يحب الله — يحب الخير وما اليها ألا نستشعر خلطا بين المجموعتين من المساقات ؟ وكم تبدو الذاتية باهتة مع رنين الموضوعيـة فى القسم الأول ، وكم تبدو واضحة مع رنين الذاتية المبهمة فى القسم الثـانى !! ويمكن أن نمر بمثال آخر حين نأخذ لفظة نستقبلها عامة كمثل للموضوعية الخالصة ، وليكن مثالنا

مع كلمة الاشتراكية : فلو أنها دخلت فى مثل العبارات : الاشتراكية زائلة ـ الاشتراكية باقية ، وفى مثل العبارات : الاشتراكية مكروهة ـ الاشتراكية محبوبة ، فلن يصعب الوصول الى التداخل الحاد بين ما نقبله على أنه موضوعى. وما نقبله على أنه ذاتى · هى اذن الوظيفة التى لا حدود لها · هى وظيفة الكائن البشرى بحدوده الجسدية والحيوية ولكن بغير حدوده الزمانية والمكانية ·

ادراك الانسان للخارج متوقف على ما تقدمه له اللغة ، وحين يزين الوهم للانسان أنه يمتلك الكثير مما حوله تكون الخديعة من اللغة · ولذلك لا تكاد حضارة من الحضارات التى حفظت أنماطها تخلو من مؤلفات حول اللغة ، ومن تجارب أشرف عليها مختصون بغية الكشف عن سر تلك الأداة ، التى لا يكاد ادراك الانسان لما هو خارجها يكون واضحا · حرص أصحاب الألسنة المختلفة على زعم يرى كل من خلاله أن لغته هى « الأم » ومنها انبثقت لغات الجحافل الأخرى ·

وحتى لا نغرق وراء أبحاث لا حصر لها قام بها علماء قدماء ومحدثون ، واصطنعوا فيها مناهج بالغة الوضوح أو غاية فى التعقيد ، نقف مع ما عمله العرب القدماء · فلهم فى السياق قدح واف · ولسنا نعرف فى تاريخ الحضارات نصا « لغويا » نال من الرعاية ما ناله النص القرآنى · فمنذ من الله على المسلمين بالوحى ، والأبحاث لاتنقطع محاولة الكشف عن تفسير الاعجاز ، وعن استخلاص كل ما يحركه النظم القرآنى سواء فى مجال الدراسات الصوتية أو الدراسات البيانية أو مجال الفقه والتطبيق التشريعى ، وكما شغلوا بالقرآن شغل فريق منهم بالبحث عن أسرار القصائد وفنون القول · وكل بحوثهم فى المضمار كانت استمرارا لادراكهم أثر اللغة فى الحياة · فكم أذكت كلمات الشعراء الحروب وكم خففت من جراحهم !!

التحليل اللغوى يحظى بجهد كبير فى كل الثقافات · وينال الجهد ما يسمى باللغة العامة التى تكون للأمة الاحساس العام بكيانها وارتباطاتها ، ويناله أيضا ما يسمى باللغة الخاصة التى تكون للأمة آدابها وفنونها

ومحاوراتها الفلسفية والمنطقية . ومع ذلك الجهد فما زلنا نشعر بأن اللسان تعوزه الطاقات التعبيرية ، رغم طول الملابسة ومئات القـــرون من المعايشة . ويبتهج فؤادنا اللغوى — ان صح هذا — حين نسمع طاقة تعبيرية غضة الرواء أو فيها ماء جديد ! وكل مناهج التحليل اللغوى سعى وراء ادراك أوفى بعد أن عجز الثوب عن أن يطيق المحمول ، فبات المحللون يبحثون عن المكنونات والمبهمات ، وسبب ذلك هو ما يلحظ من تفاوت بين الاستنتاجات حين تعمل عقول مختلفة فى نص لغوى واحد . وقد سعى فلاسفة اليـــونان الى تحديد مدلول « اللوجوس » وقالوا انه التماثل بين عمل الفكر والعمـــل الكـلامى . وركز عبد القاهر آراء فريق من سلفه وأظهر أن الأساس فى النظم هو مراعاة معانى النحو . ويؤكد فريق من المناطقة المحدثين أن النحو هو الجزء الأولى من المنطق ، لأنه بدء تحديد عملية التفكير ، ومبادىء النحو وقواعده هى الوسائل التى بها تصبح صور اللغة مماثلة لصور الفكر الكليـــة العامة(١) . ويتخذ فريق آخر موقف الشك فى قدرة انسجام الأشـــكال النحوية مع الأشـــكال المنطقيـــة ، من هـــؤلاء برتراند رســـل الذى يرى أن اللغـــة العادية غير قادرة على التعبير بدقة عن الفكر العلمى . ويرى أن اللغـــة تضللنا ســـواء بألفاظها أو بتراكيبها ، فلنحذرها . ولابد أن نميز بين الشكل النظمى للجملة من ناحية ، وبين شكلها المنطقى من ناحية أخرى . لأن الأول لا يناظر دائما الثانى . وأكثر من هذا ، كثيرا ما يضلنا الأول عن الثانى ، ويولد ألوانا من التشويش الفكرى والخلط المنطقى(٢) .

الجدل اذن بين ما نتخيله وضعا نحويا وما نتخيله وضـــعا منطقيا .

---

(١) انظر الفصل الذى يخصصه ارنست كاسيرر فى كتابه Essay on man وقد ترجم الكتاب الدكتور احسان عباس تحت عنوان : « فلسفة الحضارة الانسانية » . وكاسيرر ينقل ذلك الرأى عن جون ستيوارت مل الذى يمنح تأييده لنحاة اليونان .

وما يعنيه الجرجانى « بمعانى النحو » هو الصلة بين الوحدات الكلامية أو ما يسمى بالاسناد : ما بين المسند والمسند اليه .

(٢) انظر عرض الدكتور عبد الرحمن بدوى للموضوع فى مقـــالته « اللغة والمنطق فى الدراسات الحالية » المنشور بمجلة عالم الفكر — المجلد الثانى — العدد الأول (١٩٧١) .

ونحسب أن اثارته حادثة منذ قسم الاغريق الكلام الى قسميه الكبيرين : الفعل والاسم ٠

وقد بدت تلك القسمة موضوعية خالصة ، وحسب الذين أخذوا بها أنها تحسم طريقة التعامل مع الأداة اللغوية وخاصة بعد أن أضيف الى القسمين الكبيرين قسم ثالث هو الحروف أو « المتعلقات » ، ولكن مع ذلك بقيت المفارقات قائمة بين كل تناول منطقى للعبارات وتناول نحوى ،وضعى ٠ ومن الغريب أن كل المدارس النحوية فى الشرق وفى الغرب أخذت بمثل ذلك التقسيم رغم استمرار الشكوى من عجزه عن حل القضايا اللغوية ٠ وفى لغتنا :لو أننا أخذنا جملة مثالية تتكون من فعل واسم مثل قولنا : « يلعب الولد » فالفعل فيها ، رغم نموذجيته ، لا ينم عن نوع اللعب : أكان ضارا أم مفيدا ؟ أكان عنيفا أم لينا ؟ أكان مطلوبا أم غير مطلوب ؟ وهكذا ما شئت من تساؤلات ٠ ثم : ذلك الولد ؟ المجهول السن وصاحب الصفات الغائبة ٠٠ أتراه كان يركل بقدميه أم يلقف بيديه ؟ ٠٠٠ وما أكثر حاجاتنا حتى نستقر على منطق حسب الذى ألقى الجملة التقريرية أنه فرغ منه ٠

ونوع آخر من هذه الجمل التقريرية ، وما أكثرها ، يحمل نفس العجز المنطقى رغم أنه يعتبر جملا تقليدية أو قياسية ، ان مثل قولنا : الشمس تطلع ٠٠٠ لا تتفق مع أية معايير فلكية أو معجمية ، فالثبات فى الشمس مستقر والطلوع لها غير متيقن ٠٠٠ ولكنها المعرفة التى أحاطت بالاستخدام اللغوى هى التى ما زالت ترسى مثل هذه الجمل فى اللغات كافة ٠ فالانجليز يقولون : The sun rises والفرنسيون : Le soleil se lève والألمان : Die Sonne geht auf

وهكذا ٠٠٠

والتخلف الذى نشكو منه اليوم ، هو وليد فهم القدماء ، حين كانت الشمس هى التى تطلع وهى التى تغيب ٠ أما حين دارت الأرض فتغير الكلام ٠

وحين نترك الاستعمال الذى قد نتمحل لعجزه عند المستخدمين له ، ونقف أمام الأنواع النحوية من مفرد ومثنى وجمع ، فهل لا يثير القصور بسبب

غياب المثنى فى الكثير من اللغات تساؤلات عن سره ؟ ان اللغـــة تقوم فى أساسها على الثنائية : بين متكلم ومخاطب · ويصبح غياب المثنى مما يعتبر عجزا يوشك أن يفارق الفطرة اللغوية · وحتى فى اللغـــات التى اخذت به منى العربيه تبقى معاملة الثلاثة أو الاربعه بنفس النمط النحوى الذى تعامل به المائه أو الالف مما يلفت النظر ويثير الخوف من العجز(١) ولكنى أحسب ان حلول الجمع ، القائم بحكم الاجتماع البشرى فى تكويناته الواسعة ، كان هو الذى أدى الى اندثار الثنائية فى الأغلبية الساحقة من اللغات · لقد أصبح المجتمع هو المحاور الثانى للمتكلم ، ومن هنا كانت الجموع ·

واقسام الكلام : ما هى ؟ أصحيح أن الاسم هو ما ميزه النحاة بمثل قول ابن مالك :

بالجـر والتنوين والنـــدا وأل ومسند للاسم تمييز حصل

أو بمثل قوله :

والاسم قد خصص بالجر كما قد خصص الفعل بأن ينجز ما

الجر عند النحـــاة من علامات الاسم ، بل ان ورود تلك الخصيصـــة فى أول سماته يدل على اهتمامهم بتلك الحالة النحوية · وعلى هـــذا المنـــوال « الشكلى » تسير وجهات نظر النحاة نحو هذا القسم الكبير من أقسام الكلام · ومن التناقضات التى تكاد تمر وسط فيض من الجزئيات ذلك الباب النحوى الكبير الذى يفرده النحاة للأسماء التى تعمل عمل الفعل · ويضم الباب عشرة أنواع هى : المصدر واسم الفاعل ومثال المبالغة واسم المفعول والصفة المشبهة واسم الفعل والظرف والمجرور واسم المصدر ثم اسم التفضيل · ولم يكن هذا التداخل بين صفات الاسم النحوية وصفات الفعل النحوية مما يكفى لمعـاودة

---

(١) من الملفت للنظر أن بعض لغوينا قد أدركوا بعض ذلك · لكن الرصد اللغوى لم يمكنهم من مزاولة الجهد · ابن جنى يقول : جمع باز أبواز للثلاثة ، وبيزان لأكثر من ذلك (الخصائص ج ١ ، ص ٥) ولعل كلامهم عن جموع القلة والكثرة محاولات لحل الصعوبة والعجز · ولكن كل ذلك جهد منطقى لا يشبع الجانب الذاتى بها ·

النظر فى حدود أجزاء الكلام . ليست وظيفة الاسم محصورة فى قبوله الجر أو التنوين أو .. ان الاسم يقوم « لتأكيد جانب خاص من الشىء المسمى وهذا القصر أو التحديد هو وحده الذى تعتمد عليه قيمة الاسم . وليست من وظيفة الاسم أن يشير على نحو جامع شامل الى موقف محسوس ،وانما حسبه أن يفرد مظهرا واحدا يتعلق به »(١) . ذلك جانب بالغ الأهمية فى النشاط اللغوى الذى تتعهد به الأسماء . وبنفس النهج يتحدد دور الفعل فى النشاط مستقلا عن خصائصه الاعرابية الخالصة . ألحوا على أن « أل » تختص بالأسماء ثم حين وجدوا الفرزدق وهو من كان ينحت من صخر يقول :

ما أنت بالحكم الترضى حكومته ولا الأصيل ولا ذى الرأى والجدل

تعاوره النحاة ، وكل يجتهد للوصول الى تخريج لدخول « أل » الموصولة على المضارع المبنى للمجهول ، بعضهم رماه بالشذوذ(٢) ، وبعضهم أباح مثل الاستخدام(٣) .

وكما حدث الخلط فى دخول « أل » كذلك حدث فى « التنوين » . ونحن لا نستقصى انما هى نماذج لمجرد التلميح الى خطورة الوقوف بالتفكير المنطقى الخالص . قالوا ان التنوين من علامات الأسماء والفراء يقول سمعت العرب تقول : من شب الى دب ومن شب الى دب مخفوض منون . يذهبون به مذهب الأسماء . والمعنى مذ كان صغيرا يشب الى أن دب وكبر(٤) . واذا كان ما يذكره الفراء يتأرجح بالتنوين بين الفعل والاسم فى مثل ذلك القول الذى يلعب فيه التنغيم الفردى شوطه بحرية المنطلق من قيد الوزن الشعرى فان الروايات تكثر من ذكر بيت الشاعر :

---

(١) كاسيرر : فلسفة الحضارة الانسانية ، ص ٢٣٧

(٢) انظر ص ١٢ من شرح شذور الذهب ـ لابن هشام (نشر محمد محيى الدين عبد الحميد)

(٣) انظر شرح ابن عقيل (نشر محمد محيى الدين عبد الحميد) الجزء الأول ص١٧٩ـ١٨٠ وفيه يضيف الناشر بيتين آخرين على نفس النسق النحوى وهما للشاعر ذى الخرق الطهوى

يقول الخنى وابغض العجم ناطقا الى ربنا صوت الحمار اليجدع

فيستخرج اليربوع من نافقائه ومن جحره بالشيحة اليتقصع

(٤) القرطين ح ١ ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧

أقلي اللوم عاذل والعتابا وقولى ان أصبت لقد أصابا

على أنه قد اكتسب تنوين ترنم فى قافيته فصارت روايته :

أقلي اللوم عاذل والعتابن وقولى ان اصبت لقد أصابن

وظاهر أن الترنم هنا لم يفرق بين الاسم فى نهاية الصدر « العتابن » وبين الفعل فى نهاية العجز « أصابن » ، وكأن التنوين لا يختص بالأسماء كما يحدد النحاة · وما من مرة وقف التفسير النحوى أمام هذه الاعتراضات أو القضايا الا والقارىء يوشك أن يرى تعدد الصيغ اللغوية فى داخل التراكيب · ويوشك أن يلمس « فردية » اللغة لولا ضغوط المجتمع لتحتفظ بنمطية التعابير أو بالقنوات النموذجية · فذلك أيسر !!

لا يمكن أن ينشأ مثل هذا التخليط عن تخلف لسانى · فلا شك فى قدرة هذه العضلة الكلامية على اصطناع ألفاظ جديدة لا تكاد تحد الا بقوة الادراك العقلى ، وقوة الارادة على التنفظ · فى كل هذه الحالات التى نرى فيها التداخل ، أو الخروج فما يسمى بالعلاقات بين أجزاء الكلام لا تفسر الا حين يستخدم المتحدثون لغة « خاصة » ، لغة التقنين اللغوى ،فلتكن لغة الادب عامة أو لغة الشعر خاصة · وتفسير هذه المواقف أن المتكلم ، وهو صاحب الرصيد الاول فى التركيب ، يمتلك ما يريد التعبير عنه · وما دام واضح الرؤية فلن يصعب عليه منح أقواله الألفاظ والنغمة التى يريدها · وهو قادر دائما عن طريق جرس « صوته » أن يستنزف من عباراته أكثر طاقاتها على تحريك رصيده العقلى أو الفكرى · والأصل ـ عند الكلام ـ أن يستهدف المتحدث تقديرا واحدا ، وحتى فى المقامات التى يعن له فيها أن يغلف نفسه بكثير أو بقليل من التستر والمواراة ، فلا محيص عن وضوح رؤية واحدة تسمو عنده على غيرها · وحين يترك عباراته وتراكيبه حاملة للشك ، فان مثل هذا الشك لا يصدر عن منطقه ، وانما يكون وليد منطق السامع أو مناطق السامعين ، وربما القارئين · والأمر دائما لا يعدو أن يكون لهثا منهم ليمتلكوا بـ « القرة » ما يمتلكه المتحدث بـ « العقل » · وتتفاوت أرض الالتقاء بين مستقبل النص ومبدعه · وقد تكون جهود المفسرين مما يتجاوز ما أراده

المتحدث ، وقد يكون لها عجز المنبت · وأبرع ما يكون ذلك حين يتعامن العقل المستقبل مع نص يحتمل الاضافات — لان صاحبه ضن بها — وما كان يمكن أن تتاح الفرصة لو أن التعابير جاءت ذات منطق محكم أو على قدر المضمون المعجمى ·

ما نلمسه من عجز فى « اللغة » يكاد ينتسب فى أغلبه الى السمات النحوية التى صنعها « منطق النحو » ، والى القيود التى فرضها العقل البشرى المحب فى كثير من حالاته للوقوع فى أسر السابقين ، يخشى أن يستحدث جديدا ، مخافة أن يكون حجابا بين التراث والوارثين ، ومخافة أن تنبهم روائع الفكر والأدب ، ثم مخافة أن تضيع منه معالم رحلة الحياة فيما مضى ، كما تضيع منه رحلة الحياة فيما بقى !! ولعل ذلك هو تفسير السمة التى ببقى عليها باب دخول المصطلحات العلمية والرياضية وما اليها من معارف بحتة لا تندرج تحت الفنون والآداب اندراجا مباشرا ·

علاقات الفكر اللغوى تنشط اذن حول محورين واضحين : أولهما تلك الجهود التى فتتت الوحدات الى أقسام وضعوا لها علامات ، ثم بانت العلامات غير كافية لاستيعاب كل الخصائص التى يمنحها المتحدثون للوحدات ·والثانى يختص بالتعابير والتراكيب ، وعندها أيضا لا تبدو الرموز الصوتية كافية لتحمل الانفعالات التى يود العقل أن ينفثها مع الألفاظ · ويبقى الخطر كامنا فى أننا نستقبل ذلك الرمز كدالة الى مرموز لا يصلنا الا من خلال رمزه · فكثيرا ما تأتينا الدلالات وقد تداخلت فيها خبرتنا القادمة مع الرمز وخبرتنا المباشرة التى لا تستند اليه ·

ليست العلامات اللغوية وحدها هى الطريق الى اقتناص المعنى · ففى مثل العبارتين : يشكر الأستاذ التلميذ ، ويشكر التلميذ الأستاذ ، أو نأخذ ما ضربه القدماء مثلا : خرق الثوب المسمار ، تتوقف الدلالة التى يكتسبها العقل على قدرته على الانتقال من الصياغات اللفظية الى مبنى العبارة — أو الى الاسناد الذى تستند اليه العملية العقلية · ثم بعد ذلك يقفز العقل الى المعنى المجرد ، الى الدلالة المرادة · واذا كانت المرحلتان الأوليان تعتمدان على

التشخيص الذى يعتبر العلامات اللغوية سواء كوحدات أو كميان ، فان النهاية التى تصل اليها هى التجريد الخاص للخلاصة ، مضافا اليه تجريد من العرف اللغوى العام · ومثل هذا النظر لا يغيب عنه دور معانى النحو ، التى تحدد الفاعلية أو المفعولية أو غيرها من علاقات · ولكن الذى يجب أن يكون حاضرا عند كل فهم هو الادراك العقلى او دور الارادة المفتشة عما وراء الصيغ · وفى مثل هذا المقام يمكن أن نأخذ ما يقوله فندريس : « تبلغ الصعوبة فى تصنيف أجزاء الكلم حدا يعوقنا حتى الآن عن الوصول الى تصنيف مرضى · وما زال نحونا التقليدى يعلمنا أن نقسمها الى عشرة أقسام تبعا لتقليد قديم يرجع الى مناطقة الاغريق · ولكن هذا التصنيف لا يثبت أمام الامتحان ، فان تبرير تطبيقه على اللغة التى خلق من أجلها لا يخلو من عناء ، فمن باب أولى أن توجد لغات كثيرة لا ينسجم معها هذا التقسيم اطلاقا · وبمناقشة عن كثب نرى أنفسنا مضطرين الى تصحيحه »(١) · ويسلك صاحبنا منهجه ليستبعد الكثير من الأقسام التى وقف عندها النحاة · ومن دقيق ما يصنعه أن تكون أدوات التعجب أو حروف التعجب interjection كما يسميها أول ما يستبعده من أصناف الكلام · واذا كانت هذه الحروف « مثل مصمصة الشفاة أو صوت الضيق أف ··· » تمثل طابعا فرديا أو طابعا انفعاليا فى اللغة فانها لا تندرج تحت البنية العقلية للغة — حتى حين تتعدى ذلك المضمار وتصبح أداة أمر أو طلب فعل ·

وكما يستبعد فندريس هذه الحروف يستبعد كذلك حروف الجر والوصل ، لأن الدور الذى تقوم به فى لغة من اللغات « يمكن أن تقوم به فى لغات أخرى عملية صرفية تختلف عنها كل الاختلاف »(٢) · واذا كانت أداة

---

(١) اللغة ص ١٥٥

(٢) المصدر نفسه وعثال ذلك ما يعبر عنه فى الفرنسية بقولها Le livre de Pierre تعبر عنه العربية بقولها كتاب بيير مستغنية بالاضافة عن أداة الملكية أو حرف de ونفس الشىء يمكن أن يقال عن حرص الكثير من اللغات الهندوأوروبية على فعل الكينونة كمحور ... فى ... الجمل ، نراه اختفى أمام الاسناد فى العربية : الوردة جميلة تترجم الى The flower is beautiful فان اسناد الخبر الى المبتدأ طمس موضع الكينونة ... حتى وان ساورنا تكره اختفائه مع الزمن ·

التعريف هي في الاصل اسم اشارة ضعف معناه ، فانها صارت مجرد وسيلة للتمييز بين النكرة والمعرفة أو لتصنيف معناه . فانها صارت مجرد وسيلة حاملة لخصائص نحوية · ولذلك يمكن الا تقبل كقسم خاص من أقسام الكلام ·

واذا كان النموذج السابق ماخوذا من لغات لا تعرف ما تسميه عربيتنا بالجملة الاسمية ، فان مثل هذه التركيبة تنفرد بوضع خاص · وسمة « الاسمية » كانت لهذا النوع من الجمل بحكم البداية اللفظية · ولا تمنع هذه البدايات ان يكون المسند ما وسمه النحاة بالفعلية او بالظرفية أو ··· وليس من الغريب أن تكون عناية قدمائنا منصرفة الى أقسام الكلام أو الى الوحدات الرمزية المستقلة ، ثم ما يدور حولها من عوامل واعمال تظهر آثارها فى علامات الاعراب · ولمثل ذلك الدرس كان على العقل اللغوى أن يفرق بين الدراسة النحوية ودراسة الدلالات · ومن ثمة أبدعوا « علم المعانى » على تفاوت كبير بين رجل مثل عبد القاهر الجرجانى يحرص على ابراز « معانى » النحو فى النظم ، ورجل مثل السكاكى يحرص على القول بأن علم النحو « هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم »(١) · ولكن اذ نترك أقوال أهل المعانى لحين ، فاننا نأخذ ما يقرره ابن هشام فى حد الجملة الاسمية : « هى التى صدرها اسم كزيد قائم ، وهيهات العقيق ، وقائم الزيدان عند من جوزه ، وهو الأخفش والكوفيون » وليس علينا كبير عناء ان نفضنا عن العقل مثاله الثانى « هيهات العقيق « فالصدر هنا « اسم فعل » !! ومعنى الفعلية فيه طافح ، سواء فى تخليه عن سمات الأسماء الاعرابية أو تخليه عن المعنى الاسمى الصرف ، ولكن أليس ذلك امتدادا لفلسفة مدرسة البصرة التى كانت ترى أن الاسم أصل المشتقات فهو الأصل وغيره الفرع !! وكأنه لابد من تصور أصل يخالف الحدث المنتمى فى صلبه الى الفعل ·

الأصل الذى يستحق الرعاية هو الجهد العقلى الذى من خلاله يعقد

---

(١) السكاكى : مفتاح العلوم ص ٤٩

المتحدث العلاقة بين أجزاء الكلام ، أو لنقل هو فكر اسناد الخبر أو الحدث الى مسند اليه · فاذا قلنا « الحق ظاهر » فاننا نسند فكرة الظهور الى مسند اليه هو الحق · وحين نقول : « ظهر الحق » فاننا نسند الظهور الى الحق · والمسند اليه فى الحالتين هو الاسم الأول — المبتدأ — فى الحالة الأولى ، وهو الاسم — الفاعل — فى الجملة الفعلية الثانية · والعملية العقلية متماثلة فى العبارتين · ولكن صنيع النحاة هو صنيع عقل منطقى مولع بالتقسيم الشكلى أكثر من تعلقه بالعلاقة المعنوية أو لتكن العلاقة العقلية · ولا جديد حين نقول ان كل عملية لغوية هى فى الأصل مصنوعة فى معامل العقل المختزن للرموز وللدلالات وللعلاقات كذلك · واذا كان فريق من المناطقة يذهبون الى أن استكشاف المعانى النحوية فى العبارة يعتبر البداية التى ينخرط فيها العقل لاستكشاف الفكرة ، فلا شك فى أن مثل هذا الدرب من التصور لا وجود له الا بعد أن تمر رحلة التأمل اللغوى فى شوط طويل ، أى بعد أن يتفرغ العقل للتفتيش عن ماهية الجمل وماهية الألفاظ وماهية العلاقات بينها ، أما الأصل فيها فهو الاستخدام الفطرى · وقد يكون حقا أن الكثير من التوجيه النحوى هو سليل تفكير عملى يبحث عن أسرار الظواهر التى تحيط بالانسان وقد ساهم اليونانيون بمنطقهم فى ارساء بذور قديمة فيما نسميه بـ « منطقة اللغة » ، وان كان الكثير من ذلك قد نحا وجهة تقسيم الكلام الى أقسام ، فانهم أيضا قد طرحوا السؤال حول اللغة : ماهيتها وصلاتها : أمواضعة أم طبيعية ؟ وكان السفسطائيون فى زمن أفلاطون من أوائل الذين ركزوا أضواءهم على الجمل بأقسامها التقريرية ، والطلبية ، والاستفهامية وغيرها ، ونحا أرسطو نحو اللوجوس وهو الكلام المفيد ، ومن ثمة ولج الى عالم الجمل القائمة على الاسم : anoma ، بالاشتراك مع الفعل rhema ·ولم يكن له محيص من اضافة أقسام أخرى حين حلل العبارات ، فقال بوجود الروابط والحروف · آن الكثير من تراث البشرية النحوى يأتينا مما خلفه السابقون · ولست فى حاجة لتوكيد أن اهتماماتهم بالمنطق الخاص كانت أكثر طغيانا من اهتماماتهم بفلسفة اللغات· ولا شك فى أن اعتدادهم بلغتهم اليونانية ، ورفضهم لغيرها قد صبغ قواعدهم

بخصائصها محصورة . وفى ثراء تراثهم الادبى والفلسفى تمكين لآرائهم[١] .

ولعل الشىء الواضح الذى يمكن أن يستخلصه الناظر فى عمليات المراجعة الدائمة « لأقسام الكلام » منذ قام الاغريق بتقسيمهم هو أنها توكيد لبعدها عن الحدود المنطقية القريبة ، فلها أبعادها التى هى وراء المنطق . وما زاد عند نحاة اللغات الهندوأوربية يقابله أيضا تململ عند فريق من نحاة عربيتنا فهم يشعرون أن الكثير من الكلمات تستقل بسمات عن الفعل والاسم والحرف مثل : اسم الفعل — اسم المفعول — الظرف وما اليها[٢] .

ومع مثل هذه الوقفات يشعر العقل ، أو الحس اللغوى أن ما اصطلحنا عليه من رموز لغوية يكاد يتحول فى بعض اللحظات الى علامات كما تحولت العلامات الطبيعية الى رموز .

---

(١) يمكن الرجوع الى كتاب :

Ogden & Richrads The meaning of meaning, p. 24-59.

والى كتاب :

Dineen : An introduction to general liguistics, p. 55. ed., 1967.

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب د. عبد الرحمن أيوب « دراسات نقدية فى النحو العربى » ط ٥٧ و « فى النحو العربى » د. مهدى المخزومى . بيروت .

- ٢ -

من نظرات قدمائنا

ما أكثر الاختراعات التى كانت للانسان منذ بدأ تاريخه ، ومع ذلك فما أكثر الذى تساقط منها ! حدث ذلك لأن مكتشفات جديدة بدت أكثر ملاءمة تحت الحاح شوط حضارى جديد ، أو حدث لأن جدوى الاختراع لم تعد توائم الجهد المبذول ، أو لأن اختراعا جديدا يجب ما كان .... ومن بين كل ما اخترعه الانسان تبقى اللغة شامخة الشراع .

فمهما كان الطور الحضارى ، ومهما كانت انعكاسات البيئة الاقتصادية والاجتماعية والروحية ، فان الفرد والجماعة بقيا يعيشان الحياة اللغوية كرباط لا فكاك للمجتمع البشرى عنه . ويصدق قول همبولت : « شكرا للغة فبها صار الانسان انسانا »(١) ، فهى فالقة الكائن البشرى عن غيره من الكائنات . وسواء قلنا ان الانسان حيوان ناطق ، أو مفكر ، أو اجتماعى، أو ضاحك ، أو رامز ، فكلها أفلاك متجاذبة تدور فى كنف اللغة : انه ناطق لألفاظها ، مفكر بها ، اجتماعى بفضلها ، ضاحك بمفارقاتها ، رامز بأصواتها : هى اذن التى تجعل كل هذه الصفات لصيقة بالانسان ، مسندة اليه .

واذا كنا لا نعرف حتى اليوم اختراعا سبق وجود اللغة ، فانها توشك أن تكون الابتداع الوحيد الذى لازمه منذ تحرك فى مهده .

وفى تراث البشر : عند الفراعنة ، وعند الهنود ، وعند اليونان

---

(١) Cited by M. Girsdansky, The adventure of Language, p. 7

والرومان ، أنماط مختلفة من الجدل حول صلة الانسان بالأداة السانيه . واذا كانت دعوى الجنس بأتت متارجحة ازاء الاشتجار الدائم بين الأجناس ورفض النقاء العنصرى . فان الوعاء اللغوى أصبح الملاذ لتلمس الفرائد والمميزات ، ذلك لأنه فى كل العصور تسكب العقول عصارتها فى حومته ، ومن العصارات نأخذ ما نريد .

ومن بين تراث الشعوب القديمة ينفرد تراث العرب بمنزلة خاصة . فبحوثهم رائعة حول الصوتيات : فى مجال وصف مخارج الحروف ، أو فى مجال مركباتها المحدودة ببنية اللفظ ـ أو علوم الصرف ـ ، أو مجال علاقات الوحدات الكلامية ، علوم النظم ، أقول ان الذى صنعوه ما زال من أوفى الذى كان . وبه كثير من الصحة والسبق رغم تقلبات مناهج البحث وأخذها بمختلف المعايير . وبالمثل : كانت أقوالهم بشأن اللغة : فلسفتها ووظيفتها ، فيها الكثير من الأصالة والاتقان .

ويسجلون أن الخليل بن أحمد الفراهيدى ، ومن بعده تلميذه سيبويه قد صنعا صناعة عند دراسة الأصوات وذوق الحروف لتحديد المخارج والصفات(١) . ومع ذلك فان جهودا مستمرة نشطت من بعدهما وأعطت حلو الثمرات . كان الخليل « يمتاز بحس لغوى دقيق جعله يفقه أسرار العربية ودقائقها فى العبارات والألفاظ فقها لعل أحدا من معاصريه لم يبلغه . ويتوقف سيبويه مرارا لينقل عنه مثل : « ان هذه العبارة أو هذه الظاهرة تكرهها العرب » ، أو ان هذه الصيغة جيدة فى لسانهم أو أنهم يميلون الى هذا الأداء رغبة فى التخفيف . ومن أروع الجوانب التى يتضح

---

(١) قد يرى بعض العلماء والدارسين أن هذين العالمين قد تأثرا بجهد كان قد ترجم عن علماء الهند فى مجال الدراسات الصوتية .

انظر : التطور النحوى للغة العربية للمستشرق برجستراسر (المقدمه) .

وانظر : دراسات نقدية فى النحو العربى للدكتور عبد الرحمن أيوب .

والشىء الذى نضيفه أن التطبيق الذكى الذى التزما به يوشك أن يجعل جهودهما [illegible] بل وفريدة . والدور الذى لعباه يحتم استنتاج أن الحقل الدراسى لم يخرج شىء من الذى أحسنا اقتطافه .

فيها ذوقه اللغوى المرهف أحاديثه الكثيرة التى نقلها عنه سيبويه فى الادغام والاعلال ومواضع قلب الواو ياء والياء واوا ٠٠٠ »(١) ٠

لم تكن دراسات الخليل ، ودراسات سيبويه بمعزل عن منطق اللغة ، وعن القضية التى شغلت العصر ، عن : أفصح اللغات ٠ ما مواصفاتها ؟ ولأى القبائل تنتسب ؟ وكيف تركبت ٠٠٠؟ ولكن : أيمكن أن نعزل مثل ذلك الدرس عن الموقف الحضارى العام ! وتلك قضية لكل العصور ، وفرض على كل الانسانيات ٠

* * *

كان خلاف بين قراء القراءات القرآنية ، وانتصر رؤوس بعض المدارس اللغوية لحروف ، وانتصر السلطان لحروف أخرى (٢) ٠ ولم يكف الجدل اللغوى ٠ واذا كانت قاعدة مشروعة ذهبت الى « أن الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب »(٣) ، فان هذه الشريعة قد ولدت موقفا آخر ، يحدده الحافظ أبو عمرو الدانى فى كتابه « جامع البيان » بعد أن يحاج سيبوية فى انكاره قراءة « بارئكم ويأمركم » بالاسكان ٠ وينتصر الدانى لهذا الوجه ، ويسوق قاعدة شرعية أخرى : « أئمة القراء لا تعمل فى شيء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة والأقيس فى العربية بل على الأثبت فى الأثر والأصح فى النقل والرواية ٠ اذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية »(٤) ٠

---

(١) المدارس النحوية للدكتور شوقى ضيف ، ص ٣٧ ٠

(٢) فى كتاب المصاحف للحافظ أبى بكر عبد الله بن داود السجستانى رصد واضح لخلافات الحروف فى عدد كبير من المصاحف ٠ وفيه باب ما كتب الحجاج بن يوسف فى المصاحف (ص ٤٩) ٠ وينسب للحجاج أنه تدخل لاختيار أحد عشر حرفا من حروف القراءات وأمر بها ٠ وتفسير الطبرى يجمع الكثير من وجوه القراءات معزوة لأصحابها ٠ بل لا يكاد كتاب كبير من كتب السابقين المتصلة بالقضية الا وبه نقول من القراءات ٠ وكان الاطمئنان بالقلوب والمعرفة المعقولة والتثبت فى الرواية هى الضوابط التى رعت كل شيء ٠ وانظر مقدمة تفسير الطبرى ، ج ١

(٣) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ، ص ٩

(٤) المصدر السابق ص ١١

هذا نمط من معايير جدل القراء . يستند فى جوهره الى فهم للوضع اللغوى والظروف الاجتماعية التى احاطت بالقبائل العربية فى صدر حياتها الاسلامية . وليس لنا أن نتتبع « الدور » فى موقفنا هذا ، ولكنا نذهب الى أن العناية بالدراسات الصوتية ، وبالدراسات الصرفية ، وبغيرها من وجوه علوم اللغة كانت فى أصنها مشدودة الى رعاية النص القرآنى الكريم . ويرسم أحمد بن فارس حدا من القضية فى قوله : « ان لعلم العرب أصلا وفرعا . أما الفرع فمعرفة الاسماء والصفات كقولنا « رجل » و « فرس » و « طويل » و « قصير » . وهذا هو الذى يبدأ به عند التعلم .

وأما الأصل فالقول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ثم على رسوم العرب فى مخاطباتها ، وما لها من الافتنان تحقيقا ومجازا . والناس فى ذلك رجلان : رجل شغل بالفرع فلا يعرف غيره ، وآخر جمع الأمرين معا . وهذه هى الرتبة العليا ، لأن بها يعلم خطاب القرآن والسنة وعليها يعول أهل النظر والفتيا ... ولو أنه لم يعلم توسع العرب فى مخاطباتها لعى بكثير من علم محكم الكتاب والسنة ، ألا تسمع قول الله جل ثناؤه : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » الى آخر الآية ، فسر هذه الآية فى نطقها لا يكون بمعرفة غريب اللغة والوحشى من الكلام ، وانما معرفته بغير ذلك ... »(١) .

تلك صورة مما كان يلح على العلماء ويحفز الهمم للدرس والاستكشاف ، ومع الحوافز الدينية والعقدية كانت الحاسة اللغوية بكل قيمها الجمالية مما شغل علماء العربية . واذا كان حقا أن لكل شعب فنونه التى تمتص طاقاته وتستوعب تطلعاته ، فان « فن القول » كان مما أمسك بتلابيب العرب ، وأعطوه الكثير من عواطفهم وأنوار عقولهم . وبعد المراحل التى تشتفى فيها النفوس ، وتطمئن الى تراث فيه أصالة الأجداد وابداعهم يحلو دائما للعقل — اللاحق زمانيا — أن يعود الى كلاسية الأول يفتش

---

(١) الصاحبى فى اللغة . ص ٣

ويتأمل روائعها . وأحسب أن التحليل طريق يسلكه الفكر عساه أن يقوده الى بذور أولى أو نبت رشيق . وتحت الضوء كانت قضية القديم والحديث . واللغة وعاء الزادين . وانتصرت جماعة للقديم ، للألفاظ البدوية التى لم يشبها لين الحواضر وألسنة المولدين ، فأبو عمرو بن العلاء يرفض أن يروى أشعار جرير والفرزدق والأخطل ، لأن العبارة عندهم آخذة بغير ما أخذ به الجاهليون والمخضرمون[١] . وعارضت الاتجاه جماعة أخرى ترى أن لكل عصر رواءه ، ويلقى ابن قتيبة قولته المشهورة : « لم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا فى عصره »[٢] .

وغير بعيد عن خصومة القدماء والمحدثين ، بكل ما نتج عنها من آراء لغوى وفكرى ، سواء مما قال به أبناء مدرسة يمثلهم أنصار أبى تمام ، كرأس لمذهب يميل الى الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والفكرة ، أو مما قال به أبناء مدرسة يمثلها البحتريون ، حين ينسبون صاحبهم الى حلاوة النفس وحسن التخلص ووضع الكلام فى مواضعه وصحة العبارة وقرب المأتى وانكشاف المعنى[٣] . نقول غير بعيد عن هذا كان رافد ثالث من روافد حضارة العصر يتمثل فيما كان من جدل فكرى حاد بين رجال الفرق الدينية والأحزاب السياسية . لقد امتد الجدل ليغطى قضايا بارزة مثل الأخذ من ثقافات أخرى وخاصة الفلسفة الاغريقية ، ومثل الانتصار لعرق « جنس » على غيره من « العروق » . ولم تكن قضية الأخذ « بظاهر اللفظ » أو « بباطنه » الا جهدا آخر لتوكيد دور الدلالات اللغوية

---

(١) انظر موقف ابن الأعرابى من أبيات رقيقة لاسحاق الموصلى ، وكيف أنه حكم بفسادها بعد أن عرف مؤلفها ، الموازنة جـ ١ ، ص ٢٣

(٢) الشعر والشعراء جـ ١ ، ص ٧

(٣) فى سبيل مثال ترى يمكن ذكر كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدى وخاصة باب « احتجاج الخصمين » ، وفيه كثير من القضايا النقدية التى يقوم أغلبها على تحديدات لدور العبارة اللغوية فى مفهوم الشعر .

في الصراع العقدى والفقهى بل والحضارى · واصطدم « المنقول بالعقول » ، وكانت حلقات درس عامرة بالحياة · وكان شرطا أساسيا لكل من يسهم فى القضايا أن تحسن معرفته باللغة ، بل وأن يكون ذا رأى فى الكثير من قضاياها(١) ·

* * *

التفسير كان فى بدء نشأته يدور على ألسنة رجال اللغة(٢) · والقراءات كانت الحقل الذى برز فيه العديد من اللغويين(٣) · والدراسات البلاغية والبيانية والنقدية كانت كلها بين أيدى اللغويين والأدباء من أصحاب البيان(٤) ·

---

(١) انظر كتاب جولد تسيهر عن « مذاهب التفسير الاسلامى » . ترجمة د· النجار . وبصرف النظر عن بعض الشطط فى الكتاب فانه يحيط احاطة كافية بالكثير من الجدل اللغوى والعقل ·

وانظر كذلك البيان والتبيين للجاحظ ، وفيه محاولة واسعة لتحديد مفاهيم البلاغة والبيان عند العرب وعند غيرهم من الشعوب ·

ولسنا فى حاجة الى التذكير بما كان يذهب اليه الامويون حين أصروا على ارسال بعض اولادهم الى البادية ، او استقدام المؤدبين اليهم ممن عرفوا بفصاحة اللسان · ولم يكن ذلك الا حفاظا على أوعيتهم اللغوية ·

(٢) أما أن نزول القرآن قد أثار الاحساس البيانى عند العرب فذلك واضح من التحدى الذى ألقاه القرآن للمشركين ليأتوا بسورة من مثله · ومن ثمة كان الوجه الذى غلب على المفسرين الأوائل هو الوجه اللغوى · وما زال تراث التفسير يذكر ما ذهب اليه ابن عباس من أنه اذا تعاجم شئ من القرآن فالتمسوه فى الشعر فانه ديوان العرب · وربما كانت بعض ملاحظات ابن عباس وتلميذه مجاهد هى التى أمدت أصحاب التفسير بـ « المعقول » بكثير من خبرتهم اللغوية . والجهود اللغوية فى هذا المجال أوسع بكثير من أن نحيط بها . ولكن يكفى أن نذكر نماذج كتب « غريب القرآن » ، « مجاز القرآن » . « مشكل القرآن » ·

(٣) ان حركة الجدل الذى قام حول القراءات هى فى أصلها حركة لغوية خالصة · وسواء كانت القراءات المتواترة أو الآحاد أو الشاذة فهى ترتد الى توجيهات لغوية · وحين دار على شيوخ القراءة اختيار أصحاب القراءات السبع أو العشر أو غيرهم كان الاختيار مستندا – بعد التسليم بصحة الرواية – الى منزلة القراء فى مجال المعرفة اللغوية ·

(٤) ان الجدل الكبير بين المدرستين الكبيرتين : البصرة والكوفة لم يكن الا توكيدا لموقف من الأداة وطرق فهمها وتحقيقها · وحين نترك الجهود النحوية الخالصة ونقول انه اذا صح وكانت كتب الجاحظ كالبيان والتبيين وابن سلام « طبقات فحول الشعراء » وابن قتيبة =

وما يكاد القرن الثالث للهجرة يكتمل حتى تكون مواد الموسوعات اللغوية قد صنفت وقام العلماء بجهد ضخم لتنقية الألفاظ والعبارات ، وتحقيق الدواوين قديمها وحديثها · وما تكاد قضية من قضايا اللغة فى عصرهم تمر دون وقفات من العلماء يمخضونها · ولعل أبا الفتح عثمان بن جنى(١) يمثل منزلة خاصة بين رجال القرن الرابع للهجرة · لقد استوعب الرجل كثيرا من التراث حتى عصره · ثم قفز به قفزة رائعة للأمام · ما عاد يكتفى بالرصد والوصف ، بل أخذ يشق الطرق للجديد ، وتدفعه جسارته العقلية الى تناول اللغة كأداة مقرونة بالانسان ، لا فكاك له عنها ، ولا وجود لها بدونه · وحين يعرض القضية التى دارت مع السنة الأصوليين والعقليين والنقليين وهى قضية أصل اللغة : أالهام أم اصطلاح نراه يأخذ بحذر العالم الورع الذى لم يثنه حبه للغة ، ولا ما شاع على ألسنة بعضهم من فضل العربية وشرفها · فهى لغة آدم · وهى لغة أهل الجنة(٢) · وحين يقف ابن جني أمام القضية يقول : « هذا موضع محوج الى فضل تأمل » ، ويعرض آراء « أهل النظر » « وهم أهل الاعتزال » الذين ذهبوا الى أن اللغة تواضع واصطلاح لا وحى وتوقيف · ويعرض رأى أستاذه أبى على الفارسى الذى قال انها من عند الله · ولكن برعاية البر يناقشه ويعرض الكثير من الآراء المتأرجحة بين المأخذين : التوقيف والاصطلاح ، وبعد ذلك يضيف صاحبنا رأيا : « أصل اللغات كلها من المسموعات ، كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وصهيل الفرس ··· ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد » ·

= « الشعر والشعراء » كتبا تسجل الكثير من الجدل النقدى والبلاغى . فان الطابع اللغوى لذلك الجدل واضح تماما · ثم حين ننظر الى كتاب عبد القاهر الجرجانى « دلائل الاعجاز » تسفر القضية وتتسنم الحماسة البلاغية أو اللغوية ذروة البحث ·

(١) الرجل مشهور · ومع ذلك فلنقل انه ولد عام ٣٢٠ هـ وتوفى ٣٩٢ ودرس على يد أستاذه أبى على الفارسى · وتمتاز أبحاثه بعمق الفكرة وكأنه استوعب مقاييس العصر : عند اللغويين الأصوليين والنحاة المتكلمين ··· لترجمته انظر : تيمية الدهر ج ١ ، تاريخ بغداد ، معجم ياقوت ج ١٢ . أو المقدمة التى كتبها المرحوم النجار لكتاب الخصائص ·

(٢) انظر السيوطى ـ المزهر ج ١ ، ص ٣٠ · حيث يسوق ما يأخذه عن ابن عساكر ، منقولا عن ابن عباس « كانت لغة آدم فى الجنة العربية · فلما عصى الله سلبه العربية ، فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله اليه العربية » وعند فهم هذا لن تغيب فكرة العصبية الحبة للغة ·

« وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل » . ومع هذا الالتزام فهو يشعر أن الموضوع بطبيعته المنتمية الى « ما وراء اللغة » أخطر من أن تكون فيه كلمة قاطعة . « واعلم فيما بعد : أننى على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى ، مختلطة جهات التغول على فكرى . وذلك أننى اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ما يملك على جانب الفكر . حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر ، فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ، ومنه ما حذوته على أمثلتهم ... وانضاف الى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله جل وعز . فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توفيقا من الله سبحانه ، وأنها وحى »(١) . ذلك احساس عالم ، كم يستشعر الرهبة كلما تأمل فى مادة علمه ؟ ثم هو يدرك فضل شيوخه وقيمة أعمالهم ، فأصبح يتأمل اللغة وكأنه يتأمل « الكون » . أليس ذلك هو الاحساس نفسه الذى ينتاب أشد الناس ايغالا فى الأخذ بالعقل الصرف حين يجنح الى وهم يحسبه مريحه من نسبة الكون الى قوى غيبية ، ثم حين تتاح فرصة المراجعة والتنقير والبحث تهوله أعماق الكون وأسراره ، ويصبح لا مندوحة له من الالتجاء — من جديد — الى الخالق ييسر لعقله ادراك شيء من السر الهائل . والذى يبهر الناظر فى آراء ابن جنى أنه على الرغم من ورعه اللغوى يعود ليقول : « ثم أقول فى ضد هذا : كما وقع لأصحابنا ولنا ، وتنبهوا وتنبهنا ، على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا — وان بعد مداه — من كان ألطف منا أذهانا وأسرع خواطر وأجرأ جنانا . فأقف بين تين الخلتين حسيرا . وأكاثرهما فأنكفىء مكثورا . وان خطر خاطر فيما بعد ، يعلق الكف باحدى الجهتين ، ويكفها عن صاحبها ، قلنا به . وبالله التوفيق »(٢) .

هو عقل عامل اذن . يجمع الكثير من القضايا التى أحاطت بعصره ،

---

(١) الخصائص ، جـ ١ ، ص ٤٧

(٢) المرجع السابق .

قضايا القياس ، والاشتقاق والأصول والفروع ، ومباحث الفقه والعلل ـ ومذاهب أهل الأصول والمتكلمين(١) ٠

وإذا تركنا هذه النظرة الكلية الى أصل اللغة ، لنقف أمام محاولته لتقديم حد للغة أدهشنا جهده ٠ انه يقول : « أما حد اللغة فانها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »(٢) ٠ وهذه كلمات تسبق ما جاء به غيره بمئات السنين ٠ انه يعرض فكرة الأصوات اللغوية ، سواء كانت نظرتنا اليها أنها غريزية أم مكتسبة،وسواء ألححنا أنها رموز أم أجزاء من رموز٠كما يعرض وظيفة اللغة فى المجتمع حين تعبر عن آراء كل قوم ٠ وذلك « حد » يقع تحت النظر المنطقى الذى يفترض « وضعا » مسبقا أو منطقيا فى كل نظر لغوى ٠ وهو أيضا لا يقع تحت الحاح ضيق فيشد حده الى لغة معينة ٠ ولكنه اطلاق أصيل يذهب اليه ، يجعل من حده وعاء يتسع للكثير مما أضافه اللغويون من بعد ٠ ولعلنا نختار ما يقوله ابن سيده الأندلسى فى مقدمة (المخصص) وهو أحد شوامخ القرن الخامس للهجرة : « ان الله عز وجل لما كرم هذا النوع الموسوم بالانسان وشرفه بما آتاه من فضيلة النطق على سائر أصناف الحيوان وجعل له رسما يميزه وفضلا يبينه على جميع الأنواع فيحوزه ، أحوجه الى الكشف عما يتصور فى النفوس بضروب من اللفظ المحسوس ليكون رسما لما تصور وهجس من ذلك فى النفوس فعلمنا بذلك أن اللغة اضطرارية وان كانت موضوعاتها اختيارية ٠ فان الواضع الأول المسمى للأقل جزءا وللأكثر كلا ، وللون الذى يفرق شعاع البصر فيبثه وينشره بياضا ، وللذى يقبضه ويضمه ويحسره سوادا ، لو قلب هذه التسمية فسمى الجزء كلا ، والكل جزءا ، والبياض سوادا ، والسواد بياضا

---

(١) يمكن الرجوع الى كتابه « المنصف » لمراجعة آرائه حول اشتقاق الأفعال من أسماء الأعيان فى الجزء الأول أو من الحروف فى الجزء الثانى ٠

وفى « الخصائص » الى أبواب مثل تعارض السماع والقياس ج ١ ، أو باب « الفروع والأصول » فى الجزء الأول أيضا ٠

وهذه مجرد نماذج لتوضيح اتجاهه الآخذ بالتفكير المنطقى واللغوى الخالص ٠

(٢) الخصائص ، ج ١ ، ص ٣٣٠

لم يخل بموضوع ، ولا أوحش أسماعنا من مسموع • ونحن مع ذلك لا نجد بدا من تسمية جميـــع الاشياء لتحتاز بأسمائها ويتماز بعضــها عن بعض بأجراسها وأصدائها ، كما تباينت أول وهلة بطباعها ، وتخالفت قبل ذلك بصورها وأوضاعها ، ونعما ما سددت الحكماء اليه فى ذلك من دقيق الحكمة ولطيف النظر والصنعة ، لما حرصوا عليه من الايضاح وأغذوا اليه من ايثار الإبانة والافصاح »(١) •

كلام ابن سيده أكثر تفصيلا من الحد الذى قدمه ابن جنى ، ولكنه يرتد فى كثير من أصدائه الى فلسفة الشيخ القديم • ففضيلة النطق من ســمات الإنسان • والالفاظ المحسوسة التى ينطقها هى الطريق للكشف عما يتصور ويهجس فى النفوس • ويؤكد ابن سيده فكرة اختيارية الألفاظ • فوضعها اختيارى ، وان كانت الحاجة اليهـــا اضطرارية بحكم انتمــاء الانسان الى المجتمع • وهو يؤكد حتمية تسمية الأشياء « لتحتاز بأسمائها » • وتلك نظرة عميقة فى فهم علاقة التفكير باللغة ، فى موقفها من الحضارة عامة • عن طريق امتلاك الأسماء والكلمات نمتلك الأشياء ، نمتلك مفهومها عن طريق ملكيــة منطوقهـــا • ومن يمتلك اللفظ يمتلك الشيء • واذا كانت النظرة السحرية القديمة تتركز حول فعـــل هذه المقولة ، فان النظرة التى تسعى اليوم لعدم اهمال الجانب الأسطورى من اللغـــة ، تدور فى نفس الفلك : لا معرفة بلا لغة ، ولا ادراك دون لفظ ما دمنا ننشد الوضوح والابانة •

عناية العلماء بالدرس اللغوى تحقيق لوظيفتها الاجتماعية والروحية • واتجهت العناية الى ناحيتين : ناحية ترعى الأجزاء أو الأصوات ، وناحيـــة ترعى التراكيب أو الجمل ، وفى الحالتين كان التحليل هو المهيمن • وكـــل تحليل يستهدف الوصول الى سر التكوين • وكانت « الأصوات » ــ فى عصر من العصور ــ مدخلا لابد منه لعقـــل لغوى أشبع بالمقـــاييس المنطقية ، والقضايا التحليلية والتفريعات التى حملت على الأصـــول • ثم جاء زمن ،

---

(١) المخصص ــ لابن سيدة ــ المقدمة ص ٢ •

ولعله لم يتأخر كثيرا ، اخذ فيه نهج التركيبات يقود بعض السفين ، يدرك أن الألفاظ وحدات يكاد استقلالها أن يكون غير ذى بال · أما القيمة الحية فانها وليدة العلاقات ، وليدة «النظم» وليدة « وظيفه الاعراب » ، أو « معانى النحو » فى أحلى صور التعبير : « اعلم أنك اذا رجعت الى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك : أن لا نظم فى الكلم ولا ترتيب ، حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك · هذا ما لا يجهله عاقل ، ولا يخفى على أحد من الناس · واذا كان كذلك فبنا أن ننظر الى التعليق فيها والبناء ، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها : ما معناه وما محصوله · واذا نظرنا فى ذلك أعلمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد الى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا ، أو تعمد الى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر ، أو تتبع الاسم اسما ، على أن يكون الثانى صفة للأول ، أو تأكيدا له أو بدلا منه ، أو تجىء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثانى صفة أو حالا أو تمييزا ، أو تتوخى من كلامه هو (أى فى أصل وضعه وتركيبه) لاثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا ، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك ، أو تريد فى فعلين أن تجعل أحدهما شرطا فى الآخر ، فتجىء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الأسماء التى ضمنت معنى ذلك الحرف · وعلى هذا القياس »(١) ·

واذا كان النص السابق يؤكد دور التراكيب أو العلاقات فان الاعتراض الذى يثور فى النفس عند قراءته هو أن الجرجانى يوشك أن يجعل معانى النحو صاحبة الطاقة المهيمنة على العبارات · وأخشى أن يتوارى دور الفرد ، ودور النطق ، أو دور ما يمكن تسميته بالطاقة الوجدانية التى تعجز كل الصيغ النحوية عن الافصاح عنها ، فهى لصيقة بالأعماق ! ويدفع الايمان بالعلاقات النحوية صاحبنا الى توكيد أن اللفظ تبع للمعنى فى النظم ، وأن الكلم تترتب فى النطق بسبب ترتب معانيها فى النفس · هذا التوالى الهندسى يحيل اللغة الى متوالية ستاتيكية لا تقوى على حمل الوجدان اللغوى

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٤ — ٤٥

المساوى للوجدان البشرى ، ولهـذا تحاول بعض الدراسـات الحديثة أن لا تقبض على القاعدة النحوية وحدها ، وانما تلتف حول محور الماهيـات ، ومحور العلاقات أو النسب بين الماهيات · فلكل ماهية « دالة » ولـكل نسبة « دالة » أيضا · كذلك قال فندريس : « تنتظم كل جملة نوعين من العناصر المتميزة : أولا التعبير عن عدد من المعانى التى تمثل أفكارا ، وثانيا الاشارة الى بعض العلاقات التى بين الأفكار »(١) وهذان القسمان يقـابلان ما يسمى بدوال الماهية sémantémes ، وهى العناصر اللغوية التى تنوب عن الماهيات المتصورة ، ودوال النسبة morphèmes وهى العناصر التى تعبر عن النسب بين الماهيات · والعقـل يقوم بحكم نشاطه ، وبفضـل الوجدان ، بتحليـل العبارات الى ماهياتها ، ثم يركب هذه الماهيات فى نسب ، أو يسند بعضها الى بعض · وقد تأتى الكلمة ، وقد شحنت بكل ما تحتاج اليـه من جانبى الماهية والنسبة ، وقد تأتى وصورتها الصرفية معطية للنسبة المرادة · « ان نمطية الدلالات semantic regularities ليست مجرد نمطية عـائدة الى العناصر النحوية Linguistic elements ، صحيح انها موجودة بها ، ولكن الدلالة ليست شديدة التقيد بها · ان نمطيتها تستمد من الترابط مع التركيب عبر العناصر اللغوية وغيرها : من النطق ، من الجمل ، من المواقف أو من الأشخاص أو من الأداء الصوتى وغير ذلك ··· »(٢)

ان كل الجهود التى تبذل تستهدف الوصـول الى الادراك ، وكشف الدلالات هو غاية العناية باللغة ، أو بالأداة التى تحقـق الانسان ، وليس بشرط أن نقبل ما قال به السابقون من أن اللغة ظاهرة اجتماعية · انها أبعد من ذلك ، تستوعب الممكن الاجتماعى وتتجاوزه · ولقد نشطت مناهج مختلفة تدرس الدلالة وتحاول الامساك ببعض قوانينها · وفى الصفحات التاليـة محاولة — عن قرب — لتتبع مناهج تترسم السمات ، آملا أن نجـد ما يهب الشجرة الطمأنينة الندية ·

---

(١) انظر اللغة : ترجمة القصاص والدواخلى ، ص ١٠٤ وما بعدها ·
وفى جملة مثل « الحصان يجرى » تصبح فكرتا الحصان والجرى تمثلان دالتى ماهيـة واسناد الجرى للحصان يعتبر اسنادا للنسبة بينها · مع تنوع واسع فى دوال النسبة ·

(٢) Paul Ziff; Semantic Analysis, p. 27.

من تاريخ القضية

الرموز والدلالة :

حين يرجع الانسان بفكره الى ذكرياته التى علقت فى ذهنه ، والى أحلامه التى عاشها أثناء نومه ، يشعر بأن فى قدرة الألفاظ وهى وسيلته لربط أفكاره ، واحياء ما همد من الماضى ، كما أن فى قدرتها تجسيم صور المستقبل ، حتى لتصبح كالحقيقة فى حيويتها واندفاعها · والعبارة تمتلك القدرة نفسها ، اذ تخلق عوالم خيالية يتصورها الذهن · وكان من الطبيعى أن يقف الانسان أمامها ، ويحاول ادراك سر ذلك الارتباط بين الدلالة التى تنتشر فى نفسه وبين الصياغة التى حملت له الدلالة · وكانت طبيعة ذلك الارتباط مما أثار عقول الفلاسفة واللغويين والأدباء ·

« ان الرموز التى يستخدمها الانسان منذ أقدم العصور ، لتساعده فى عملية التفكير ، ولتسجل كل ما يصل اليه ، كانت دائما منبعا مستمرا لاثارة التعجب والاندهاش · لقد تأثر الجنس البشرى كله بخصائص الكلمات التى هى أدوات للسيطرة على الأشياء بعد أن أضفت عليها - عبر كل العصور - نوعا من القوى الخفية · وفيما بين موقف المصريين القدماء وموقف الشاعر المعاصر ، يبدو - عند الوهلة الأولى - فرق بسيط · وفى السياق ، يقول وولت ويتمان Walt Whiteman . « كل الكلمات مزودة بطاقة روحية ، ولا شىء أكثر روحية منها ، ومن ثمة فما هى الكلمات ؟

ترى عبر كم من الآلاف ، أو عشرات الآلاف من السنين انحدرت الينا اللغة ! وما لم ندرك ، بوعى ، التأثير العميق للمعتقدات السحرية Superstitions التى تحيط بالكلمات فلن نفهم سر انتشار العادات اللغوية

التى ما زالت تتحكم حتى فى أشد أنواع التفكير دقة »(١) ٠

ان البحث حول صلة اللفظ بدلالته ، ارتبط تاريخيـــا بالبحث الذى عالج فكرة « نشأة اللغة » ، وذلك حين سعى البحثان لكشف النقـــاب عن أولية انطلاق الشفاه بأصوات معينة لتأدية معـــان محدودة ، أو عن أوليـــة تسرب المعانى الى النفس بمجرد سماع أصوات تم التواضع عليها ، وعدت — فيما بعد — من لبنات اللغة ٠

واذا كانت مناهج بعض قدمائنا قد جنحت فى الكثير من معارضها الى خلط القضايا ، استطرادا أو تحـــرزا ، فقد يكـــون من الممكن أن نحاول استخلاص شىء من الفكر الذى أثير حول الأمرين من صفحات كتبها الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازى ، المتوفى عـــام ثنتـــين وعشرين وثلاثمائة للهجرة فى كتابه « الزينة » ، والذى صنعه لشرح ما يجىء فى الشريعة من الأسامى فى أصول الفرائض والسنن ٠ فبعد أن يفرد الرازى صفحات طويلة للعربية : حروفها وشعرها ، يقف أمام الآية الكريمة : « وعلم آدم الأسماء كلها » وسياقها كان مما استند اليه القائلون « بالتوقيف » فى حياة اللغـــة ومنشئها ، يضيف صاحبنا « أن الله عز وجل لما أظهر فضيلة أبينا آدم عليه السلام علمه الأسماء كلها : « ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسمـــاء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنـــا الا ما علمتنا ، انـــك أنت العليم الحكيم ٠ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمـــون » ٠ (س : البقرة آية ٣١ — ٣٣) فأبرز فضيلته لعلمه بالأسمـــــاء ٠ ثم أمرهم بالسجود له ٠ وكان معرفة آدم للأسماء هى سلمه الذى يرقى به الى تلـــك المنزلة الخاصة ٠ والرازى يرى أن تعليم آدم الأسماء كان الطريق الى معرفة الصفات أو ادراكها ٠ « وانما صار الفضل فى معرفة أسماء الأشـــياء ، لأن كل شىء يعرف باسمه ، ويستدل عليه بصفته ٠ والصفة تقوم مقام الاسم ٠

---

(١) Ogden & Richards, The Meaning of Meaning p. 24

وتكون خلفا منه »(١) . وهذا الاطلاق يتضمن ادراك البشر لذات الله . فعن طريق معرفة أسمائه وصفاته يستقر الذهن على « الصورة الكلية » . واذا كان بعض اللغويين قد ميزوا الأسماء عن الصفات فان أبا حاتم يمزجهما بحكم انتمائه الى العقيدة العلوية التى ترى الصفة قرينة الاسم . « الله عز وجل يعرف بأسمائه ، وينعت بصفاته . ولا درك للمخلوقين الى غير ذلك وصفاته أسماؤه » . وأسماء الله الحسنى هى أسماء لله وصفات له . وكذلك أسماء المخلوقين وصفاتهم . ومنه كان حرص الناس على منح الملوك والأئمة أسماء كأنها صفات : كالصادق والمتوكل والهادى وما الى ذلك ... ووسيلتنا الى معرفة الأسماء أن نعرف الأسماء ونستدل عليها بالصفات . سيان فى ذلك ما نراه شاهدا يدرك أو غائبا لا يدرك بالحواس .

تلك محاولة لربط الاسم بالصفة . واذا كان فقه اللغة المعاصر يرفض ذلك بحكم قدرة العقل على تحويل الصفة الى اسم أو تحويل الاسم الى صفة ، ففى مثل قولنا : « الرجل صادق » يلعب الخبر « صادق » دور الصفة للاسم، ولكن حين نعكس العبارة الى « الصادق رجل » ، فان الاسم تحول بحكم المقولة النحوية وهى الخبرية الى صفة بينما صار « الصادق » الاسم المحتاج الى مسند اليه . ومع هذا الاعتراض فان مزج القدماء الاسم بالصفة هو بلا شك وليد الاعتقاد بدوام الارتباط وبتأثير الصفة على ادراكنا لحدود الاسم(٢) وكان لابد من أن تقرع أذهان اللغويين عدة أسماء تبدو منبتة عن أصولها . فكلمات مثل : الجمل ، والحجر ، والشمس ، والقمر لا تفصح عن انتمائها لأرومة خاصة فى الأصول اللغوية . بينما هناك أسماء أخرى لا يصعب تطبيق « شجرة الأنساب » عليها . وكأن الفكر حريص على تلك القاعدة التى وسمت حياته الأولى .

---

(١) الزينة : ص ١٣٢

(٢) فندريس صاحب كتاب اللغة . يعالج قضية أقسام الكلام فى فصل ممتع . رغم ما به من غموض فى بعض مناقشاته . وفيه يناقش صنيع المناطقة بأجزاء الكلام ليصل الى رفض مثل تلك التقسيمات المنطقية . انظر من ص ١٥٥ الى ص ١٨٢ .

« وربما دعى الشيء باسم لا يعرف اشتقاقه من أى اسم هو ، بل يكون مصطلحا عليه ، قد خفى على الناس ما أريد به ولأى شيء سمى بذلك الاسم . كقولك الفرس والحمار والجبل والحجر وأشباه ذلك »(١) . وهـذا التحديد يفرض « حدا » معينا للاسم ، فهو غير المشتق أو الجامد أو هو الذى لا ينتمى لأسرة « معنى » ، لأنه عنده « مصطلح عليه ، والمصطلح عليه لا يكون مشتقا من آخر ، ولا يعرف معناه الا الله عز وجل ومن علمه الله . لأنه ان كان الاسم لابد أن يكون مشتقا من غيره ، فان ذلك الأول يقتضى اسما قبله يكون هو مشتقا منه ، فهذا ما لا نهاية له . وهو غير ممكن »(٢) .

ولست أظن أننا فى حاجة الى توكيد خلاف ذلك مما يذهب اليه النحاة فى تعريف الاسم وحده بقبول علامات الاسمية . وأما الأسماء التى تشتق فمنها ما يشتق من معنى تقدمه ، قد فسر العلماء اشتقاقه والمراد منه .. ويضرب الرازى لذلك أمثلة : فآدم سمى بذلك لأنه أخذ من أديم الأرض ، والانس سمى بذلك لظهورهم ، ويقال أنست الشيء اذا أبصرته ، والجن سمى بذلك لاستخفائهم ، يقال اجتن اذا استخفى . وهناك أيضا نوع ثالث من الأسماء : اسم بمنزلة الصفة « كقولك محمد هو مشتق من الحمد ، والحسن مشتق من الحسن »(٣) . وهو يرى استحالة « الدوران » لأن المصدرين : الحسن والحمد مصطلح عليهما .

فى جهد الرازى الذى رأينا قبسا منه خلط واضح بين الأصول والفروع ، بين « وضع » اللغة وسعى العقل لاشتقاق صياغات مختلفة يردها الى الجذور . واذا كانت التجارب ، والملاحظات ، والبحوث التى أجريت للوصول الى بدايات اللغة لم تبعث بعد أقدامها فى أرض صلبة بالحقائق العلمية فان الدراسات التى تتبع صلات الألفاظ بعضها ببعض ، كتلك التى عالجت القياس أو الاشتقاق أو التصريف ، أو ما يحدث للألفاظ من تغير

---

(١) الزينة . ص ١٣٢

(٢) المصدر السابق ص ١٣٣

(٣) المصدر السابق ص ١٣٢

معانيها مع تغير صياغاتها ، قد انضوت تحت راية التنقيب عن سر «الدلالة» .
ولا شك فى أن اثارة هذا المبحث يحركها خوف الانسان مما يمكن أن يجرى له كلما جرت اللغة بين بنى الانسان ، ولطالما شهدت الانسانية شرورا كثيرة حين أساء بعض القوم استخدام « اللغة » فصارت أداة تحريض وارهاق ، بدلا من أداة للتفاهم والتعاون . ان الأمل فى تبديد المخاوف ، والتغلب على الصعاب يدفع الانسان للتشبث بادراك سر اللغة ، وهكذا يرقب الدور الاجتماعى الخطير الذى تلعبه فى حياته .

ومنذ بدأ علماء الانثروبولوجيا يفتشون عن ماضى الانسان ، وهم يعتبرون اللغة ، بجانبها الغيبى ، مصدرا ثريا يمدهم بكثير من معتقدات السابقين . وفى السياق يقول جيمس فريزر — أحد الذين أرخوا للدين وللتراث الشعبى — : « لو أننا استطعنا أن نفتح رأس رجلين ينتميان الى جيل واحد والى بلد واحد ، ولكنهما يقعان فى طرفين متباعدين من الحياة الثقافية ، لو استطعنا أن نفعل ذلك ، لكان من المحتمل أن نجد عقليهما مختلفين وكأنهما ينتميان الى جنسين متباينين . ان المعتقدات الخرافية تعيش لأنها فى الوقت الذى تصدم فيه أفكار بعض المتفتحين من أفراد المجتمع ، تبقى متسقة مع أفكار ومشاعر الآخرين ، الذين رغم انتمائهم الى مظهر من مظاهر التمدن يضمون قلوبهم على روح بدائية أو بربرية . والذين قادتهم دراساتهم لفحص الموضوع ، هم وحدهم اليقظون الى مدى عمق الأرض التى نقف عليها ، انها كقرص شمع العسل ، عامرة بقوى غير مرئية »(١) .

الأفكار التى يسعى فريزر لاكتشافها لن تكون الا مع الرداء اللغوى ، فهو وحده القادر على أن يحمل لنا الواقع الثقافى والاجتماعى الذى يتفرد به كل كائن بشرى .

* * *

(١) G. Frazer, Psyche's Task, p. 196.
Cited by Ogden & Richards, p. 25.

الزمن والدلالة :

واذا كان الانسان قد سلخ - عبر شنوط بعيد المدى - عن لغتــه بعض الارتباطات السحرية ، فان الطاقة الهائلة التى تحدثها عبارة دينية أو بيت شعرى ، لما يحن اليها أكثر العقول أخذا بالجانب المادى أو بالجانب العلمى • كل أنماط الحياة لها جوانبها السحرية ، وللمجتمعات البدائية التى يسرف بعضنا فى تجسيم بدائيتها ، منطقها العلمى الخاص • وأستعير من المجتمعات البدائية ، والمجتمعات المتقدمة موقفها من الطاقة الضخمة التى تلتمسها حين تجعل « القسم » وسيلة من وسائل اكتشاف الحق • ولقد تتفاوت مواقف القضاة منه ، وتتفاوت موضوعاته ، ولكنه يبقى فى كل الحالات بارزا كأثر من آثار عقيدة السلف فى الارتباط « الطبيعى » بين لفظ « القسم » والقوة « المقسم بها » • انه سعى فى الدرب الذى سلكه القدماء وصــولا لشىء من المستور •

ومنذ لاحت للانسان قوة الألفاظ ، ركن اليها سائلا العون • فهو ينطق ببعض منها ، فتشحذ همته ، ويستشعر القوة والعزم ، وقد يبدد عنـــه الخوف والرهبة • وان دهمته قوى لا يستطيع مغالبتها فهو رهين سر بعض الكلمات التى اختارها لتهيب بقوى الطبيعة ، أو بقوى الغيب ، حتى تمــد يدها اليه • والذى نتصوره أن عدداً من الألفاظ صارت كالأعلام الثابتة • ومع امتداد الزمن أصبحت تلك الألفاظ ذات قوى دائمة ، ولاحت دلالاتهــا متصلة بالصياغة الصوتية اتصالا موحيــا • وفى الصــلوات والدعــوات والتوسلات أدلة واضحة على هذا ، وتراث الانســانية من أساطير السـحر والخرافات هو نبع من قدرة الألفــاظ على اثارة قوى تستجيب لأعــلام من الألفاظ • ان نشأة السحر مرتكنة الى معرفة الساحر ببعض الكلمـات التى تمكنه من فرض سلطانه وسلطان الغموض على عقـول المســحورين • ولم يقتصر ذلك الدور على اللغــة المنطوقة ، بل انه امتد الى الكتــابة • وبحـكم ثباتها ، ودوام حياتها ، صارت الكلمات السحرية المقيدة ، أكثر خطرا على الخائف من السحر من مثيلاتها المسموعة : « ان الذين بدءوا باستعمال الكتابة، كانوا يستعملونها فى عمليات شبه سحرية ، فالكتــابة فى أصلها كانت طريقة من طرق السحر ، وقد احتفظت اللغة المكتوبة بهذه الصفة زمنا طويلا•

فكتابة اسم على قطعة من اللحاء أو من اهاب حيوان كان معناها القدرة على رفعه أو خفضه ، وعلى نجاته أو اهلاكه ، تبعا لارادته · وأول ما خط من سطور تحتوى على اسم أحد الأشخاص كان ضربا من الرقى : تعاويذ يقصد بها النجاح أو الشقاء ، والاخضاع أو الاضرار · اذا كانت الكلمة الملفوظة لها قوة سحرية فالكلمة المكتوبة من باب أولى · ومن ثم كان الكتاب الأولون من السحرة »(١) ·

ولا تعنى هذه القوة التى ملكتها الألفاظ المكتوبة ربط حيـاتى اللفظ — منطوقا ومكتوبا — ربطا لا انسلاخ له ، فللفظ المنطوق أو المسموع كيانه المستقل عن صورته المكتوبة ، مهما كان للكتابة من أثر دائم أو على الأقل من استمرار أكثر فى ذهن القارىء من مثيله المسموع فى ذهن السامع · ومهما بدت الكتابة كقيد للأفكار التى تلوح كالأوابد تود الفرار مع الزمن — فتردها الكتابة — ، ثم مهما كان العون الذى عرفته الانسانية من النصوص المقيدة التى وعت لنا الكثير ، أو جل ما نعرف من تراث الانسان ، فان النطق أسبق فى حياة اللغة من الكتابة ، وان تكن الأخيرة أكثر قدرة على عبور حدود المكان والزمان · ورغم هذه الحقائق التى عاشت الكتابة فى ظلهـا آلاف السنين ، يلحظ اللغويون عودة القيادة المؤثرة الى اللفظ المنطوق ، وذلك منذ عرف الانسان أجهزة الاتصال الصوتى كالتليفون والراديو وأجهزة الاعلام المماثلة· ومن جديد يقف الانسان متوجسا أمام الطاقة التى تمتلكها تلـك الأجهزة لتحويل أحاسيس الناس ، بل ولتحويل مواقفهم السلبية الى طاقات ايجابية — بانية أو مخربة — ·

ان الانسان يستمع اليوم الى جلجلة الكلمة فى حياته ، انها تهزها هزا· لقد أصبحت الألفاظ ذات خطرين داهمـين : أما الأول فهو قدرتها على « تمييع » المعتقدات و « الايديولوجيات » التى طالما استقر معهـا الوجـدان الانسانى · الكثير منها عرضة للاهتزاز ، نتيجة للجدل المذاع أو المنشور · والثانى من الخطرين يتعدى وجدان الفرد لينال من الجماعة ، والكثير عما تحمله

---

(١) اللغة ، لفندريس ص ٤٠٣ ·

الموجات الأثيرية هادف الى احداث تغييرات فى بناء التركيب الاجتماعى . مهما تفاوتت الحدود المنشودة . ومع هذا الاحساس ، فهناك فرق واضح بين موقف القدماء وموقف الانسان الحديث . لقد كان الأوائل يستشعرون أنواعا من القدسية تربطهم بالألفاظ ، وكثيرا ما كان اعتقادهم يصل بهم الى حد تصور الخير أو الشر من الألفاظ فى حد ذاتها ، ومن ثم كان وجلهم منها . أما المحدثون فان الألفاظ ترتبط أمام الكثيرين منهم بقدرتها على تحريك الارادة المستقلة بعيدا عن المعتقد السائد أو تحريكها الى فلك آخر يخالف الفناك العام الذى يريده القائمون على أمر المجتمع . ومع نشدان الارادة الفردية فان اللغة المنطوقة تنشد الوجدان الفردى ، وقد أصبح فى قدرته التمرد على كثير مما ألفه وجدان الجماعة . وذلك أمل يلوح أمام أصحاب الفلسفات المختلفة ، سياسية واجتماعية — يغريهم ببث أقوالهم لتكتسب جموعا جديدة أنصارا لها وأعوانا !

ان المجتمعات الحديثة تخشى اللغة ، وعلى حق . انها أخطر سلاح تمدكه البشرية اليوم . لقد مكنت وسائل الاتصال المعاصرة لنفوذ اللغة . وكم من مرة كانت كلمات أغنية أو بيت شعر ، أو شعار من الشعارات ، مما ثبت أقدام جند فى مواقعهم حتى كتب النصر لهم ، وعلى عكس ذلك : كم من مرة أيضا كانت شائعة من الشائعات ، أو بضعة ألفاظ تتبادلها الألسنة والآذان، مما أذاب عزم آخرين ، فوهنت قواهم وسكنوا الى الهزيمة . وليس عبثا ما ينادى به فلاسفة وقادة فكر حين يلحون على ضرورة الاتزان والحذر عند استخدام اللغة . ولم يكن النداء الذى ألقاه الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر دون مبررات ، لقد ألح الرجل على تجريد « الثقافة من السلاح » ، انه أحد الذين عانوا من أثار « الدعاية » — اللفظية — التى بذلها نظام الحكم النازى فى ألمانيا قبيل الحرب العالمية الثانية ، تلك الدعاية التى خيلت للألمان فضلا على شعوب الأرض ، وسيادة على كل الأجناس . ولقد روع سارتر مما يتعرض له الانسان من تضليل وبلبلة تزحفان بالبشرية نحو حرب تهددها بدمار جديد ان نجح العابثون فى السيطرة على أفكار الجماهير وقلوبها . ان تجريد الثقافة من السلاح معناه أن توجه الثقافة — وعربتها

إسمها اللغة — الى تقريب ما بين المختلفين من بنى الانسان، والى الفرار من المخادعة والتضليل(١) .

ان ذلك الخوف اللامع فى الأفق كان مع الاختراعات الحديثة ولقد كان مثل هذا جاثما على صدر الانسان فى تاريخه القديم ، وان يكن مصدر اللونين متباينا . كان الاجداد يخافون للتداعى المقدس بين اللفظ والمعنى ، ذلك التداعى الذى جعل العقول تؤمن بقدرة ألفاظ معينة على اثارة قوى معينة، فمن ينطق — بعد أن يتهيأ بوضع خاص — باسم أحد الجنة ، أو يكتبه ، يستطيع أن يستدعى ذلك الجن ، ويسخره فيما يشاء . ولقد يحاول الناطق احاطة عمله بشىء من الغموض والتصعيب ، فيتلو الاسم ، بأداء معين ، وفى أجواء خاصة مصطنعة . ولقد يضيف بعض المقاطع الصوتية ، كالهمهمة أو الزمزمة لتكمل له عمليات التعمية . ولا شك فى أننا نقع مع السحرة والمشعوذين على مجال واسع لاستغلال طاقات اللغة استغلالا معينا ، يتظاهر بدلالات تبدو طبيعية الارتباط مع ألفاظها . وما زالت بعض فئات من مجتمعنا تتحاشى نطق كلمات مثل « الثعبان » أو « الشيطان » فى الليل ، لأن ذكر الاسم يستحضر صاحبه ، بل وكثيرا ما يعبرون عن سخطهم على فرد بنعته بـ « مخفى الاسم » ، وكأن اختفاء اسمه كفيل باخفاء الشخص ذاته . ويعبر فندريس عن هذه العادة النفسية بقوله : « اننا عندما نقيم ائتلافا بين الاسم والشىء ، نسير على عادة نفسية قديمة قدم العالم نفسه فقد ظل الاسم زمنا يعتبر جزءا من الشىء وليس مجرد علامة قد توضع عليه : كان يشترك فى خصائصه فلم تكن العلامة تميز عن الشىء »(٢) .

وليس من العسير أن نقع فى كل الديانات السماوية والبدائية على مفاتيح قوتها ، اذ نلتقى بألفاظها العقائدية . ثم ان خطونا زمانا حتى بدء الشعر رأيناه مرتبطا بقدرة الشاعر على تملك الحظ فى اثارة النفس أو

---

(١) اللغة ص ٢٣٧

(٢) ترجم الدكتور محمد مندور نداء سارتر لضرورة نزع سلاح الثقافة . ونشره فى عدد سبتمبر عام ١٩٦٢ من مجلة « المجلة » المصرية .

الروح بألفاظ وتعابير ذات دلالات خارقة بالنسبة للغة الحديث . ان الكلمة المنظومة كانت كفيلة باحداث آثار جسام ولا سيما اذا كانت مسلوكة فى بيت من الشعر ، حيث تثبت الكلمات بوساطة الوزن ، أليس فرجيل هو القائل : « انه يمكن انزال القمر من السماء بجملة منظومة »(١) .

يروى الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : « كانت الشعراء عند العرب فى الجاهلية بمنزلة الأنبياء فى الامم ، حتى خالطهم أهل الحضر ، فاكتسبوا بالشعر ، فنزلوا عن رتبتهم »(٢) . أو ليس من هذا القبيل أن نرى كفار الجاهلية يتهمون محمدا – عليه الصلاة والسلام – بالسحر تارة وبالشاعرية تارة أخرى ! هل كان ذلك الاتهام الا لخوفهم من دلالات الألفاظ القرآنية ! أليست قدرة ألفاظ القرآن الكريم على هز كيان معتقداتهم وخلخلة مواقفهم راجعة الى امتداد طاقة الألفاظ لتحرك ما اعتقدوا فى قدسيته وثباته! وحين اتهموه بالشعر وهجوه بأقوالهم كان لابد أن يصفعهم ، فنزلت « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » ونزلت أيضا « والشعراء يتبعهم الغاوون » ولكن ، مع ذلك ، فقد اصطنع الرسول نفرا من الشعراء الذين آمنوا بالرسالة لينتصروا له . ويقول الرازى : « ولولا ما فى الشعر من النفع والنصرة لما استثنى الله عز وجل المؤمنين من الشعراء ، ولا جعلهم ممن انتصروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ممن ظلمه بشعره وآذاه بهجائه ، ولما سماهم منتصرين بالشعر ، فقال « وانتصروا من بعد ما ظلموا » فهجن ما تخرصوه من الكذب وما لفظوا به من الكفر بهجائهم النبى ، ولم يهجن غيره من الشعر ولا أسقط ما فيه من النفع ولا أبطل ما فيه من الحكم . فقد أنشده بعض بعض الشعراء(٣) قوله :

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٣٨

(٢) كتاب الزينة : ص ٩٥

(٣) هو كما يقول المرحوم حسين الهمدانى ناشر « الزينة » العلاء بن الحضرمى اليمنى مات سنه أربع عشرة .

فحي ذوى الأضغان تسب قلوبهم … تحيتك الأدنى فقد يرقع النغل

وان دحسوا بالود فادحس بمثله … وان خنسوا عنك الحديث فلا تسل

فان الذى يؤذيك منه سماعه … وان الذى قالوا وراءك لم يقل

النغل : الفساد والافساد ·

دحسوا بالود : ستروه واخفوه

فقال صلى الله عليه وسلم : « ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا »(١) ·

سقت النص لنقف أمام نمط من اصطناع الرسول لشعراء منتصرين له ، ولنقف أمام الحاح الشاعر على دور الكلمة : انها تحية الرسول الى ذوى الأضغان ، وهى الطريق الى استلال حقدهم ، ثم هى توكيد لتسامى الرسول عن كل ما قيل وراء ظهره ، وهنالك ذلك القول عن حكمة الشعر وسحر البيان · انه تخفيف عن كاظم الغيظ وترويح عن النفس المهمومة · وبقى الشعر يقوم بدوره · [illegible] به الكرام الطرق الى المكارم ·

ولولا خلال سنها الشعر ما درى … بغاة الندى من أين تؤتى المكارم(٢)

هى اذن الكلمات التى سجلها الشعراء لتنير أمام طلاب العلى الطريق نحو المكارم ·

ان نحن تأنينا أمام الفكرة ، أفلا تسمنا الى تصور نوع من المناسبة

---

(١) [illegible] ص ١٢١

(٢) البيت لأبي تمام ديوانه ص ٢٥٥

الطبيعية بين الألفاظ ودلالاتها . فكلمات من التوحيد والثواب والعقاب والجنة والنار ، لها مناسباتها المرتبطة بصياغاتها عند الدين ستنفر العبارات مع وجداناتهم . ولننقل نكتة طريفة يرويها ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء » ، لما أتى النابغة الجعدى الرسول انشده قصيدته الى ان قال .

بلغنـــا السماء مجـــدا وجدودنا وانـــا لنرجو فـــوق ذلك مظهرا

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم . الى أين ! أبا ليـــلى . فقال الى الجنة . فقال الرسول ان شاء الله . ودعا له ان « لا يفضض الله فاه » . فعمر (مائتين وعشرين سنة) لم تنقض له سن »(١) . وبصرف النظر عـــن مبالغة السن فان نسبة عدم انقضاض اسنان الشاعر الى كلمات الرســـول تحمل أصداء العادة اللغوية التى كثيرا ما يربط بها الناس .

* * *

أقوال عن الارتباط :

وإذ نحاول نتبع بحوث الفلاسفة والمفكرين القدماء فى عـــلاقة اللفظ بدلالته . نرى الاتجاهات تتشعب الى شعبتين اساسيتين : فبينما قال فريق ان الارتباط طبيعى ، أى ان لفظا معينا يثير معنى معينا ، أو ان المسمى يوحى بسر اختيار الاسم له . قال فريق آخر ان تلك الصلة مصطنعة . يفرضهـــا الانسان بإرادته ، وبحكم طول ملابسة اللفظ لدلالة ينمو ما يشبه التلازم . ولكن فى قدرة الانسان أن يمزق تلك الصلة ليفرض رموزا لغوية جديدة للدلالة نفسها . ولقد ظهرت القضايا اللغوية فى التراث الفلسفى عنـــد اليونان . وكانت فكرتهم الدينية عن وجود عالم المثل يقـــابل هذا العالم المحسوس مما طبع دراساتهم اللغوية بمثل تلك الروح التى تفرق ما هو كائن عما هو متصور . واذا كانت آراء فيثـــاغورس الفلسفـــة . ونظريته الرياضية مما مكن لفكرة الرموز فان جهد هراقليطس كان واضحا فى المجال اللغوى . لقد آمن ذاك الفيلسوف بأن كل شىء فى العالم لا يكف عن التغير .

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢٤٧ - ٢٤٨

أما اللغة ، فانها عنده الثابت الدائم ، لأنها تعبر عن الحكمة العامة التي يمتلكها كل البشر . ومن ثمة فهي تماثل تركيب ذلك العالم ، أو تتضمن ترتيبه ٠ واشتغل بارمنيدس بفكرة وظيفة الرموز السلبية ٠ وحين كتب أفلاطون عام ٣٦٦ ق٠ م محاورته التي اسماها Le Cratyle (قراطيلوس) صارت بمثابة تلخيص لاهم الآراء الفلسفية الباحثة عن علاقة اللفظ بالمعنى ٠ ولقد اختار الفيلسوف التسمية نسبة لأحد تلاميذ هيراقليطس وهو « كراتيل » الذي يرى أن لا وجود لقانون طبيعي دائم ، فكل شيء متغير ٠ وفي المحاورة يزعم « كراتيل » ان الأسماء تستمد من طبيعة الأشياء ٠ فهناك ، في الطبيعة اسم صحيح لكل كائن في الحياة ، واللفظ الذي يطلق للدلالة على الماهية اذا كان لا يصدر الا بعد اتفاق ففي الطبيعة ثمة طريق صواب للتدليل على المسميات ٠ وذلك هو الطريق الصحيح لكل الناس ٠ وأما محاوره هرموجين Hermogéne — أحد تلاميذ سقراط — فانه يرى أن الأسماء علامات تنشأ عن المواضعة des signes de convention (١) ، وينفي أن في طبائع الأشياء ما يحتم اختيار اسم دون غيره ٠ ويضرب المثل بقدرة السيد على تغيير اسم عبده الى اسم جديد ، ومع ذلك لا تفقد الدلالات التي في ذهن السيد شيئا من وضوحها ٠ ويتدخل سقراط ليوفق بين المتحاورين مقررا أن مجموعة من الأسماء كانت مواضعة عامة ، أو حدثت بمحض الصدفة ٠ كما أن التكرار وطول الممارسة هما محدثا الألفة بين ذهن الانسان واللفظ حتى لتختلط الأسماء أحيانا بالأشياء الخالدة(٢) ٠

لقد أثار أفلاطون هذه القضية عند بحثه عن الحقائق التي تحملها اللغة٠ « لن يوجد الانسان ، مهما كانت جسارته ، الذي يستطيع أن يعبر باللغة عن الأشياء التي يتأملها عقله ، ولو صنع ذلك فلن تكون الآلهة هي التي دفعته لذلك انما هو مدفوع بعواطفه البشرية »(٣) ٠ ولكم أثارته اللغة الهروب وما كف عن تمحيصها ، ولكنه لم يخرج بفلسفة حاسمة أو واضحة بعد تردده

(١) أنظر Nouveau Larousse Illustré; Cratyle Vol. III

(٢) يعقد أوجدن وريتشاردز في كتابهما فصلا ممتعا للمدارس اليونانية وخاصة محاورة أفلاطون The meaning of meaning Chap. II. p. 32.

(٣) S. Ullmann; The principles of Semantics. p. 66

بين قطبى القضية « ان أفلاطون كان يصارع قضية اللغه . ومن الواضح انه بالرغم من مصارعاته قد فشل فى حنها »(١) • ولقد حاول أستاذه سقراط أن يضع الحقيقة رائدة . حين أفتى بأن اللغة نشاط اجتماعى ، وانها أداة للتفاهم بين أفراد المجتمع ، وليس فى استطاعة فرد أن يخالف ما تواضع عليه أفراد البيئة والا فقدت تلك الأداة وظيفتها • ولكن مثل هذا التقرير لا يحلل السر الذى يسعى الفكر الفلسفى لكشف شىء من أسراره •

ومن بعد أفلاطون حمل أرسطو نفس الرغبة فى الكشف ، ومال الى تحطيم فكرة الارتباط الطبيعى بين الاسم والمسمى • وظل الفلاسفة وعلماء اللغة والمفكرون يتقاذفون القضية بغية تفكيكها ، حتى يومنا هذا • ولم تشفع مقولة سقراط التى ذهب فيها الى أنه « لابد أن نسلم بأن كلا من المواضعه والاستعمال يسهم بقدر فى اظهار ما فى العقل حين نتكلم »(٢) • ويركز العالم اللغوى استيفان اولمان فى كتابه « أسس علم الدلالة » تمرد هذه القضية بقوله « منذ بداية الفلسفة الغربية ، وربما قبل ذلك بكثير . والعلاقات بين اللغة والحقيقة هى المشكلة الأولى فى فلسفة علم الدلاله . وقد أثارت سلسلة من التفسيرات المتناقضة »(٣) •

الخلاف [illegible] حيطه يمتد منذ فلاسفة ما قبل الميلاد حتى زماننا هذا . كان [illegible] مما أثار مفكرى العرب منذ القرون الأولى للثقافة الاسلاميه • وقضية « [illegible] » تمتزج عندهم مزجا واضحا بقضية أصل اللغة • والخلط بين الأمرين [illegible] عن عوامل عدة . ومن الممكن أن نلمح بوضوح من بينها محورين رئيسيين تدور حولهما الجدل اللغوى عامة : أما الأول فهو وليد الاعجاز الأدبى للقرآن الكريم • ومنذ كان التحدى للكفار والفكر المعانى يعمل مفتشا عن تفسير للاعجاز • ومن ثمة أصبحت اللغة أداة تستحق النظر فى ذاتها • و[illegible] عن ذلك تفسيرات شتى للسان القرآنى • ثم كانت

---

(١) Urban : Language and reality. p. 52, London. 1939.

(٢) P:neen. An Introduction to General Linguistics p 76 [illegible]

(٣) S Ullmann The principles of Semantics p 66 Oxford [illegible]

تفاسير الذين يأخذون بظاهر الالفاظ ، حتى وان نسبوا آراءهم للسلف ، وقالوا انهم يتمسكون بالمأثور ، وكانت كذلك تفاسير الآخذين بباطن الالفاظ ، حتى وان نسبوا آراءهم لنفر من السلف كذلك ، وقالوا انهم يتمسكون بالمعقول ٠ فالموقفان هما وجها عملة للنظر اللغوى ٠ واذا كان من الدقة بمكان أن نتصور هذين الاتجاهين معتمدين فقط على الصياغة اللغوية مستغلة العبارات ما كانت لتسمح به ، لولا طبيعة اللغة ومرونتها ٠ واصطرع المعتزلة والأشاعرة وأهل النظر والأصوليون حول قواعد الأصول والفروع والعلل ٠ وكانت النصوص اللغوية عند أنامل كل فريق(١) ٠

وأما المحور الثانى فنلتقاه مع قدرة العربية على تمثل القضايا والأفكار التى احتكت بها بعد أن تمت الفتوحات الاسلامية ٠ ولقد كان الاحتكاك مع تيارات متباينة ، بل ومنها ما كان بطبعه معارضا لأصحاب الفكر العربى عن الموقف الفلسفى والعقدى ، نقول اذا كان ذلك شبه مستحيل ، فان الأصيل ٠ ولكن أصحاب اللغة العربية استطاعوا — بمهارة رائعة — تمثل الكثير من ذلك الفكر وأضافوا اليه الجديد من ابداعاتهم ٠ وما كان يمكن أن تتم هذه المزاوجة المدهشة الا بفضل الدقة التى عليها العبارات والألفاظ ٠

هذا التراث العظيم هو الذى ولد فى نفوس اللغويين مزجا بين نشأة اللغة وعلاقة اللفظ بالدلالة ٠ فلقد بدت الأمور ، من فرط الالف والملابسة ، وكأنها قضية واحدة ٠ أو لنقل ان فرط حساسيتهم للألفاظ ودلالاتها جعلهم يميلون فى أغلب مراحلهم ، الى أنها توقيفية ٠

وحين نبحث عن مواقفهم من صلة الألفاظ بمعانيها نرى فخر الدين الرازى يجمع أربعة آراء فى كتابه « المحصول » كما يقرر السيوطى :

« أ — الألفاظ اما أن تدل على المعانى بذواتها ٠

---

(١) رغم ثراء المكتبة الأصولية الفقهية ، فيمكن الاحالة الى « مناهج البحث عند مفكرى الاسلام » للدكتور على سامى النشار ٠ وخاصة الباب الثانى من ص ٦٤ الى ١٨٢ ٠ ط ١٩٦٠

ب - أو بوضع الله اياها .

جـ - أو بوضع الناس .

د - أو يكون البعض بوضع الله ، والباقى بوضع الناس »(١) .

والرأى الاول منسوب الى عباد بن سليمان . وهو يحتج لمذهبه بقوله . « لولا الدلالة الذاتية لكان وضع لفظ من بين الألفاظ بازاء معنى من بين المعانى ترجيحا بلا مرجح . وهو محال » . وكأن (عباد) هنا يوشك على القول بان وضع الألفاظ ازاء المعانى يتم بمرجحات تعقد الصلة بين الاسم والمسمى . كأن يوحى المسمى بالاسم الذى يريده ' او يوحى الاسم بالمسمى الذى أطلق عنيه . وأغلب الظن أن (عباد) يريد أن يلقى الضوء على قضيه الاصطلاح أكثر من القائه حول ايحاء اللفظ بالدلالة . ومع ذلك فان مذهبه لم يقبل عند جمهور التقليديين . بل ان السيوطى يقول عنه « ودليل فساده أن اللفظ لو دل بالذات لفهم كل واحد منهم كل اللغات ، لعدم اختلاف الدلالات الذاتية . واللازم باطل والملزوم كذلك » .

والرأى الثانى هو رأى الأشعرية ويمثلهم أبو الحسن الاشعرى ومحمد ابن الحسن بن فورك . وهم يأخذون بوضع الله للصلة بين الالفاظ والمعانى ، وبذلك يتبنون فكرة توقيفية اللغة ، وأحسب أن رأيهم ذاك يساير نظرتهم عن « العادة وجريانها » أو « العنية بمعناها العام المطلق » ، فعندهم أن القدرة الالهية هى علة وجود العالم . ولن تخرج اللغة عن طاقة العنة ودورها .

وكان المعتزلة هم الذين رأوا أن دلالات الألفاظ حادثة من وضع الناس . وأحسب أيضا أن موقفهم ذاك حادث أو مشارك فى رسم عقيدتهم التى كانت تنكر العلة الأرسطية ، فقد أخذ أهل الاعتزال بفكرة أن الانسان هو الفاعل على الحقيقة ، ومن ثمة ظهر رأيهم المشهور عن حرية الارادة

---

(١) المزهر جـ ١ ص ٦٠

الانسانية . واللغة لن تفلت من موجتهم الفلسفية العامة وفيها يرون أن اللغات « لا تدل على مدلولاتها كالدلالة العقلية » . أى أن ألفاظها ليست لازمة الدلالة بذواتها ، وذلك عمدتهم فى تفسير اختلاف اللغات . وجدلهم عند نفى توقيفية الدلالات ينهض على « دور » من أدوار المنطق : « لو ثبتت توقيفيا من جهة الله تعالى لكان ينبغى أن يخلق الله العلم بالصيغة ، ثم يخلق العلم بالمدلول ثم يخلق لنا العلم بجعل الصيغة دليلا على ذلك المدلول ، ولو خلق لنا العلم بصفاته لجاز أن يخلق لنا العلم بذاته .. ولو خلق لنا العلم بذاته بطل التكليف ، وبطلت المحنة »(١) . وكان من الطبيعى أن لا يقبل أهل السنة فرض المعتزلة من أن خلق العلم بذات الله يبطل التكليف فعندهم أن هذا أصل فاسد . وما علينا من جدلهم الفلسفى . ولكن علينا أن نسألهم عن « حد الوضع » الذى افترضوه : يحده التاج السبكى فى كتابه « شرح منهاج البيضاوى » بقوله : « الوضع عبارة عن تخصيص الشىء بالشىء بحيث اذا أطلق الأول فهم منه الثانى »(٢) . والمثال الذى يناقش الحد هو قولهم ان « قام زيد » يفهم صدور القيام منه . والشرط الثانى يضعه التاج السبكى فى حده حين يقول ... اذا أطلق ... يقصد به استبعاد الكلام الذى قد يخرج عن كونه كلاما ، واستبعاد الكلام الذى يتغير معناه بالتقييد . فحين نقول : « ان قام الناس » فان الوضع هنا يخرج عن كونه كلاما . وحين نقول: « قام الناس الا زيدا » لم يخرج عن كونه كلاما ولكن خرج عن اقتضاء قيام جميعهم الى قيام ما عدا زيدا . وبذلك يمكن استخلاص ثلاثة شروط لصحة الوضع : ألا نبتدىء الخبر بما يخالف خاتمته ، والثانى ألا نختتمه بما يخالفه، والثالث أن يكون صادرا عن قصد . وهذه الشروط هى التى تجعل اللفظ فى حيز : « أن وضع الواضع له معناه أنه جعله مهيأ لأن يفيد ذلك المعنى عند استعمال المتكلم على الوجه المخصوص »(٢) . ان مثل هذا التحديد لا شك أن يحول الألفاظ الى أداة ميكانيكية تفقد حيويتها . ان فكرة «الوضع» هى فرض منطقى وصل اليه العقل الذى يبحث دائما عن بدايات كأنما فيها

---

(١) المزهر جـ ١ ص ٢٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٨ — ٣٩

النجاة . ولذلك يرتد الباحثون عن « حد الوضع » الى القول « المفيد فى الحقيقة انما هو المتكلم ، واللفظ كالآلة الموضوعة لذلك »(١) . وتلك نظـرة فيها الكثير من الحس اللغوى السليم . ان الصنيع هو فعل المتحدث ثم أوثر أن يكون اللفظ أكثر التصاقا بوجدانه .

ذلك جدل أصولى حول صلة اللفظ بالـــدلالة . ولست أظن أن تراثا لغويا كان له تلك الوقفات مع القضية . وأيا ما كان من حوارهم فان منهجا فريدا امتازوا به ، ذلك هو منهج التحليل اللغوى الذى نراه مشرقا فى القرن الرابع للهجرة ، وربما سبق غيره بمئات السنين . ومن الخير أن نقف مع ذلك المنهج وقفة مستأنية فلقد أثرى علم اللغة بأبحاث ناصعة .

* * *

---

(١) المصدر السابق

عن عبقرية العربية

لابن جنى فى خصائصه باب يقول فيه : « اختـــلاف اللغــات وكنها حجة » وهو يقرر ما كان فى عصره - الرابع للهجرة - : « اعلم أن سعـــة القياس تبيح لهم ذلك ، ولا تحظره عليهم. الا ترى أن لغة التميميين فى ترك اعمال (ما) يقبلها القياس ، ولغة الحجازيين فى اعمالها كذلك ، لأن لكـــل واحد من القومين ضربا من القياس يؤخذ به ، ويخلد الى مثله . وليس لك أن ترد احدى اللغتين بصاحبتها ، لانها ليست أحق بذلك من رسيلتها ، ولكن غاية ما لك فى ذلك أن تتخير احداهما ، فتقويها على أختها ، وتعتقد أن أقوى القياسين أقبل لها ، وأشد أنسابها . فأما رد احداها بالأخرى فلا »(١) .

والمبدأ الذى يقرره ابن جنى يمثل نظرا لغويا أصيلا بعد أن صارت العربيـة لغة الثقافة المتمثلة للكثير من التراث الانســـانى الذى احتكت به . والذى خرجت منه بحصيلة هائلة من الفكر ومن القـــدرة على استيعـــاب عشرات القضايا التى ربما يتردد العقل العربى المعاصر - رغم مرور ما يزيد على الألف عام - من طرحها للمناقشة والجدل الفكرى ، فمن قضايا الألوهيـــة وخلق القرآن وصفات الله وذاته الى قضايا النبوة والأحاديث والصحة والضـــعف الذى تعرضت له ، ومع ذلك لم تهن عزائم أهل الثقة فى رجحان كفة العلم مهما حامت السحب ، بل ان سحب الخصومة الفكرية كانت هى التى تبلل الحق دائما فيشتد نبته . وكما أثير الجـــدل حول القضايا الفقهية والعقدية كذلك تحرك حول اللغة وماهيتها وألفاظها . ولم يستطع العقل التقليدى أن يحدد عصر الاحتجاج تحديدا مانعا جامعا . ولهذا يعبر ابن جنى كما رأينـا فى نصه السابق عن مدى سعة اللغة ، فكلها حجة . وهو مستند الى حديث القراءات : « أولا ترى الى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن بسبع لغات كلها كاف شاف » . وهذا الحديث هو نفســـه الذى لعب دوره العظيم فى تجويز الكثير من القراءات القرآنية ، والتى لولاها لغاب من تاريخ اللغة شيء كثير من سماتها وخلافاتها ، ومن ثمة لبدت متحوصلة فى قالب اختاره نفر من رجالها لا عاصم لهم من الخطأ أو الاسراف .

---

(١) الخصائص جـ ٢ ص ١٠

ومع ذلك فلم يكن القياس وحده هو الشفيع ، ولكن الى جواره تاتى الإستعمال • فاذا كانت النغتان متدانيتن استعمالا ويسرا فى القياس فهما على قدم واحدة • وأما أن تقل احداهما جدا وتكثر الأخرى فانك تأخذ بأوسعهما رواية • الاستعمال اذن هو ديدن هذا الرجل اللغوى فى الحكم عند ترجيح كل ما يجيزه القياس • واذا كان ابن جنى ينفرد بمنزلته بين مفسرى اللغة ، فلا بد أن نفهم صنيعه وسط التيار الحضارى العام الذى شاع فى عصره • لقد كانت أبحاث المعانى والألفاظ واحدا من أهم الروافد التى أذكت الدراسات اللغوية عامة ، والنقدية والبلاغية خاصة • ثم قصة الصراع بين ما أسموه لغة « البادية » ولغة « الحاضرة » ، وهو صنو لصراع بين عرق يود أن يحتفظ بكل ما تصوره روحا عربيا خالصا ، وعرق يود أن يفلت بالحياة من قبضة تلك الروح الآسرة • قصة صراع بين مناهج اثبات الاعجاز القرآنى ، وخاصة بعد أن تخطى الأمر الوقوف مع نماذج من آى القرآن لنبحث عن مجازاتها واستعاراتها وتشبيهاتها ، وأصبح فى الميدان آراء لأهل الكلام ولأهل النظر ولأهل الأصول ولأهل كثر ••• وتنتهى القصص لمحاولات لغوية تستهدف فهما جديدا واستخلاصا لجديد • ومع كل ذلك لابد من أن ندرك شيئا خطيرا كان يمس الناس : لغويين ونحاة ومفسرين وفقهاء ••• أعنى به موقف القراءات القرآنية • ومن فرط الجدل وخطره يتدخل السلطان ويأمر شيخ قراء بغداد « أبا بكر بن مجاهد » باختيار القراء السبعة • وذلك غير بعيد عن الربع الأول من القرن الرابع للهجرة • لقد حدث الأمر عام ٣٢٢ هـ • ومع تحديد القراء لابد أن ترتسم علامة لغوية واضحة فى تاريخ الدرس •

ومع كراهيتى لكل تعميم فى أحكامنا على المواقف الفكرية للانسان ، بحكم تطورنا الدائم ، والذى لابد أن يصل بنا الى تنصل من قديم أو نبذ لجديد أو على الأقل تطويع لمكاننا بالنسبة لزماننا الحادث ، الجديد . أقول على الرغم من كراهيتى للقطع فى الأحكام ، فان صاحبنا ابن جنى كان يؤثر أن ينقاد لحسه اللغوى الخاص ، واذا كانت تصانيفه التى جاءتنا يبدو فيها بعض التردد والعض على آراء السلف بناجذ ، ان لم نقل بنواجذ . فذلك أن

الجدل حول الأخذ عن أهل المدر . كما أخذ عن أهل الوبر ، قد بلغ حده بعد أن دالت دولة أصحاب لغة البادية ·

لقد كان قد « اتفق الرأى على أن الكلام الذى يحتج به فى الشئون اللغوية، ويؤخذ به فى الاستشهاد — هو الكلام العربى الاصيل ، الذى لا محال لاتهامه أو تجريحه ، وهم يريدون بالعربى الأصيل : من نشأ بالبادية ، وأقام فيها حياته ، فلم يفسد لسانه بلغة الحضر المختلطة ، ومعاشرة الأعاجم ··· »(١)· ولكن لا شك فى أن مثل هذا الافتراض المثالى ما كان يمكن أن يستمر بعد أن انزاحت أمواج العرب فيما يقترب من نصف العالم آنذاك وبعد أن تمثلت لغتهم بحرص وبعبقرية نادرة الكثير من تراث الشعوب · ان القدرة التى شق بها الفكر الاسلامى مناهجه وسط أمواج المعرفة ، القديمة والمعاصرة لفترة ازدهاره ، أعنى فى القرنين الثالث والرابع ، تبدو فريدة فى مسافات التراوج الحضارى البليغ · وأحسب أنه ما كان يمكن أن يتم ذلك لولا التطور الكبير الذى التزمته اللغة ، تراكيبها أولا ثم مفرداتها من بعد · ويصبح من الجمود أن نتشبث بنمط لغوى كان فى البادية أو فى الأمصار المعزولة ! وبحكم ذلك الاهتزاز الذى تعرضت له الصورة التقليدية ، صورة طلبها أبو عمرو ابن العلاء أو طلبها الأصمعى أو طلبها ابن الاعرابى حين رفضوا أشعار جرير والفرزدق واسحق الموصلى والكميت والطرماح وغيرهم(٢) ، نقول بحكم ذلك الاهتزاز — لمفارقة التطور الطبيعى — يقول ابن جنى فى خصائصه : « علة امتناع ذلك (الأخذ عن أهل المدر) ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل ، ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شئ من الفساد للغتهم لوجب الأخذ منهم أيضا كما يؤخذ عن أهل الوبر · وكذلك أيضا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاص عادة الفصاحة

---

(١) عباس حسن اللغة والنحو ص ١١٧

(٢) انظر طبقات فحول الشعراء
وانظر الشعر والشعراء
وانظر المزهر حـ ١ ص ٢١٢

وانتشارها لوجب رفض لغتها ، وترك تلقى ما يرد عنها »(٣) . ذلك تقرير للوضع فى القرن الرابع من وجهة نظر واحد من كبار علمائه . وحجته فى ذلك « أنا لا نكاد نرى بدويا فصيحا ، وان نحن آنسنا منه فصاحة فى كلامه ،لم نكن نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه ، وينال ويغض منه »(٢) ما أشق الدرب الذى يود التفكير المنطقى الخالص أن يقود المنطق اللغوى اليه!! انه جفاف قاعدة القياس التى التزم بها الناس !! أليس للعقل أن يشق حدود السابقين !! فلم الحجر وقد وهب الله — سبحانه — كل عصر قادريه ؟ وبحكم ذلك الروح المنتمى فى أعماقه الى الماضى اصطنع أهل البادية حرفة « التفاصح » . ويروى ابن جنى نادرته : « كان قد طرأ علينا من يدعى الفصاحة البدوية ، ويتباعد عن الضعفة الحضرية ، فتلقينا أكثر كلامه بالقبول له ، وميزناه تمييزا حسن فى النفس موقعه ، الى أن أنشدنى يوما شعرا لنفسه يقول فى بعض قوافيه : أشيؤها وأداؤها بوزن أشععها وأدععها، فجمع بين الهمزتين كما ترى ، واستأنف من ذلك ما لا أصل له ولا قياس يسوغه »(٢) . ذلك حال رجل كان ابن جنى يراه من أمثل الرجال الذين قدموا المدينة من البادية ، فما بال مرذول أقوال تلك الطوائف . وصريح أقوال ابن جنى تقرير لحالة عصره ، عصر جدل مستمر بين القديم والحديث من كافة فروع المعرفة ، وعصر اضافة هائلة لتراثنا المشرق . ولست أرى اعتراضا يدفع به بعض العلماء المعاصرين : « لقد عاش ابن جنى خلال القرن الرابع ومات آخره ، فهل يرتضى تضبيق حكمه على أهل الجاهلية والاسلام معا الى عصره ، فى الحضر والوبر ؟ ان ساغ تطبيقه فى العصر الاسلامى فكيف يسوغ تطبيقه فى الجاهلية ووبرها ؟ أليس معناه أن عرب الجاهلية يخطئون ويعجمون ؟ فمن لهم حق الحكم عليهم بهذا ؟ وعلى أى أساس يستندوهم أهل اللغة وأربابها ؟ وهم المرجع الوحيد فى أصولها ، الصواب ما كان منهم ، وما وافقهم . والخطأ ما خالفهم ؟ وكيف يعجب ابن جنى بعربى ويصفه بفصاحة اللسان ثم يرتد متهما اياه جارحا له ؟

(١) الخصائص ، جـ ٢ ، ص ٥
(٢) الخصائص ، جـ ٢ ، ص ١٠٥

ومن أجل ذلك أخطأ ابن جنى فى كل الذى ذهب اليه من قصة ذلـك الاعرابى ... »[1] .

مثل هذا الاتهام الذي يوجه الي عالم لغوى له اصالته وورعه كان له صنوه فيما مضى[2] .

لم يستقر أهل اللغة على منهج « للتوثيق » ، ومـن ثمة اشتق بعضهم منـاهج أخرى يخضعون المـادة لهـا . ولعل التحليل الصـوتى المرتبط بالدلالة كان من المباحث التى امتاز بهـا ذلك العصر . لقـد كان خلط غريب ، شعر به أصحاب الحس اللغوى فحاولوا التفتيش عن طريق لا ينبهم وسط ركام تجميع « اللغات » أو جهود استخلاص لغة « مثلى » يقاس عليها كما يقولون !

منهج التحليل الذى شغلهم هو جهد يطبق على جزئيات من اللغة ،ولكن طموح أصحابه لا يخفى .

* * *

اتجاه للتدوير :

لقد بدأ تحليل الصلة بين اللفظ ودلالته من نبع صغير كشفته ملاحظة الخليل بن أحمد فى القرن الثانى للهجرة ، ثم صار ذلك النبع معينا ضخما

---

(١) عباس حسن : اللغة والنحو ، ص ١٢٤ : ١٢٥ . وتبرير الأستاذ عبـاس حسن لاتهام ابن جنى بالخطأ يتلخص فى سببين : الأول اما أن يكون ذلك الاعرابى له ما لنظائره العرب من الفصاحة فيصبح حجة لا عيب فيه . وهو الأمر الذى قرره ابن جنى فى صـدر كلامه . والثانى اما أن يكون الاعرابى متهما فى فصاحته . ولابد من أصول للاتهام . والأمر غيـر قائم فى حالتنا هذه .
[illegible] الأمر مع ابن جنى أمس [illegible] من موقف معين يحدث فيه الرجل رأيه .

(٢) انظر قصة أخرى مع اعرابى . الخصائص ج ١ . ص ٢٣٩

استمد منه المتأخرون طاقة هائلة من التحليل التفصيلي العميـــق . وأول من جذب انتباه الخليل بن أحمد الى دربه كانت الالفـــاظ المعبرة عن اصـوات « مسموعات » . ورأى فيها أصواتا محاكية للطبيعـــة . والأقوال في ذلك الاتجاه تستهدف اثبـــات نوع من الصـــلة الطبيعية بين أجراس الحروف ودلالاتها من جهة ثم بين أنغام الألفاظ ومعانيها الكنيه من جهة اخرى . وفي ذلك النظر تبدو الحروف والصيغ مترابطة مع الدلالة . وكان هنالك نتيجة ضرورية للايحاء من تتابع الحروف أو بناء الكلمات . ولـــكي نصور الموقف اللغوى نأخذ مما قال به علماء الصرف من « ان الاصول ثلاثة ثلاثي ورباعي وخماسي . فاكثرها استـــعمالا وأعدلها تركيبا الثلاثي . وذلك لانه حـــرف يبتدأ به . وحرف يحشى به . وحرف يوقف عليه »(١) . النظر هنـــا نظر عقلي صرف . لا يستند الى مجرد الوصف . هـــو نظـــر المناطقـــه الذين يفسرون الظواهر وفق مقولات منطقية تحاول ان تطبـــق المقولات « ليس اعتدال الثلاثي لقلة حروفه فحسب . لو كان كذلك لكان الثنائي أكثر منه لأنه أقل حروفا ، وليس الأمر كذلك »(١) . نظر عقلي يستند الى تبرير وضع قائم . وليس الى استقراء . ومن ثمة يصـــبح الرباعي والخمـــاسي في رأى ابن جنى أثقل من الثلاثي الذى هو خفيف وأمكن من الثنـــائي والرباعي وغيره(٢) .

ولكن ! من أين كل ذلك . وما فلسفته الصوتية التي يرتد اليها ؟

لم يكن اكتشاف ذلك الاتجاه الا نتيجـــة للبحث عن أصـــل اللغـه ومنشئها . نسبوه الى التوقيف أو الى الاصطلاح أو الى محاكاة المسموعات . ومن النسبة الأخيرة لاحت صلات بين الألفاظ والمعاني . او تلاقات روابط بين التسميات ومسمياتها . ومن هنا بدأ العقل في الفعل . بدأ فيما يشـــبه المخادعة حين تصور العاقلون تلك الصلة . قال الخليل : « كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا صر . وتوهموا في صوت البازى تقطعا

(١) الخصائص ج ١ ص ٥٥
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٦٢

فعانوا صرصر .. »(١) . واذا كان الخليل قد نبه على مثل ذلك التساوق ، فان سيبويه يدفع الامر خطوة اخرى حين يقرر . ومن المصادر التى جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعانى قولك : النزوان والنقزان والقفزان . وانما هذه الاشياء فى زعزعة البدن واهتزازه فى ارتفاع . ومثله العسلان والرتكان ومثل هذا الغنيان لانه زعزعة وتحرك ، ومثله الغثيان لانه تجيش نفسه وتثور . ومثله الخطران واللمعان لأن هذا اضطراب وتحرك ، ومثل ذلك اللهبان والوهجان لانه تحرك الحز وتثوره . فانما هو بمنزلة الغليان »(٢) . هذا منهج يأخذ بالوصف اللغوى فى محاولة لكشف أوليات اللغة ، انه يتخطى الجدل الذهنى المفرط الذى يتساءلون فيه عن بداياتها . ولقد قام على تجميع ملاحظات عن الجزئيات ثم استخلاص قاعدة كلية ما وسعهم السبيل .

واذا كانت عنايتهم بالدراسة الصوتية هى قرينة بقضايا الاعجاز القرآنى . حين ذهب فريق الى أن القرآن معجز بالمعانى ، وذهب فريق آخر الى أنه معجز بالألفاظ ، ومن ثمة شرعوا فى التنقيب عن أسباب الجودة والتلاؤم أو التأخر والتنافر ، أقول اذا كانت تلك هى البدايات فسرعان ما امتد البحث الى عالم الشعر والى عالم اللغة عامة ، وصار الوعاء اللغوى هو الميدان . لقد استشفوا أهمية العلاقة التى تربط اللفظ بدلالته ، وما زال البحث عن ذات العلاقة هو حجر الزاوية فى كل دراسات الدلالة حتى يومنا هذا . وأحسب أنها باقية أبدا مهما اختلفت المناهج . ويعبر « استيفان أولمان » عن القضية كاتبا : « ان نواة دراسة علم الدلالة هى العلاقة ذات القطبين بين وجهيها المتداخلين : العلامة Sign (٣) (وهذا يقابل اللفظ عند علماء العربية) والشيء المدلول عليه : أى بين ما يدل على معنى والشيء المعنى »(٤) .

---

(١) ابن جنى : الخصائص ، جـ ٢ ، ص ١٥٢

(٢) سيبويه : الكتاب جـ ٢ ص ٢١٨

(٣) [illegible] Sign [illegible] الى [illegible] عربى . وفى بعض الأحيان تبدو [illegible] العلامة ، وفى أحيان أخرى تجمل [illegible] « الدالة » .

(٤) Ullmann. The principles of Semantics. p 66 - 67.

وما يقوله أولمان هو الذى يفتتح به أوجدن وريتشاردز كتابهما الموسوم بـ « معنى المعنى » ، والذى لعب دورا كبيرا فى توجيه الدراسات اللغوية منذ صدر عام ١٩٢٣ . « وفى الأعوام الأخيرة اكتسبت قضية المعنى Meaning أهمية أكيدة ، ولكن من سوء الحظ أن الذين حاولوا حلها كثيرا ما تنازلوا عن طموحهم ، سواء فى الماضى كما حدث مع ليبنتز Leibnits ، أو ما حدث مع Pierce فالمناهج التى عالجوا بها البحث عن الدلالة ظلت متأرجحة فى شك . ولقد دفع كل فرع من فروع المعرفة هذه القضية الشائكة الى الفرع الآخر . ويستوى فى ذلك الميتافيزيقيون أو الفيلولوجيون ، فكل يتحمل نصيبه من الخطأ ... »(١) .

ان القضية ، وعلاقاتها ، كانت تحت مجهر قدمائنا منذ أكثر من عشرة قرون ، وقالوا فيها الكلام الطيب . فنضج اللغة العربية مكنهم من الكثير ، والارتباط الوثيق الذى ربط أنماط حياتهم بالنص الدينى الكريم فرض عليهم رعاية خاصة لها ، وثبات الحضارة وتفوقها مكن عقولهم من علاج الكثير دون خوف ولا وجل . هى عندهم الطريق الى فهم الشرع وتحديد الموقف بين جدل أهل الكلام والفرق الدينية . لم يكن القائلون بالتشبيه لله الا ضحايا فهمهم لظاهر الألفاظ ، ولم يستند المنزهون لله الا على فهمهم لأصول معانى الألفاظ : « ذلك أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى اليها ، فانما استهواه واستخف حلمه ضعفه فى هذه اللغة الكريمة الشريفة ، التى خوطب الكافة بها ... وأصل اعتقاد التشبيه لله تعالى بخلقه ، منها ، وجاز عليهم بها وعنها . وذلك أنهم لما سمعوا قول الله ـ سبحانه ، وعلا عما يقول الجاهلون علوا كبيرا ـ (يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله) (سورة الزمر آية ٣٩) ، وقوله : (فأينما تولوا فثم وجه الله) (سورة البقرة آية ١١٥) وقوله : (لما خلقت بيدى) (سورة ص آية ٧٥) وقوله : (مما عملت أيدينا) (يس آية ٧١) ، وقوله : (ويبقى وجه ربك) (الرحمن آية ٢٧) ، وقوله : (ولتصنع على عينى) (طه آية ٣٩) ، وقوله :

---

(١) The Meaning of Meaning p. 1-2.

(والسماوات مطويات بيمينه) (الزمر آية ٦٧) ، ونحو ذلك من الآيات الجارية هذا المجرى ، وقوله فى الحديث : خلق الله آدم على صورته ، حتى ذهب بعض هؤلاء الجهال فى قوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق) (القلم آية ٤٢) أنها ساق ربهم — ونعوذ بالله من ضعفة النظر وفساد المعتبر ، ولم يشكوا أن هذه أعضاء له ، واذا كانت أعضاء ، كان هو لا محالة معضى على ما يشاهدون من خلقه ، عز وجهه ، وعلا قدره »(١) ٠

المشبهة ، والمجسمة اذن ينحدرون فى تفاسيرهم — كما يقرر النص — بحكم عدم الادراك لعلاقة الألفاظ بمعانيها وعلاقة العبارات بمجازاتها ٠ و « لو كان لهم أنس بهذه اللغة الشريفة أو تصرف فيها أو مزاولة لها ، لحمتهم السعادة بها ، ما أصارتهم الشقوة إليه بالبعد عنها »(١) ٠ الأنس الذى يومىء اليه صاحبنا هو الاستخدام المجازى للغة ، لقد عاش الشعر به ، وقام كل بديع عليه ٠ ولم يكن الذين رفضوه فى العبارات القرآنية بغافلين عنه أو بمنحطة أفكارهم دونه ، ولكن احساسهم الدينى كان يربأ بهم أن يتحولوا بالألفاظ القرآنية عن مجالاتها الظاهرة وكأنهم ينشدون نمطا لغويا خاصا مع أنه بلسان عربى مبين ٠ الخطأ كان مع نظرهم العقلى المجرد للنظم القرآنى عن مثيله من النظم المجازى ٠ ولذلك يقرر اللغوى ابن جنى : « ان هذه اللغة أكثرها جار على المجاز ، وقلما يخرج الشىء منه على الحقيقة ، فلما كانت كذلك وكان القوم الذين خوطبوا بها أعرف الناس بسعة مذاهبها ، وانتشار أنحائها ، جرى خطابهم بها مجرى ما يألفونه ويعتادونه منها ، وفهموا أغراض المخاطب لهم بها على حسب عرفهم ، وعاداتهم فى استعمالها ... فكذلك قوله (يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله) أى فيما بينى وبين الله اذا أضفت تفريطى الى أمره لى ونهيه اياى ٠ واذا كان أصله اتساعا، جرى بعضه مجرى بعض ... وكذلك قوله « فأينما تولوا فثم وجه الله » ألا ترى الى بيت الكتاب :

أستغفر الله ذنبا لست محصيه   رب العباد اليه الوجه والعمل

---

(١) الخصائص : ج ٣ ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦

أى الاتجاه ...»(١) .

تلك وقفة مع بعض الألفاظ القرآنية باستخداماتها فى المجالات ،ويمكن أن نرد آراء اللغويين الى الاحساس العقدى الذى هو بلا شك عند أقدام كثير من الخشوع ومن المسلمات . ومع ذلك فان مجال الشعر ، وكان مما أثير حوله جدال ازاء تبريره أو منعه بين علماء الفقه وأهل السنة ، أقول ان مجال الشعر خاضع لنفس الروح التى نطاردها أو تطاردنا ، روح الانتماء للألفاظ وأفلاكها ، وروح تأثيراتها الحسية والغيبية . ونستعير من كتاب « عيار الشعر » نصا فيه وضوح وتفرد : « قال بعض الفلاسفة ان للنفس كلمات روحانية من جنس ذاتها . وجعل ذلك برهانا على نفع الرقى ونجعها فيما تستعمل له . »(٢) .

تطابق كامل اذن بين روحانية النفس وروحانية الألفاظ ولن تسلك الألفاظ طريقها الى النفس الا ان تحلت بنفس الشفافية التى تستمتع بها قرينتها . فما كان يمكن أن تنفع الرقى الا بفضل التزاوج الكامل بين روحانية النفس وروحانية الكلمات . وتلك محاولة لتفسير التأثير السحرى الذى تمتاز به كل صيغ التعاويذ والأحجبة وما اليها . وحين يمس الكلام الشعر وعياره يقول ابن طباطبا : « فاذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى ، الحلو اللفظ ، التام البيان ، المعتدل الوزن ، مازج الروح ولاءم الفهم . وكان أنفذ من نفث السحر ، وأخفى دبيبا من الرقى ، وأشد اطرابا من الغناء ، فسل السخائم ، وحلل العقد ، وسخى الشحيح ، وشجع الجبان . وكان كالخمر فى لطيف دبيبه والهائه وهزه واثارته . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان من البيان لسحرا . »(٣)

هذا المزاج الدقيق بين أثر الشعر فى النفس وأثر الخمر فى دبيبه ، ثم الحديث عن الكلام الذى يستل السخائم ويحلل العقد ، ألا يذكرنا بشىء مما

---

(١) الخصائص . جـ ٣ . ص ٢٤٧
وبيت سيبويه فى الكتاب . جـ ١ . ص ١٧
(٢) عيار الشعر ص ١٦
(٣) المرجع السابق .

يقدم المعاصرون فى مجال التحليل النفسى ؟ ثم ألا يذكرنا بما قاله أرسطو عندما تحدث عن نظرية التطهير : catharsis ، التى هى فى أصلها ـ فيما نرى ـ أثر من آثار التصور السحرى ، لارتباط الألفاظ بدلالاتها ، ومن ثمة تنتقل العبارات المسرحية الى تجسيم للفكرة ، حتى تستحيل الى ما يشبه الواقع ·

« كانت تنسب الى الشعراء الأقدمين قوة مخوفة تتلخص فى الاسم satire ـ الهجاء ـ هذه الكلمة لا تثير فى أذهاننا نحن المتحضرين ، غير فكرة تمرين أدبى ، عدا عليه الزمن بعض الشىء ، ولكنه على كل حال لا يملك خيرا لانسان · غير أن الهجاء فى وقت ما كان يتقمصه ساحر · وكان الهجاء لعنة فادحة تصيب من يوجه اليهم ··· ان الشاعر الهجاء لم ينفصل عن الساحر الآثم الا فى العصور المتأخرة بفضل تقدم المدنية · »(١)

وقع الألفاظ مع الحياة وقع مستمر ، والعكس أيضا صحيح · ومن هنالك كان البحث عن صلة الألفاظ بالدلالات هو بحث عن آثار الوحدات البيانية مع أصحابها ·

وفى مجرى الالهام ذاته كانت جهود القدماء ، كانت ملاحظات الخليل وسيبويه حين أشارا الى امتزاج صيغ معينة بدلالات معينة · ومن بعدهما يتسلم اللغويون القضية ليدلى فيها كل بدلوه · ويجىء ابن جنى ويقرر أن منهج الرجلين قد تلقته الجماعة بالقبول له ، والاعتراف بصحته · أما هو فقد وجد الكثير على سمت ما حداه ومنهاج ما مثلاه ·

دراسة فى مناهج التحليل :

السمت والنهج اللذان وجدهما ابن جنى متأسيا فيهما بما صنعه العالم الجليل الخليل بن أحمد ثم تابعه فيه تلميذه العبقرى سيبويه ، كان صلة بين الوزن الصرفى للكلمة والمعنى الذى يحركه ذلك الوزن فى الذهن ، واذا صح القول بأن الوزن صيغة مجردة ، أو صورة غيبية للفظ موزون ، فانه يصح كذلك القول بأن الدلالة صورة مجردة ، تختلف بدورها عن الدالة ،

---

(١) اللغة ص ٢٣٨

وتختلف أيضا عن الشيء الذى تدل عليه . ولصاحب الخصائص فى المساق عدة محاولات ، لعلها تحدث ، فى النهاية كلا متكاملا .

١ — دلالة الجرس

وجد ابن جنى(١) أن المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير ، نحو : الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة والجرجرة والقرقرة . ووجد أن الفعلى فى المصادر والصفات انما تأتى للسرعة ، نحو : البشكى ، والجمزى ، والولقى . وحين يرى ابن جنى ذلك يضع مقولته الكلية : انهم جعلوا « المثال المكرر (الفعللة) للمعنى المكرر ، والمثال الذى توالت حركاته (الفعلى) للافعال التى توالت الحركات فيها » .

وكما استقرأ ابن جنى هذين المصدرين فانه يستقرىء مبانى الأفعال ، فللعربية خصائصها فى ربط الصيغة بالمعنى . ولذلك يقول : ان الذى هو أصنع أنهم جعلوا « استفعل » فى أكثر الأمر للطلب ، نحو : استسقى ، استطعم ، استوهب ، استصرخ ... وهو يحاول أن يفسر الظاهرة تفسيرا فيه جهد عقلى مضن ، وأبيح لنفسى محاولة عرضه دون الفاظه ففيها مشقة : انه يرى أن أصول تلك الأمثلة السابقة وهى : سقى — طعم — وهب — صرخ ... لم يكن معها دلالة تدل على طلب لها ولا اعمال فيها . ثم دخلت حروف الزيادة فى مقدمتها لتكون كالمؤدية اليها . وهو يرى أن طلب الفعل والتماسه والسعى فيه يسبق الفعل المجرد . أو كأنه يقول : ان أصول الأفعال أو مجرداتها تلحق بمبانيها ، صيغة الطلب . وبحكم السبق الحدثى ، تقدمت زيادات الطلب أو الأمر على « الأصل » ، الذى يجىء متأخرها ، وكان ارتباطه بالتقرير العقلى هو سر ذلك .

الزيادة + المجرد = المدخل + الأصل = الطلب المتوقع للاجابة المقررة .

ان الجهد الذى يبذله ابن جنى مضن للعقل كما قلت . ولكنه منطق عالم يفسر ما يراه ، أو هو واقع فى منطق البحث عن العلل . « ان هذا على سمت الصنعة التى تقدمت فى رأى الخليل وسيبويه . الا أن هذا أغمض من

---

(١) الصفحات التالية مادتها مأخوذة من الخصائص ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ — ١٦٨

تلك · غير أنها وان كانت كذلك فانها منقولة عنها ، ومعقودة عليها · ومن وجد مقالا قال به وان لم يسبق اليه غيره ، فكيف به اذا تبع العلماء فيه ؛ وتلاهم على تمثيل معانيه »(١) ·

وصيغة ثانية يخضعها ابن جنى لمنهجه وهى صيغة الفعل المكرر العين نحو : نشر ، وقطع ، فتح ، وغلق (مشددة العين) · ولتفسير علاقة المبنى بالمعنى يرى أنه لما كانت الألفاظ دليلة المعانى فقد جعلوا أقوى أجزاء اللفظ مقابلا لتقوية المعنى · ومن ثمة خصوا عين الفعل بالتقوية عن طريق التكرار لأنها « واسطة لهما ، ومكنونة بهما ، فصارا كأنهما سياج لها ، ومبذولان للعوارض دونها »(١) ·

تلك هى نظرة ابن جنى حاول فيها استخلاص نوع من الصلة بين « المثل » وصنعتهم عند ارادة معان على غير أصولها · ولقد أغراه الباب ليدخل منه الى رأى يقول فيه : « ذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها ، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها »(٢) · والعمل الذى يقوم به هو وليد جهده العقلى الذى يربط بين المبانى والدلالات· وبوحى هذا الاحساس اللغوى يسوق حشدا من أمثلته المؤكدة :

« خضم وقضم »

فالخضم لأكل الرطب (كالبطيخ والقثاء) ، والقضم للصلب اليابس · ولكى لا تضل الفروق يقيد الرجل نموذجه بشواهده : ان العرب يقولون : « قضمت الدابة شعيرها » وجاء فى الخبر « قد يدرك الخضم بالقضم »(٣) · والتعليل الذى هو رابط ما بين اللفظ والدلالة أن العرب اختاروا الخاء

---

(١) الخصائص : جـ ٢ ، ص ١٥٥

(٢) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١٥٧

(٣) معنى الحديث : قد يدرك الرخاء بالشدة ، واللين بالشظف · ذلك أن القضم الشديد يسبق الخضم الذى هو أكثر لينا وراحة ·

لرخاوتها للرطب ، والقاف لصلابتها لليابس ، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الاحداث(١) ٠

وعلى نفس المنوال نسجوا :

نضح ونضخ ٠

فالنضح للماء ونحوه ، والنضخ لما هو أغلظ وأثقل ، لأنهم جعلوا الحاء لرقتها ، للماء الضعيف ، والخاء لغلظها ، لما هو أقوى منه ٠

ومنه : القد للقطع بالطول ، والقط للقطع بالعرض ، وعلـــة ذلك أن الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعا له من الدال ٠ فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض ، لقربه وسرعته ، والدال المماطلة لما طال من الأثر ، وهو قطعه طولا٠

ومنه : الوسيلة والوصيلة

واذا كان معنى اللفظتين يقترب أحدهما من الآخر ، الا أن ابن جنى يرى أن صاد الوصيلة أقوى صوتا من سين الوسيلة ، ومن ثمة صار معنى الأولى أقوى من معنى الثانية لأنها – (الوصيلة) – تفيد اتصـــال الشىء بالشىء وامساسه له ، وكونه فى أغلب الأحوال بعضا له ، كاتصال أعضاء الجسم ، فهى أبعاضه ٠ أما الوسيلة فانها من التوسل الذى ليست له عصمة الوصل والصلة ، واستحالة كون المتوسل جزءا من المتوسل اليه ٠ ومن هنا كان التعليل « جعلوا الصاد لقوتها ، للمعنى الآقوى ، والسين لضعفها للمعنى الأضعف » ٠

وبنفس التعليل يقول انهم جعلوا « صعد » لما يشاهد من الأفعـــال المعالجة المتجشمة ، بينما جعلوا « ســـعد » فيما تعرفه النفس وان لم تره العين ، فقالوا : الصعود فى الجبل ، وقالوا هو سعيد الجد ٠

---

(١) الخصائص : جـ ٢ . ص ١٥٨ ٠ ولابد من الاشارة أن فريقا من اللغويين قد ذهبوا الى غير ذلك التفسير ٠ فالكسائى يقـــول : ان القضم للفرس والخضم للانســـان . وبذلك يخصص الأفعال ، وان لم يغلق الباب تماما أمام محاولة ابن جنى ٠

انظر : المزهر ، للسيوطى . جـ ١ . ص ٥١

ومن ذلك أيضا : سد وصد .

فالسد دون الصد . لأن السد للباب يسد . والصد لجانب الجبل والوادي والشعب . وهذا أقوى من السد الذى يكون لثقب الكوز ورأس القارورة . « فجعلوا الصاد لقوتها ، للأقوى ، والسين لضعفها للأضعف »(١) .

ذلك نحو ذهب اليه ابن جنى ، وديدنه نظرة فيلولوجية ترى « أن الدلالة اللفظية أقوى من الدلالة المعنوية » . والذى يعنيه بالدلالة اللفظية هو الدلالة التى يرتبط فيها اللفظ بمعنى محسوس وليس بمعنى مجرد . وما أقرب هذا مما يشيع عند نفر من اللغويين يرون أن أصل المعانى محسوسات، ثم منها توالدت المعانى المجردة أو المعنوية ، بل وربما تكون كيفية الاستعمال هى التى نفثت الروح بين المجردات وأصولها من المحسوسات . وما زلنا نذكر مثل أبى عمرو بن العلاء حين قال ان أصل الخيلاء من الخيل . والصلة بين الخيلاء ومشية الخيل دافعة لذاك الاعتقاد(٢) .

واذ قدم صاحب الخصائص طائفة من أمثلته الواضحة الباهرة ، يعود ليقول : « فهذا ونحوه أمر اذا أنت أتيته من بابه ، وأصلحت فكرك لتناوله وتأمله ، أعطاك مقادته ، وأركبك ذروته ، وجلا عليك بهجاته ومحاسنه . وان أنت تناكرته وقلت : هذا أمر منتشر ومذهب صعب موعر ، حرمت نفسك لذته ، وسددت عليها باب الحظوة به »(٣) . هو منهج وعر اذن كما يقرر صاحبه ، ولكنه بحث عن أصل من أصول الفكر اللغوى . بحث عن علاقة صيغ الكلمات ومعانيها ، كيف يوحى جرس الكلمة بالمعنى الذى يتسق معه . أو كيف يوقف المعنى الحاصل الجهاز الصوتى للانسان على الصيغة التى تلائمه .

---

(١) الخصائص : جـ ٢ . ص ١٦١ . وفى السياق نفسه يجعل القصم أقوى من القسم ، لأن القصم يكون معه الدق . فلذلك خصت الصاد للأقوى والسين للأضعف .

(٢) المزهر : جـ ١ . ص ٣٥٣

(٣) الخصائص : جـ ٢ . ص ١٦٢

ومن الغريب أن ابن جنى يبدو كأنه استمد قوة حين أسلمت له تلك النماذج قاعدته ، فيدفع نظريته الى مجال جديد ، وكأنه يريد توكيد الجانب السحرى فى اللغة ، يقول : « انهم قد يضيفون الى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها ، وتقديم ما يضاهى أول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسيط ما يضاهى أوسطه سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب »(١) .

والفكرة التى يقدمها الرجل هنا فيها جسارة عقلية تتخطى كل المحاولات . فلو أخذنا ما قاله عن الفعل (بحث) لرأيناه يبرز تكوين أصوله وفق حركة عقلية يعملها فى الفعل . فعنده أن الباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض ، وأن الحاء لصحلها (لبحتها) تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوها اذا غارت فى الأرض . وان الثاء فللنفث والبث للتراب . وتلك محاولته لربط أجراس الحروف بالمعنى ، وكأن حدث (البحث) يرتبط بوحى تركيب الكلمة . ونفس التحليل يصنعه مع الفعل (شد) فالشين بما فيها من التفشى تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ، ثم يليه احكام الشد والجذب فيعبر عنه بالدال التى هى أقوى من الشين . والادغام فيها أقوى لصنعتها وأدل على المعنى الذى أريد بها .

وهذا مثال آخر : جر الشىء يجره . فقد قدموا الجيم لأنها حرف شديد ، وهو يناسب أول الجر لمشقته ، ثم عقبوا الجيم بالراء المكررة ، لأن الشىء اذا جر على الأرض تكرر اهتزازه صاعدا ونازلا اليها .

واذا كان ابن جنى قد تفوق بمنهجه المقارن الذى طبقه حين عرض للمصادر أو لصيغ الأفعال المتقاربة ، فان الامر يبدو عملا ذهنيا أكثر منه جهدا وصفيا حين يعالج الأفعال المستقلة . والا فما مصير فلسفته هذه لو أننا قلبنا كلا من الفعلين : شد وجر ، وصارا دش ورج ، فتصبح الدال التى تمثل القوة فى شد أسبق من الشين ذات التفشى . وكأن الادغام هنا يزيدها قوة !! والأمر نفسه مع الفعل رج . فهل تتناسب الراء التى كانت لشدة التأريب مع حركة الرجرجة التى لابد أن تبدأ متواضعة لتشتد كلما استمرت الحركة ! وليس من العسير رؤية دلالة الفعل (رج) أشد عنفا من الفعل (جر) . ولم يستوعب الحرفان كل ما شاء ابن جنى أن يحملهما كعنصرين

(١) المرجع السابق

أساسيين فى الكلمة حتى وان اتحدت دلالتاهما ، واجتمعتا حول افادة الحركة »(١) ٠

حد الحرف :

انها صنعة التصريف التى جودها صاحبنا هى التى مكنته من نظره الصوتى ، ومن الوقوف على أهمية الحروف ثم ينتقل الى جرس الحروف وعلاقته بالمعنى ٠ ومن الطريف أنه يخضع بعض الحروف المستقلة لنظريته ٠ « ان ازدحام الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون اذا مازجتهن الفاء — مع التقديم والتأخير — فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوهما »(٢) ٠ انه يرى أن حرف الفاء أينما وقع فى البناء ، يوحى بالضعف والوهن ٠ ولنأخذ بعض نماذجه التى تقع الفاء فيها فى آخر الكلمة ٠

الدالف : للشيخ الضعيف ٠

التالف : للشيء التالف ٠

الطنيف : | هو الشيء المجان ، وليست له عصمة الثمين ٠
الظليف :

الطنف : وهو لما أشرف خارجا عن البناء ، ولهذا فهو أميل للضعف ٠

الدنف : المريض ٠

النطف : الضعيف ٠

الترفة : وهى التنعيم ولعين العيش ، فهى الى اللين والضعف ٠

الطرف : طرف كل شيء أضعف من قلبه ووسطه ٠

ويأخذ نماذج أخرى تقع فيها الفاء فى بداية الصياغة :

الفرد : وكل فرد منفرد فهو ضعيف ومعرض للهلاك ٠

الفارط : وهو المتقدم ٠ وكل متقدم منفرد معرض للهلاك ٠

الفرات : وهو الماء العذب ٠ واذا عذب الشيء ميل عليه ونيل منه ٠

---

(١) عبد الله أمين : الاشتقاق ، ص ٣٧٥

(٢) الخصائص : جـ ٢ ، ص ١٦٦

الفتور : للضعف ·

الفلتة : لضعفة الرأى ·

الفطر : الشق ، وهو الى الوهن ·

ونختار من نماذجه للوضع الذى فيه تتوسط الفاء الحرفين الآخرين :

الطفل : تقال للصبى لضعفه ·

الطفل : تقال للرخص وهو ضد الشثن ·

التفل : تقال للريح المكروهة المنبوذة ·

الدفر : تقال للنتن · ومنه قولهم « أم دفر » للدنيا ، سب لها وتوضيع منها ·

هذه هى أهم نماذج الباب الذى كتبه ابن جنى فى « امساس الألفاظ أشباه المعانى »(١) · والباب وان يكن صاحبنا مسبوقا فيه الا أن له فضل بعجه وتوسعته · ولقد أثار صنيعه ذهن كثير من العلماء · فالسيوطى بعد أن ذكر الكثير من الأمثلة التى يأخذها عن صاحبنا أو عن الكسائى وأبى عمرو ابن العلاء والأصمعى وابن دريد وابن السكيت يقول : « فأنظر الى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها ، وكيف فاوتت العرب فى هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة فى المعانى ، فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملا أو صوتا وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملا وأعظم حسا ··· ومن ذلك المد والمط فان فعل المط أقوى لأنه مد وزيادة جذب تناسب الطاء التى هى أعلى من الدال ··· »(٢) · وفى هذا النص تأييد للرأى فى مضارعة صوت الحرف للحدث ، وبعد مئات الأعوام يقول أحد العلماء المحدثين : « كل الموسيقيين يعرفون أن النغمات المختلفة تناسب التعبير عن الأحاسيس المختلفة ان قليلا

---

(١) انظر ، ص ١٥٢ وما بعدها من الجزء الثانى فى الخصائص ·

(٢) السيوطى : المزهر ، جـ ١ ، ص ٤٨ وما بعدها · والنص المنقول فى ص ٥٣

وإن كثيرا ، فهذا السلم أليق من غيره ببساطة الحقول ، وذلك بالعذوبة الرقراقة اللذيذة ، وذاك بجهد الرجولة الصارم ، وفطرة المؤلف تجعله يختار في كل حالة النغمة اللائقة »(١) . وهذه الحقيقة التى تحاول ربط فطرة الانسان بالنغم الذى يؤثره ، تثير شرعية اعمال الذهن على مثل ما أعمله ابن جنى . والقضية التى تتحرك هى العلاقة بين اللفظ وعالم الواقع . فان التسليم بمنحى الجرس الصوتى هو توكيد للتلاحق بين القطبين ، بل انه يوشك أن يعرض فلسفة الاستعارة كلها للرفض . ومنذ بدأ الانسان يستخدم الألفاظ فيما نسميه بالاستخدام الاستعارى وهو شاق مجالات وآفاقا جديدة يقترب بعضها من بعض فيما يسميه البلاغيون المعانى الحسية ، ويميل بعضها الى المجرد وان تكن هناك حقيقة تلف الجميع ، تلك أنه ليس فى قدرة الانسان ادراك مجرد ما لم يستخلصه أولا من أحداث أو تجارب حسية . « الحق أن الصور الحسية تغزو العقل الانسانى ، فالعقل قد يؤدى التفكير مستعينا بالصور الذهنية ، وربما يستقل - تماما - عن صور تصاحبه : هناك بعض المدارس الفلسفية التى تسوى بين الصورة والفكرة ذاتها ، ولكننا دون أن نسلم بهذا الرأى ، نستطيع أن ندعى ، فى أمن ، أن العقل لا يستغنى عن الصور تماما ، وأنه حين يحلق فى اللامادى انما يعلو على أجنحة من الصور . بيان ذلك أن كل معرفة تبدأ من التجربة وأن كل أفكارنا تحاك من الادراكات الحسية . ولا يمكن أن تحاك من أية مادة أخرى . تلك طبيعة العقل التى لا فكاك منها ، وينجم عنها ، بعد قليل من التأمل أخطر المشاكل المتعلقة بالهموم الانسانية الكبرى .

« لا شىء فى العقل لم يدخل بادىء الأمر من سبيل الحواس بوجه ما ، وليست حالاتنا الروحية فى متناول التفكير ، بمعزل عن ذاك الحسى الآسر ، لذلك نعبر عن المجرد فى حدود المجسم ، ونصور غير المألوف بوساطة المألوف ، ونعبر عن غير الحسى بحدود حسية . ولكن اللغة تعاقبت الأطوار على كلماتها ، حتى عاد من العسير ، أحيانا ، أن يلتقط الوجه الحسى منها ، وأصبح هذا رهينا بالخبرة بل بالاحساس الشاعرى الدفين »(٢) .

---

(١) فندريس : اللغة ، ص ٢٣٦

(٢) دكتور مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ص ١٢٩

وفى مقابل هذا الرأى المستند الى الاستعمال الحقيقى ، والمنتقل به الى الاستعمال الاستعارى ، يرى نفر آخر من العلماء أن كل اللغة كانت استعمالا مجازيا . قاله أبو اسحاق الاسفراينى — أحد رجال الأصول — « لا مجاز فى لغة العرب »(١) وعمدته فى نفى المجاز أن افتراض وجوده يعنى أن الحقيقة سبقت ، وعنده أن العرب وضعت الحقيقة والمجاز وضعا واحدا ، وهو فى ذلك مستند الى رأيه الذى رأى فيه أن الناس هم الذين وضعوا اللغة بالاصطلاح والمواضعة . ومن ثمة تكون مواضعاتهم قد جعلتهم ينطقون بالحقيقة والمجاز على وجه واحد . « فجعل هذا حقيقة وهذا مجاز ضرب من التحكم » . وما يقوله الاسفراينى يقوله أيضا محدثون : « من الباحثين من يقول : ان كل تعبير ، فيما عدا شيئا قليلا ممعنا فى البدائية ، يعتبر استعارة . وفى هذا ما يؤكد التداخل الوثيق بين المجالين الذى ينتهى الى مشكلة تركيب الذهن الانسانى وطبيعة المعرفة وحدودها ، وليس من الممكن التسليم بأن ما تعيش عليه الانسانية من أفكار واعتقادات انما هو وليد عمليات استعارية لا غير ، اذ لو صح ذلك لكان ما فيه ما يكفى لابطالها ، ولكن يرى كثيرون من الباحثين أن أفكارنا واعتقاداتنا لا تنفصل تماما عن العمليات الاستعارية التى تبدو صنيعة العقل الغرزى فى ارتياد الواقع وتنظيم التجربة وتمثل المجهود ، وما كان علمنا والفنا له ضئيلا »(٢) .

وسواء أدرك الانسان الدلالة عن طريق الحس أو عن طريق استخلاصها من عصارة تجاربه ، فستبقى فكرة قيادة الجرس للدلالة ، حتى تغزو العقل والقلب ، مما يؤرجح الادراك ، الواعى أو المبهم ، ليعلق بها .

---

(١) سجله عنه ابن برهان فى كتابه فى الأصول .
انظر المزهر ، جـ ١ ، ص ٣٦٤ . وفيه نقض لهذا الرأى ، ولكنه مع ذلك يحمل فلسفة لغوية أصيلة .

(٢) د. مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ، ص ١٢٩

٢ ـ تداخل الحروف لتداخل المعانى

وبفعل النظرة التى أخذ بها المتوسطون فى عصور الدراسات اللغوية، والتى كانت تحاول دائما عقد أواصر صلة بين الألفاظ متقاربة المعانى من خلال النظر الى المبانى ، يحاول ابن جنى فى باب من أبواب خصائصه يسميه « تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى » أن يتحدث عن التقارب الذى يربط بين الألفاظ حين تتقارب دلالات معانيها • ومن الطريف أن صاحبنا يبدو متحمسا دائما لكل منهج يشقه • فالرجل يملك طاقة عقلية تتفوق على جهود السابقين ، ويحاول بذكائه أن ينفذ الى مناطق لم ينفذوا اليها •

الرجل فى عصر ترف لغوى : انتهى عهد الجمع والتصنيف ، ووثقت اللغة واطمأن رجالها لأصالة مادتهم ثم آن لهم أن يتفلسفوا ويكدوا الذهن وراء الجديد • وابن جنى واحد من أبدعهم • وحين يتحدث عن التصاقب بين الألفاظ بفعل تصاقب المعانى يقول : « هذا غور من العربية لا ينتصف منه ، ولا يكاد يحاط به »(١) • الغور بعيد لم تصل جهود السابقين الى أن تستوفى حاجتها منه ، وبعده لا ينتمى لشذوذه أو لغرابته ، وانما هو لوعورة الطريق اليه رغم « أن أكثر كلام العرب عليه - وان كان غفلا مسهوا عنه »(١) • ويسوق لنا « المفتش » عن « الخصائص » كثيرا من الأمثلة لتوكيد نظريته تلك :

١ ـ ففيما بين الفعل « هز » والفعل « أز » يتقارب اللفظان لتقارب المعنيين ، وتقارب البنيتين ينشأ عن أن الهاء أخت الهمزة • ولكن لما كانت الهمزة أبعد مخرجا من الهاء فان العرب ـ على رأيه ـ خصوا المعنى القوى باللفظ القوى ، ولذلك يقول تعالى: « ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين

(١) الخصائص ، جـ ٢ ، ص ١٤٥

تؤزرهم أزا » ٠ وتفسيرها أن الشياطين تزعجهم وتقلقهم ٠ وهذا المعنى أقوى في النفوس من الهز(١) ٠

٢ — العسف — والأسف : ولما كان المعنيان يتصاقبان — فان اللفظين تصاقبا ٠ وكأنه يريد بالعسف السير على غير طريق وهدى ، أما الاسف فانه أغلظ من ذلك لارتباطه بالنفس ، وهو أشق من الارتباط الحسى ٠ ومن ثمة خصوه بالهمزة ، فهى أقوى من العين ٠

واذا كانت النماذج السابقة تكشف عن جهد لتفسير سبب تخصيص حرف دون حرف ، لمعنى دون معنى ، وفقا للقوة أو للين ، فان نماذج أخرى لا تقدم سوى تقارب المعنيين الذى أثمر تقارب اللفظين ٠ وفى هذه النماذج تقر عين ابن جنى حين يكتفى بأن الحرف أخ للحرف ٠ هو المعنى المتقارب اذن الذى يتحكم فى الألفاظ ، وليس من العسير فهم النظرية فى نطاق الفكر السائد آنذاك من أن المعانى أشرف من الألفاظ ٠ أو أن الألفاظ خدم للمعانى ٠ وبذلك يوشك التفكير اللغوى أن يجعل منها أصولا ويحمل الألفاظ عليها فروعا ٠ ولننظر الى نماذج للضرب :

١ — ح م س ، ح ب س

العرب يقولون : حمس الشر اذا اشتد ٠

ويقولون : حبست الشىء : اذا منعته ٠

والتقاء المعنيين ينشأ من توجيه ابن جنى : « ان الشيئين اذا حبس أحدهما صاحبه » تمانعا وتعازا(٢) ، فكان ذلك كالشر يقع بينهما ٠

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٦

والفعل (أز) لم يتكرر فى القرآن ، بينما هز : يأتى فى قوله : « وهزى اليك بجذع النخلة » (مريم آية ٢٥) وفى قوله : « فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » (الحج آية ٥ ، وفصلت آية ٣٩) . وقوله : « وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا » (النمل آية ١٠) ٠ ومن سياق الآيات لا يصعب قبول رأى ابن جنى من أن الهز يكون لما لا بال له ، كالجذع وساق الشجرة ٠

(٢) أى صار كل واحد منهما ذا منعة وعزة أى قوة ٠

٢ – ع ل ب ، ع ل م

ومنه قالوا : العلب : الأثر الذى يرى

والعـــلم : الشق فى الشفة العليا

وكأن المعنيين هما مجمعا اللفظين !

والباء أخت الميم .

٣ – ع ل ز ، ع ل ص

ومنه قالوا : العلز : خفة وطيش وقلق يعرض للانسان

العـــلوص : وجع فى الجوف يلتوى له الانسان ويقلق منه

• والزاى أخت الصاد .

المضارعة : فى الأمثال السابقة تقع بين حرفين فى كل مثالين . وقد يمكن تفسير تغير المعنى ، كما أحدث صاحبنا فى النماذج الأولى. أو لا يمكن التفسير الا من خلال « أخوة » الحروف ، كما فى النماذج الثانية ، ولكن النظر لايقف عند مقارنة أصلين اثنين ، بل هو يعرض لأصول ثلاثة :

١ – جبل – جبن – جبر

٢ – ج ر ف – ج ل ف – ج ن ف

ففى المجموعة الأولى يقولون :

الجبل : لشدته وقوته .

الجبن : الاستمساك والتوقف والتجمع . (فالجبن هو اللبن اليابس).

الجبر : ومنه جبرت العظم ونحوه أى قويته .

وواضح أن المعنى الذى يتصاقب هنا هو : « الالتئام والتماسك » ، وذلك مما يجعل اللام والنون والراء متصاقبة .

وفى المجموعة الثانية يقولون :

جرفت الشىء : أملته عما كان عليه ·

جلفت القلم : اذا أخذت جلفته أى جرفته عما كان عليه ·

وأما الجنف : فهو الميل ·

والمعنى الذى هو سبب فى مضارعة الحروف هو : « ميل الشىء عما كان عليه » ·

نوع ثان من المضارعة ينشأ عند صاحبنا بين الكلمتين رغم عدم اتحادهما الا فى أصل واحد ، وكأن المباينة بينهما تكون فى حرفين · ومع ذلك فهو يرى أن المعنى الذى يحاول استخلاصه من مسافات الاستعمال يحدد وجها للمضارعة بين اللفظين ·

ج ل ف — ج ر م

فالجلف هو القشر(١) ·

وأما الجرم فهو القطع(٢) ·

• والمعنيان متقاربان ·

ومثال آخر فى : « صهل » و « سحل » والمعنيان يدلان على التصويت ·

• وهما متقاربان ·

ولذلك تضارعت الصاد مع السين ، والهاء مع الحاء ·

---

(١) لا يقدم ابن جنى أكثر من ذلك · ولكن لسان العرب فى ج ١١ . ص ٣٧٤ يحدد الجلف لقشر الجلد مع شىء من اللحم · ولعل ذلك المعنى هو الذى استقر مع اللغة العامية حين تقول : « جلف الطفل جرحه » ·

(٢) وفيها يقول لسان العرب : جـ ١٤ . ص ٣٥٧ : جرم النخل والتمر ، يجرم جرما وجراما : قطعه · وما زال الاستعمال أيضا شائعا : جرم النخل أى قطع الزائد من الجريد · وجرم اللحم أى قطعها عن العظم · وقد يمكن البحث عن الصلة بين العربية واللاتينية فى كلمة « جرام » gram التى تفيد « وزنا صغيرا » . ثم صارت وحدة من وحدات الموازين ·

وفى متابعة لنظريته يقول : « نعم وتجـــاوزوا ذلك الى أن ضـــارعوا بالاصول الثلاثة : الفاء والعين واللام » . وهنا يشعر الواقف أمام محاولات ذلك الرجل الفذ أنه يملك ناصية الاشتقاق اللغوى ، وناصية الغوص وراء المعانى . وهى مهارة عقلية أكثر منها التزام بروح اللغة ومنهجها . ففيمابين:

« عصر الشيء » و « أزل الشيء » مضارعة فى الحروف لتضارع المعنيين، ذلك أن عصر الشيء ضرب من الحبس ، وأزل الشيء بمعنى حبس الشيء .

وعنده أن العين أخت الهمزة ، والصاد أخت الزاى والراء أخت اللام .

والصلة بين المعنيين هى المولدة لصلة الألفاظ !

ومنه أيضا :

سلب الشيء : اذا صرف عن وجهه

صرف الشيء : اذا غير عن وجهه .

والمقابلة بين أصوات الأصل الأول والأصل الثانى حادثة عن تقـــارب المعنيين .

ونفس المقياس يضعه مع :

غدر وختل(١) ، وزأر وسعل(٢)

عدن وأطر(٣) ، قفز وكبس(٤)

صهل وزأر(٥) ، جعد وشحط(٦)

---

(١) الغدر قريب المعنى من الختل : لأن الغين أخت الخاء ، والدال أخت التاء ، والراء أخت اللام .

(٢) وتقارب المعنى من دلالتيهما على التصويت ومقابلة الحروف مطردة

(٣) والمعنى المتقارب هو « الاقامة والتلبث » .

(٤) والصلة بين المعنيين ن القفز اذا استقر على الارض كبسها .

(٥) اصدار الصوت هو الصلة بين المعنيين .

(٦) الصلة تأتى من ن الشىء اذا تجعد وتقبض عن غيره فكأنه شحط وبعد عن غيره .

سيف وصوب(١) ، جاع وشاء(٢)

وعنده أن المعنيين في كل زوج متقاربان ، ومن ثم أصبح اللفظان متراسلين ٠

هذه أمثلة توضح النظرية التي نستخلصها من لمحات فيلسوفنا اللغوى ، وروح النظرية يعتمد على القدرة التي أخذها صاحبنا من فلسفة الاشتقاق ٠ فقد رأى فريقا من قدماء اللغويين يذهبون الى أن بعض الكلام مشتق ، وبعضه غير مشتق ، وكأنى به يريد أن يعمم الاشتقاق ، فلا يتوقف به مع أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية ، بل يريده اشتقاقا للمعانى المتقاربة وما تستحدثه الظاهرة من تقارب الألفاظ ٠

والذى لا شك فيه أن المنهج ، ولو أن به الذكاء والمهارة والمعرفة خطير بالنسبة لبناء اللغة ٠ ذلك أنه يميع الفروق بين المعانى ، فلو أخذنا أى زوج من تلك الأزواج المتقاربة وأذبنا تخصيص الدلالة كما يريد صاحبنا ، لأوشكت المعانى أن تنبهم ٠ فهل يمكن أن تستقيم مساقات حين نزعم أن : « قفز » تتضارع مع « كبس » لأن القفز هو كبس للأرض !! وهل يمكن أن تتشابه مشيئة الطعام الصادرة عن الجوع مع آلاف المشيئات التى تعتمل فى النفس

انها صنعة أرادها ابن جنى : « وهـذا النحو من الصنعة موجود فى أكثر الكلام وفرش اللغة ، وانما بقى من يثيره ويبحث عن مكنونه ، بل من اذا أوضح له وكشفت عنده حقيقته طاع طبعه لها فوعاها وتقبلها ٠ وهيهات

---

(١) الصلة تأتى من قول العرب : سيف رسوب أى يرسب فى الضريبة لحدته ومضائه ومن قولهم : صاب يصوب اذا انحدر . وذلك هو التشابه ٠

(٢) قالوا : جاع يجوع أو شاء يشاء ، والجائع هو الذى يريد الطعام ٠ والارادة مشيئة وفى كل الأصول السابقة يقـــابل ابن جنى بين كل أصلين مع الترتيب الوارد و[illegible] الأصول أصوات فى دولاب واحد ٠

ذلك مطلبا . وعز فيهم مذهبـــا ! وقد قال أبو بكر (السراج) : من عرف ألف . ومن جهل استوحش »(١) .

واذا كان من الحق أن الصنعة هنا تعمل فى عالم أسدل التاريخ عنيه ستائر كثيفة ، فمن يدرى . لعل مثل هذه الاقباس المتناثرة تحدث — ذات يوم — شعاعا مستمرا . ثم لعله أخيرا يصل الى تصور لغوى عن المعضلة الكبيرة ، معضلة نشأة اللغة .

---

(١) الخصائص جـ ٢ . ص ٢٤١

٣ ـ المعانى المتلاقية

اذا كانت بعض خصائص اللغة العربية توضح أن تقارب المعانى يصل بالألفاظ الى نوع من المضارعة سيان فى ذلك ما يحيط ببعض أجزاء من المبانى اللفظية أو فى المبنى كله ، فان خصائص أخرى تبرز حين نرى « أن شرف هذه اللغة يصل الى أن تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة ، فتبحث عن أصل كل اسم منها ، فتجده مفضى المعنى الى معنى صاحبه »(١) . وهذه النظرة التى يركز بها الضوء على المعانى يفرد لها : « باب فى تلاقى المعانى على اختلاف الأصول والمبانى » . وهو لا يستهدف علاج ما تعارف أصحاب الاشتقاق الصغير على حده بالمترادفات ، فذاك شىء آخر ، وان كان خلط واسع يبدو بين السياقين(٢) .

الاطار الذى يعقده ابن جنى لمعانيه الثـلاثة يلتزم بوزن صرفى محدد ثم يسعى لجذب المعانى المتواردة من أصول متخالفة . مثال ذلك ما يأتى على وزن فعيلة ، فجميع موادها تصل الى افادة معنى عام ، وهى : « تؤذن بالالف والملاينة والاصحاب والمتابعة »(٣) . وتطبيق ذلك :

١ ـ الخليقـة : هى « فعيلة » من الخلق والخلق .

وقولهم خلق الانسان من خلقت الشىء ، أى ملسته ، وهو ما قدر له ورتب عليه . فكأنه أمر قد استقر وزال عنه الشك ومنه أيضا قولهم : صخرة خلقاء للملساء .

---

(١) الخصائص : جـ ٢ ، ص ١١٣ . ومن الصفحات التالية سيكون أخذ هذه النقرد .

(٢) فى كتاب الدكتور ابراهيم أنيس عن « دلالة الألفاظ » فصل يعالج فيه صراع نحو العرب حول دلالة اللفظ . فانظره .

(٣) الخصائص جـ ٢ ، ص ١١٦

٢ ـ الغريزة : وهى فعيلة من « غرزت » ٠

ومنه تغريزهم الدرهم بالآلة التى تثبت عنيه الصورة ٠

٣ ـ الطبيعة : وهى قريبة من الغريزة ٠

لأنها تشبه طبع الدرهم ورسمه ٠ ليصير الوضع الجديد كالطبع له ٠

٤ ـ السجية : هى فعيلة من سجا يسجو ، اذا سكن ٠

والسجية خلق الانسان الذى يسكن اليه ويستقر عليه ٠

٥ ـ الطريقة : فعيلة من طرقت الشىء أى وطأته ٠

وكأن الطريقة فيها الاستقرار على طبيعة ٠

٦ ـ الضريبة : فعيلة من ضرب ٠

ذلك لأن الطبع لا بد معه من الضرب لتثبت له الصورة المرادة ٠

٧ ـ النحيزة : من نحزت الشىء أى دققته ٠

ويسمون الهاوون المنجاز لأنه موضوع للدفع به والاعتماد على المدقوق ٠

٨ ـ النحيتة : من نحت الشىء ملسته ٠

والنحيتة كالخليقة ، لأنها من نحت الشىء أى قررته على ما أردته ٠

٩ ـ السجيحة : فعيلة من سجح ٠

وقولهم سجح خلق الرجل أى قر واطمأن وتذلل ٠

١٠- السليقة : والسليق ما تحات من صغار الشجر ·

وقولهم فلان يقرأ بالسليقة أى بالطبيعة ·

هذه بعض صيغ اختارها من نموذجه · وهو يدرك أن بعضها يتقارب بفعل الجهد والرياضة والتهذيب والاعتماد أى القصد ، ومن تلك : طرقت الشيء وغرزته ونحته ·· ومن الأصول أيضا ما يجمعه الالف والملاينة مثل : الخليقة والسجية والطبيعة ·· ومنها ما يجمعه التمرين على الشيء ، وتليين القوى ليصحب وينجذب ·

مثال آخر :

صبى وصبية ، وطفل وطفلة ، وغلام وجارية ·

الصبى : من صبوت الى الشيء اذا ملت اليه ·

الطفل : من طفلت الشمس للغروب أى مالت اليه(١) ·

الغلام : من الغلمة وهى اللين وضعفة العصمة ·

الجارية : من جرى الماء ، أى لينة ، ضعيفة العصمة ·

أصول مختلفة يجمعها المعنى العام وهو (الانجذاب وترك الشدة والاعتياص » · وأحسب أن الاعتمال والتحويل لا يركبان الا مركبة القائم على المعرفة والجهد المحاول ضم الشتيت ·

وكما يصنع فى مثل تلك الأصول المختلفة فانه يحاول أن يرد الألفاظ التى تبدو غير منتسبة الى أصول تشتق منها ، يحاول أن يردها الى أصول حسية وكأنه يرى أن كل الأسماء مرتدة الى « أحداث » · ولنأخذ من أمثلته

---

(١) فى السياق يقول ابن جنى غلام رطل ، وجارية رطلة للينها ·
رطل شعره أى ظله فاسترخى ·
ومنه الرطل الذى يوزن به لان الغرض فى الأوزان ان تميل أبدا الى أن [illegible]
به · فتعجب ··

١ — الفضة : سميت بذلك لانفضاض أجزائها وتفرقها فى تراب معدنها .

٢ — اللجين : وهى الفضة وسميت بذلك لانها ما دامت فى تراب معدنها فهى ملتزمة فى التراب ، متلجنة به .

٣ — الذهب : سمى بذلك لأنه كالذاهب ، وهـذا لأن ما فيه من تراب كالمستهلك له (١) .

أو لانه قل فى الدنيا فكأنه مفقـود ذاهب . وحين يكون ذاهبا فى ترابه يسمونه « تبرا » وهى (فعل) من التبار . ولا يسمى تبرا الا اذا كان فى تراب معدنه أو مكسورا . فاذا صفوه من ترابه قالوا له :

الخلاص : وهى فعال من تخلص .

والابريز : من برز يبرز ، أى ظهر .

والعقيان : من عقى الصبى يعقى ، وهو أول براز يخرجه الصبى عند سقوطه من بطن أمه قبل أن يأكل .

٤ — الـدم : من الدمية لفظا ومعنى .

وذلك أن الدمية انما هى للعين والبصر . واذا شـوهدت الدمية فكأن ما هى صورته مشاهد بها ، وغير غائب مع حضورها ، فهى تصف حال ما بعد عنك .

الدم من الدمية : لأن الرمية اذا غابت عن الرامى استدل عليها بدمها فاتبعه حتى يؤديه اليها . ويؤكد ذلك أنهم يسمون الدم : البصيرة ، لأن الدم اذا أبصر أدى الى المرمى

---

(١) يريد بذلك أن قلة هذا الجوهر فى ترابه تجعله كالمستهلك الذى يصعب الوصول اليه .

الجريح · وكذلك يسمون الدم : الجدية . لان رؤيته يجدى
عى الطالب للرمية ·

٥ ـ الناقة ـ : من قولهم تنوقت فى الشىء : اذا احكمته و خيرته · وهى « فعلة » واجود اللغتين تانقت (أى أنها أجود من تنوقت)
وذلك ان الناقة كانت عند العرب مما يتحسنون به
ويتباهون بملكه ·

٦ ـ الجمل : وهو فعل من الجمال · ومنه قوله تعالى : « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » ·

٨ ـ المسك : « فعل » من امسكت الشىء ، كأنه لطيب رائحته يمسك الحاسة عليه ·

٩ ـ الصوار : من صار يصور : اذا عطفه وثناه · ومنه قوله تعالى : « فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك » ·

وهم يسمون قطعة المسك « صوار » لأنها تجذب حاسة من
يشمها وتمسكها ·

ومنه تسميتهم للجلد « مسك » (فعل) لأنه لولاه لم
يتماسك ما فى الجسم من اللحم والشحم والدم وبقية
الأمشاج ·

تيار ينفرد به صاحبنا ، ولعله اقوى من ان يلمه فى سفينه أو تحت شراعه · وعلماء عصره لا يرون رؤيته : « وأهل اللغة يسمعون هذا فيرونه ساذجا غفلا · ولا يحسنون لما نحن فيه من حديثه : فرعا ولا أصلا »[1] ·ولم يفت فى عضده تجاهل علماء زمانه ، ولم يوهن من عزيمته ذلك التشكيك

---

(١) الخصائص جـ ٢ ص ١٢٣

لانه يؤمن بان « التأتى والتلطف فى جميع هذه الأشياء وضمها وملاءمة ذات بينها هو خاص اللغة وسرها ، وطلاوتها الرائقة وجوهرها . فأما حفظها ساذجة وقمشها محطوبة هرجه ، فنعـوذ بالله منه ونرغب بما آتاناه الله عنه »(١) . تلك فقرة توضح فلسفة ابن جنى ، وهو دائب السعى لكشف خاص اللغة وسرها . وهو نافر من استخدامها دون تمعن . وعنده أن اللغة مع علمائها غيرها مع مستخدميها . « هذا ونحوه من خصائص هـذه اللغـة الشريفة اللطيفة ، وانما يسمع الناس هذه الألفاظ فتكون الفائدة عندهم انما هى علم معنياتها . فأما كيف ؟ ومن أين ؟ فهو ما نحن عليه . واحج به أن يكون عند كثير منهم نيفا (فضلا وزيادة) لا يحتاج اليه ، وفضلا غيره أولى منه »(٢) .

البحث عن فقه اللغة يحتاج النظر الى غير الوظيفـة المباشرة منها . يحتاج الى الغوص والتفتيش : « وهذا مذهب فى هذه اللغة طريف ، غريب لطيف ، وهو فقهها وجامع معانيها ، وضام نشرها (ما تفرق منها) وقد هممت غير دفعة أن أنشىء فى ذلك كتابا أتقصى فيه أكثرها ، والوقت يضيق دونه ، ولعله لو خرج لما أقنعه ألف ورقة الا على اختصـار وايماء . وكان أبو على الفارسى رحمة الله يستحسن هذا الموضوع جدا ، وينبه عليه ، ويسر بما يحضره خاطره منه »(٣) .

هو اذن فقه لغة ود ابن جنى أن يفرد له كتابا ، يجمع فيه ما تفرق من أسرار الارتباط المعنوى . وهو لا يسعى اليه من خلال فكرة الاشتقاق ، فذلك ضرب آخر : « هذا باب انما يجمع بين بعضه وبعض من طريق المعانى مجردة من الألفاظ . وليس كالاشتقاق الذى هو من لفظ واحد ، فكأن بعضه منبهة على بعض . وهذا انما يعتنق فيه الفكر المعانى غير منبهة عليها الألفاظ . فهو

---

(١) المرجع السابق . ص ١٢٥
(٢) المرجع السابق . ص ١٢١
(٣) المصدر السابق حـ ٢ ص ١٣٣

أشرف الصنعتين وأعلى المأخذين · فتفطن له ولا تجفه . فانه يونقك ويفىء عليك ويبسط ما تجعد من خاطرك »(١) ·

وفى خلاصة ابن جنى تبرز حقيقتان · أما الأولى فهى أن منهجه لا يتعلق بالاشتقاق · وليس ذلك لعزوفه عن الانخراط فى أبحاث الاشتقاق ، الذى يراه « أخذ لفظ من لفظ » ، ويراه غيره « دراسة المفردات » · وأخذ ألفاظ القاموس كلمة كلمة ، وتزويد كل واحدة منها بما يشبه أن يكون بطاقة شخصية ، يذكر فيهـا من أين جـاءت ، ومتى ، وكيف صنعت ، والتقلبات التى مرت بها ·

هو اذن علم تاريخى يحدد صـيغة كل كلمـة فى أقدم عصر تسمح المعلومات التاريخية بالوصول اليه · ويدرس الطريق الذى مرت به الكلمة مع التغيرات التى أصابتها من جهـة المعنى أو من جهـة الاستعمال »(٢) · والاشتقاق سواء كما يعبر عنه سلفنا أو كما يعبر عنه المحدث ، هو فى أساسه دراسة تاريخية تتبع علاقات الصيغ وأنماطها وأقيستها ·

والحقيقة الثانية التى يريدها صاحب الخصائص هى ترابط المعـانى مجردة من الألفاظ · ثم من خلال المعـانى يشرع فى البحث عن الألفـاظ المنبهة بعضها على بعض · والفكرة التى يعرضها فى السياق تبدو غريبة على منهج فقه اللغة ، فلا عهد لها بمعان مستقلة عن مبانى صيغها · ومن ثمة يصبح البحث عن تقارب المعانى كشىء أسبق من تقارب الألفاظ ، بمثابة البحث عن الماء قبل أن نعثر على البئر · ولذلك كثيرا ما نشعر بتعسف حاد حين يسعى الرجل الى ربط المعانى ثم يسعى لتقييد أصولها ·

---

(١) المصدر السابق

(٢) فندريس اللغة ص ٢٢٦

اللغة أخطر من ذلك والعقل البشرى لا يقنع بالبحث عن شبهات تراءى بين « غرز » و « طبع » أو بين « الناقة » و « الجمل » وما اليها ، انه يريد « الحد » فاصلا ، حتى لا تضيع معالم الألفاظ فتنبهم الحياة ذاتها ·

ذلك هو منطقنا بعد أن مرت ملايين السنين ، ولكن أيمكن أن يكون « الانبهات » صادرا عن مراحل سابقة ، ما عدنا نمتلك عنها وثائق وحدودا ·

وخضعت — اللغة — فى ذلك العمر الطويل لعمليات متتالية من التقسيم والتخصيص !!

٤ ــ الاشتقاق الاكبر

هو أيضا من الدروب التى سلكها النفكير اللغوى على يد أبى الفتح عثمان بن جنى ، وهو يفرقه عن الاشتقاق الأصغر الذى هو فى أيدى الناس وكبتهم ، وفيه يأخذون أصلا من الأصول ويتقرونها ، ويجمعهم المعنى وان اختلفت الصيغ والمبانى(١) • أما الاشتقاق الأكبر — موطن فخرة — فهـو « أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية ، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا ، تجتمع التراكيب الستة ، وما يتصرف من كل واحد منها عليه »(٢) • وشق طريق الاشتقاق الأكبر هو موضع فخار لابن جنى • واذا كان أستاذه أبو على الفارسى قد ركن الى شىء من الدرب ، فلقد كان ذلك ديدنه حين يعوزه السعى فى نطاق الاشتقاق الاصغر • أما التسميد فيقول : « هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا • وانما هذا التلقيب — بالاشتقاق الاكبر — لنا نحن • وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن »(٢) •

ومع ذلك فلا بد من تصور بدايات المنهج مع ما فعله الخليل بن أحمد حين سعى الى وضع معجمه « العين » • فلقد ارتكز على تقليبات المواد اللغوية • ثم مع ما صنعه ابن دريد فى « الجمهرة » حين أمسك بالمادة وقلبها ليعطى معنى كل صيغة • ولو أخذنا — على سبيل المثال — مادة « ج‌ب‌ر » لوجدناه يعرض الآتى : (٣)

---

(١) يضرب مثالا على ذلك تركيب « سلم » فكل تصرفه يعطى معنى السلامة سلم — يسلم — سالم — سلمان — سلمى — السلامة والسليم • وحين تطلق هذه الأخيرة على اللديغ فهى من باب التفاؤل بالسلامة • (انظر ص ١٣٤ ، الجزء الثانى من الخصائص) •

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٣ وما [illegible] ، حيث [illegible] منها [illegible] منهج [illegible] •

(٣) ابن دريد : الجمهرة ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ • ونحن نعرض بايجاز للمعانى والشواهد التى يذكرها •

١ - جبر : منه جبور العظم ، والجبارة هى الخشب الذى يشد على العضو المكسور . وأجبرت الرجل على كذا فهو مجبر . والجبر : الملك . والجبار : للنخل الذى فات اليد .

٢ - برج : البرج من بروج الحصن أو القصر . وهو عربى معروف . أما البرج من بروج السماء ، فلم تعرفه العرب انما كانت تعرف منازل القمر . والبرج هو نقاء بياض العين وصفاء سوادها . وتبرجت المرأة أظهرت محاسنها .

٣ - جرب : ومنه الجرب . وهو الداء المعروف . والجربة : القراح . والجرباء هى السماء . والجربة للأقوياء من الناس اذا اجتمعوا . والتجارب منها الرجل المجرب . والجرباء هى ريح الشمال - وجراب السيف قرابه .

٤ - رجب : رجب الرجل بمعنى اكرامه وتعظيمه . والشهر سمى « رجب» لتعظيمهم اياه . والنخلة اذا مالت وكرمت على أهلها تسند بالرجبة ، وهى مرجبة . وفصوص الأصابع تسمى رواجب ، ومفردها راجبة .

٥ - بجر : ومنه البجر أو البجرة (باء مفتوحة) أو البجرة (باء مضمومة): وهى السرة اذا نتأت . هذا أمر بجرى : عظيم . والجمع البجرى وهو الدواهى العظام .

٦ - ربج : الرجل الرباجى : هو الذى يفخر بأكثر من فعله .

لم يحاول صاحب الجمهرة أن يستخلص آية دلالة عامة تحبس هذه الصيغ المختلفة ، لأنه ينتسب الى عصر جمع أكثر من انتسابه لعصر تفلسف وبحث عن أسرار اللغة وفقهها .

وحين جاء عصر ابن جنى سعى صاحبنا لجمع نفس الصيغ تحت اسار واحد : ان « تقليب (ج ب ر) - أين وقعت - هى للقوة والشدة » .

١ - جبر : جبرت العظم والفقير اذا قويتهما وشددت منهما . الجبر : الملك لقوته وتقويته لغيره .

٢ ـ جرب : رجل مجرب اذا امتحنته الأمور فقويت منته واشتدت شكيمته · الجراب : لانه يحفظ ما فيه واذا حفظ الشيء اشتد وقوى ·

٣ ـ بجر : الابجر والبجرة : وهو القوى السرة · وتأويله أن السرة غلظت ونتأت فاشتد مسها وأمرها ·

٤ ـ برج : البرج لنقاء العين وصفاء سوادها ، هو قوة أمرها وعو ليس بلون مستضعف ·

٥ ـ رجب : رجبت الرجل اذا عظمته وقويت أمره · ومنه « رجب » لتعظيمهم اياه عن القتال فيه ·

الرجبة : شيء تسند اليه النخلة لتقوى به ·

الراجبة : أحد فصوص الأصابع وهى مقوية لها ·

٦ ـ ربج : الرباجى : الرجل يفخر بأكثر من فعله ، وتأويله انه يعظم نفسه ·

مثال آخر يسوقه ، وجميع تقلباته تفيد « القوة والاجتماع » · انها تراكيب « قسو »(١) ·

١ ـ قسو : القسوة شدة القلب واجتماعه ·

٢ ـ قوس : القوس لشدتها واجتماع طرفيها ·

٣ ـ وقس : الوقس لابتداء الجرب ، وذلك لأنه يجمع الجلد ويجعله قحلا يابسا ·

---

(١) الخصائص جـ ٣ ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧

٤ ـ وسق : الوسق للحمل ، وذلك لاجتماعه وشدته · ومنه « والليل وما وسق » أى جمع ·

٥ ـ سوق : السوق ، وذلك لأنه استحثاث وجمع للمسوق بعضه الى بعض ·

٦ ـ سقو : « أصل مهمل » ·

وبنفس المنهج يقلب ابن جنى مادة « سلم » فيراها تفيد « الاصحاب والملاينة » · وأوجز مناحيها فيما يأتى :

١ ـ سمل : الثوب السمل : أى الخلق ، فاذا مرت اليد عليه لم تستوقفها جدة المنسج ولا خشنة الملمس ·

٢ ـ سلم : السليم الذى ليس فيه عيب تقف النفس عليه ·

٣ ـ ملس : الأملس والملساء · وذلك لأنه لا اعتراض على الناظر فيه والمتصفح له ·

٤ ـ مسل : المسل كالمسيل ، وذلك أن الماء لا يجرى الا فى مذهب له · فلو صادف حاجزا لاعتاقه ·

٥ ـ لمس : اللمس لأنه اذا عارض اليد شيء حائل بينها وبين الملموس لم يصح هناك لمس ·

٦ ـ لسم : صيغة مهملة · ولكنه يرى أن العرب يقولون : نسمت الريح : اذا مرت سهلا ضعيفا · والنون أخت اللام ·

وأما تقلبات « قول » فتتجمع حول « الخفوف والحركة »(١) ·

---

(١) نفسه . جـ ٢ . ص ٥

١ — قول . القول لان الفم واللسان يخفان له ويقلقان به .

وهو بضد السكوت الذى هو داعية السكون .

٢ — قلو : القلو حمار الوحش . وسمى بذلك لخفته واسراعه . ومنه قلوت السويق ، لان الشيء اذا قلى حف كان أسرع الى الحركة .

٣ — وقل : الوقل هو الوعل وبه خفة الحركة .

٤ — ولق : ولق يلق اذا أسرع .

٥ — لوق : لوق الطعام أى خدمه وأعملت اليد فى تحريكه وتلبيقه حتى يطمئن وتنضام جهاته .

اللوقة : الزبدة ، وذلك لخفتها واسراع حركتها ، وأنها ليست لها مسكة الجبن .

٦ — لقو : اللقوة : العقاب . وذلك لخفتها وسرعة طيرانها .
اللقوة : الناقة السريعة اللقاح . وذلك أنها أسرعت الى ماء النحل فقبلته .

وأما « كلم » فانها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة(١) .

١ — كلم : منه الكلم للجرح . وذلك للشدة فيه .
الكلام : ما غلظ من الأرض (بضم الكاف) .
الكلام : الجراح (بكسر الكاف) .
الكلام : سمى بذلك لأنه سبب لكل شر وشدة فى أكثر الأمر .

٢ — كمل : كمل الشيء اذا تم ، وهو حينئذ أقوى وأشد منه اذا كان ناقصا غير كامل .

---

(١) الخصائص جـ ١ ص ١٣

٣ ـ ل ك م : اللكم اذا وجأت الرجل ٠

٤ ـ م ك ل : بئر مكول اذا قل ماؤها ، وعنئذ كره موردها وجفا جانبها وتلك شدة ظاهرة ٠

٥ ـ م ل ك : ملكت العجين ، اذا أنعمت عجنه ، فاشتد وقوى ٠ ملك الانسان ما اشتملت عليه اليد ٠ وذلك قوة وقدرة من المالك ٠

٦ ـ ل م ك : مهمل ولم يأت فى ثبت(١) ٠

تلك قدرة نادرة يمتلكها ابن جنى سواء فى تملكه لناحية التحليل ورد التقلبات الى معانيها أم فى تمكنه لزمام التركيب الذى يرد فيه هذه المحللات الى أطرعامة ٠ وهو يدرك صعوبة الدرب ويقرر أن « الطرائق التى نحن فيها حزنة المذاهب ، والتورد لها وعر المسلك ، ولا يجب مع هذا أن تستنكر ولا تستبعد »(٢) ٠ واذا كان قد ترسم بعض خطى شيخه أبى على الفارسى فانه قد تخطى الحدود التى وقف عندها صاحبه ٠ وأصبح رأس اتجاه يتيه به على معاصريه ٠ لقد استسرف الناس صنيع أبى اسحاق الزجاج حين طرد الاشتقاق الصغير « وفيما تجشمه من قوة حشدة ، وضمه شعاع ما انتشر من المثل المتباينة الى أصله »(٢) ٠ ان كل ذلك لم يكن فى سبيل الاشتقاق الكبير ، وهو تقليب الأصل ، ووضع كل واحد فى أحنائه (تصاريفه) موضع صاحبه ، فذلك شىء لم يعرض له ولا تضمن عهدته ٠٠ الرجل عارف بصعوبة المذهب وحرونته ٠ولذلك ينصح كلّ من عملَ فى اللغة أن يركن الى لطف الصنعة وجهد التأويل حتى يستقيم له الأمر : « على أنك اذا أنعمت النظر ولا طفته وتركت الضجر وتحاميته لم تكد تعدم قرب بعض من بعض ،

(١) من واقع هذه الأصول حاول ابن جنى التفرقة بين معنى « القول » ومعنى « الكلام » ٠ فلأن تقلبات الأولى تفيد الخوف والحركة . فكلمة « القول » تطلق على كل لفظ مذل به اللسان تاما كان أو ناقصا ٠ ولأن تقلبات الثانية تفيد القوة والشدة فأصبحت لفظة « الكلام » تطلق على كل لفظ مستقل بذاته ٠ وهو الذى يسميه النحويون الجمل ٠ انظر متعلق الجدل فى ص ١٧ ـ ٣٣ من الجزء الأول ـ الخصائص ٠

(٢) الخصائص جـ ١ . ص ١١ ـ ١٢

واذا تأملت ذاك وجدته باذن الله »(١) . وليس من العسير القول ان صنيع ابن جنى فى اشتقاقه الكبير يعد ثمرة من أنضج ثمار ذلك العصر . ففيه جهد اللغويين وعلماء الصرف والنحاة ، ثم فيه بذور ما تسعى مناهج حديثة للوصول اليه حين تريد أن تجد آثار الصوتيات Phonotics فى تحديد مسار الانفعال النفسى داخل العمل الأدبى عامة والشعرى خاصة ، والتخصيص وليد اعتماد فن النظم على الطاقة الموسيقية أو التلاؤم الصوتى . ولعل ذلك الاحساس بجهد عالمنا الكبير هو ما دفع آدم متز ليقرر : « ان لغويى العرب لم يعرفوا انتاجا أعظم من الاشتقاق الكبير »(٢) .

واذا كان ذلك الجهد يمثل شعاعا واضحا وسط الجهود اللغوية ، فان صاحبه كان يدرك أنه لا ينتظم كل اللغة . ولقد كانت قضية الاشتقاق عامة مما شغل القياسيين ، ووضع المتأخرون التغييرات التى تحدث بين الأصل المشتق منه والفرع المشتق عنه(٣) ، كما حددوا الوجوه التى ترجح أصل الاشتقاق اذا ترددت الكلمة بين أصلين(٤) . ولكن الاشتقاق الذى استنه ابن جنى أو لنقل بدقة الذى بعجه بعد أن راوده أبو على الفارسى(٥) كان فى حاجة منه لمعرفة العالم الصرفى ، ومعرفة العالم البيانى : « أعلم أنا لا ندعى أن هذا مستمر فى جميع اللغة ، كما لا ندعى للاشتقاق الأصغر أنه فى جميع اللغة . بل اذا كان ذلك الذى هو فى القسمة سدس هذا أو خمسه متعذرا صعبا ، كان تطبيق هذا واحاطته أصعب مذهبا وأعز ملتمسا . بل لو صح من هذا النحو وهذه الصنعة المادة الواحدة تتقلب على ضروب التقلب كان غريبا معجبا . فكيف به وهو يكاد يساوق الاشتقاق الأصغر ، ويجاريه الى المدى الأبعد »(٦) .

---

(١) نفسه : جـ ١ . ص ١٣

(٢) أدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع . جـ ١ . ص ٣٣

(٣) السيوطى يجعلها خمسة عشر نوعا تتراوح بين زيادات حركات ومواد أو نقصانها . انظر المزهر ، جـ ١ ، ص ٣٤٨

(٤) نفسه . ويحددها فى تسعة أنواع . انظر ص ٣٤٩ ، ٣٥٠

(٥) انظر مثلا الجزء الأول ص ١١ ، والجزء الثانى ص ١٣٨ من الخصائص حيث يقرر ابن جنى أخذه بالبدايات عن أستاذه .

(٦) الخصائص : جـ ٢ . ص ١٣٨ و١٣٩

هذا النوع من الاشتقاق اذن ، لا يتخلف عن صنوه الصغير . وهو محاولة من صاحبه لرد التقلبات المختلفة للمادة الى دلالة مجمعة لها ، وهو أيضا محاولة لكشف ارتباط الصيغة بالبنية . واذا كان ربط التقلبات المختلفة بعضها ببعض مما ينشر الحذر فى العقل والنفس . فان صاحبنا ساق الأمثلة الموضحة للمنهج ، والمذكية للمعانى التفصيلية التى يستشهد بها . وعامة الأمر في دراسات فقه اللغة أنها ليست افتراضات توضع أو تثار ، ولكنها استقراء ، يقبل به صاحبه على اللغة فى وجودها ، ويستقرئ من خلاله ظواهرها وجوهرها . وصنيع مؤلف الخصائص محاولة من ذاك .

ولولا ما نشعر به من شدة توتر الخيط الحابس لهذه التقلبات فى حومة الدلالة ، لاستطاع الاشتقاق الأكبر أن يمكن معرفتنا اللغوية من احدى الذرى السامقة ، لكن ما خضع له ابن جنى من اصرار على شق الطريق مهما بدت العراقيل ، ومن اظهار قدرته الفائقة ، قد صد غيره عن الطريق . وللامام السيوطى تعليق يجمع فيه اعتراضين أساسيين :

أولهما : يتعلق بفقه اللغة أو بفلسفتها : « سبب اهمال العرب وعدم التفات المتقدمين الى معانيه أن الحروف قليلة . وأنواع المعانى المتفاهمة لا تكاد تتنهى ، فخصوا كل تركيب بنوع منها ، ليفيدوا بالتراكيب والهيئات أنواعا كثيرة ، ولو اقتصروا على تغاير المواد حتى لا يدلوا على معنى الاكرام والتعظيم الا بما ليس فيه من حروف الايلام والضرب ، لمنافاتهما لها ، لضاق الأمر جدا ، ولاحتاجوا الى ألوف حروف لا يجدونها ، بل فرقوا بين معتق ومعتق (بكسر العين وبفتحها) بحركة واحدة حصل بها تمييز بين ضدين »(١) . هو دفاع عن الاشتقاق الصغير ، فالمنطق اللغوى قد ألفه . والذى ربما يكون قد فات السيوطى ان كل صيغ تنتسب الى التصاريف الاشتقاقية لا ترفض من أية صورة من تقلبات المادة . ولعلنا هنا أمام القانون الصوتى العام الذى تسعى به اللغة الى ربط تطورها بماضيها ، حين

---

(١) المزهر : جـ ١ ، ص ٣٤٧

تشتق من كل جديد ، ولولا القهر الفكري والاجتماعي لتشبثت اللغة بكل ما تركه السلف ولاعتاص الأمر عند السير الى الامام ٠

ثانيهما : وهو يمس المنهج الذى يأخذ به الاشتقاق الأكبر ٠ ذلك « ان اعتبار المادة دون هيئة التركيب من فساد اللغة ما بينت لك »(١) ٠ الخوف اذن هو أن تضيع الدلالات المترتبة على هيئات التراكيب المختلفة ، أما أن ترتبط المعانى بالمادة الواحدة فذلك ضياع لفروق المعانى وازهاق التفرق الدلالى ٠

هذان اعتراضان جوهريان يرتطم بهما ما فعله رائد الاشتقاق الأكبر ، ولعلهما لم يتحركا الا عندما بدت أنواع من التعسفات ، بل وفرض نوع من الارهاب على الدلالات المتباينة كى تستكين الى حظيرة عامة يشوبها الغموض وعدم التحديد ٠ فدلالات مثل « الشدة والقسوة » أو « الاصحاب والملاينة » أو « الخفوف والحركة » تكاد تنبهم حدودها ، ولا تقف حدودها عند شواطىء دالات معينة ٠ فما أكثر المواد التى تنخرط تحت « الاصحاب » أو « الشدة » أو « الحركة » ٠ ولعلنا لا نبتعد هنا عما قاله « مييه » عن هذه الأبحاث « انها من بين كافة أبحاث علم اللسان أدقها ، وأقلها يقينا ٠ ومن ثم كثر فيها عبث الهواة »(٢) ٠

وأيا ما كان من الصعوبة ، فهذا منهج تحليلى عمق ابن جنى دربه ، أنفق الرجل جهده لتقر تأملاته ٠ وهو حين يعلل لأرائه لا يلتزم الجدل المنطقى أو الافتراضات الميتافيزيقية ، انه مرتكن الى الحس اللغوى ، سواء ما تعلق منه بجرس الحروف مستقلا ، أو بمضارعة الحروف بعضها بعضا ، أو لحوم الصيغ المتقاربة حول محور دلالى جاذب ٠ ان ذلك الجهد التحليلى ، أو المنهج التطبيقى مما لا يزال علم الدلالة "Sémantique" يجرى تحت ريحه ٠ ومازال به أمل كبير ليقدم لفقه اللغة فرصة رائعة لفك أسرار اللغة

---

(١) المصدر السابق

(٢) منهج البحث فى الأدب واللغة . ترجمة الدكتور محمد مندور . ص ١٠٨ ٠

وتراكيبها . وحتى الذين اعترضوا لم يرفضوا « أن يكون بين التراكيب المتحدة المادة معنى مشترك بينها ، هو جنس لأنواع موضوعاتها »(١) . ان المنطلق الذى تحركت منه فلسفة الاشتقاق الأكبر هو خليط من الحس النقدى مع الحس اللغوى ، ويروى صاحبه الخبر التالى(٢) : « قلت مرة للمتنبىء : أراك تستعمل فى شعرك ذا ، وتا ، وثا ، وذى كثيرا . ففكر شيئا ثم قال : ان هذا الشعر لم يعمل كله فى وقت واحد . فقلت له : أجل ، لكن المادة واحدة . فأمسك البتة . والشىء يذكر لنظيره » (٣) . ثم يضيف ابن جنى خلاصة أومن بأنها ترجمان فلسفته وحافزه : « ان المعانى وان اختلفت معنياتها آوية الى مضجع غير مقض ، وآخذ بعضها برقاب بعض »(٣) .

ومع كل التأنى الذى ننظر به الى ذلك الجهد البعيد ، فى زمانه وفى مداه ، فلا شك فى أن الاحساس باللغة كان فوق كل شىء . ولقد راعت الكلمة الكثيرين ، ولكن ما استشعره ابن جنى كان شديد الارهاف ولقد حاول اللغويون فى كل العصور تحديد الكلمة ودورها . حدوها بصيغتها التصريفية أو الصوتيةأو الدلاليه أو النحوية ، ومع ذلك فان صاحبنا حين يقرنها بتقلبات المادة التى قد تفيد « القوة والشدة - مثلا - » يقترب كثيرا من تصوير وقعها ، ومن تصوير تاريخها الاسطورى ، ذلك الذى لعبته فى مجالات الحياة الاجتماعية والدينية والنفسية . ولذلك يتردد الكثيرون من المحدثين فى تحديد مفهوم الكلمة . يقول عنها دى سوسير انها غاية فى التعقيد مع انها تمثل حجر الزاوية فى اللغة ، ومن العسير كشف

---

(١) المزهر ، جـ ١ ، ص ٢٤٧ . ويعترف السيوطى أن أبا الفتح « جعله بيانا لقوة ساعده ورده المختلفات الى قدر مشترك » .

(٢) كان ابن جنى معاصرا للشاعر أبى الطيب وصحبه فترات من الحياة . وهو أول من فسر ديوانه فى « الفسر الكبير » ، وعنه أخذ أغلب اللاحقين .

(٣) الخصائص : جـ ٢ ، ص ١٣٩

حدودها (١) • واذا كانت الكلمة « أقرب تقريب من الوحدات اللغوية » • فان اسرارها وتأثيراتها تنأى عن كل القيود •

عندئذ ، يبدو كلام الاشتقاق عن « القوة والشدة » مسلكا نرى فيه آثارها بصرف النظر عن حدودها • والصعوبة التى نلمسها كلما اقتربنا من « الكلمة » كانت مما دفع فريقا من لغويينا لاثارة الاعتراض على ما صنعه صاحب الاشتقاق الأكبر •

الثنائية والدلالة :

اذا كنا نستطيع أن نطلق على ما فعله ابن جنى ومن تقيلهم ، أنهم أصحاب المنهج التحليلى للدالات والدلالات ، فان نوعا آخر يستحق أن نضعه فى منزله ، أعنى به جهد الباحثين عن أصل اللغة فى « الثنائية » • واذا كانت النظرة التى عالجت القضية لم تفرش أديمها لتغطى به سطحا واسعا ، فان ارتباط نفر من اللغويين به حين وضعوا قواميسهم أو مقاييسهم الدلالية تؤكد أن فكرة الأصل الثنائى لم تكن متأرجحة الحظ بين أياديهم • واذا قدموا لنا عددا من النماذج التى تشير الى أصول ثنائية تنمو دلالتها بنمو مبانيها فكأننا مع ما يشبه فكر النشوء والارتقاء — وكأن فكرة الأصل القادر على تحمل جذوع مختلفة لم تكن مرفوضة من الأوائل • ولو أخذنا مثالا مما يقول به أحمد بن فارس فى كتابه « مقاييس اللغة » ، لرأينا محاولة تطبيقية لربط الجذر الثنائى « بمعنى كلى » ثم يتعضى ذلك الأصل كلما لحقته لاصقة صوتية جديدة :

« ان باب القاف والطاء وما يثلثهما يفيد معنى القطع

---

(١) F. de Saussure, Cours de linguistique, p. 147, 148.

وقد حاول سيمون بوتر جمع عدة تعاريف للكلمة . ولكنه يشعر أنه تعجز عن الاحاطة بكل ما عندها • انظر :

Simeon Potter, Language in The Modern World p. 62.

قطع : تدل على صرم وابانة شيء ·

قطف : تدل على أخذ ثمرة من شجرة ·

قطل : تدل على قطع ·

قطم : تدل أيضا على قطع »(١) ·

دلالة عامة تكتسبها البنية من مقطعها الأول · ثم تكتسب تخصيصا مع اللاحقة الصوتية الداخلة ، وكل منها ذات اضافة خاصة ·

ولو أخذنا مثالا آخر ، يعود الى نفس القرن الثالث الذى كان فيه ابن فارس ، ورأينا الثعالبى يقول فى فقه اللغة بفصله عن تفصيل النقوش وترتيبها :

النقش : فى الحائط

الرقش : فى القرطاس

الوشم : فى اليد وفى الجلد

الرشم : فى الحنطة والشعير

الوشى : فى الثوب(٢)

ففى مثل هذا المثال تأتى رائحة من الألفاظ الخمسة الأولى لتضاف الى معنى عام ، وهو « ترك الأثر » ، وان لم يحدده صاحبنا · ثم ان زاوجنا بين الوشم والوشى ، أو بين النقش والرقش ، أصبح اللاصق هو ما يتحمل فرق المعنى ·

ومن هذا أيضا ما قال به الأصمعى :

(١) أحمد بن فارس : مقاييس اللغة ، جـ ٥ ، ص ١٠٣

(٢) الثعالبى : فقه اللغة ، ص ٧٨

ما كان من الرياح من نفخ فهو برد ٠

وما كان من الرياح من لفح فهو حر ٠

هى اذن ملموحات من لغويينا يرون فيها أصولا يمكن أن تندرج تحت أنماط دلالية متقاربة ٠ ولعل ذلك ما دفع بعض معاصرينا الى علاج قضية ثنائية اللغة كأساس تفهم به الأصول الأولى لموادها : « ان الكلم وضعت فى أول أمرها على هجاء واحد ، متحرك فساكن ، محاكاة لأصوات الطبيعة ، ثم فئمت ، أى زيد فيها حرف أو أكثر فى الصدر أو القلب أو الطرف ، فتصرف المتكلمون بها تصرفا يختلف باختلاف البلاد والقبائل والبيئات والأهوية ٠

فكأن لكل زيادة أو حذف أو قلب أو ابدال أو صنيعة ما ، معناه أو غاية أو فكرة دون أختها ٠ ثم جاء الاستعمال فأقرها مع الزمن على ما أوحته اليه الطبيعة أو ساقهم اليه الاستقراء والتتبع الدقيق ، وفى كل ذلك من الاسرار والغوامض الأخذة بالألباب ما تجلت بعد ذلك تجليا بديعا ، استقرت على سنن وأصول وأحكام لن تتزعزع »(١) ٠

ولنأخذ مثالا مما يعرضه الأب أنستاس الكرملى فى كتابه ، فالمادة اللغوية : « نب » صار نموها الدلالى فى اتجاهين : الأول يتجه نحو تحديد أن « نب » تفيد ارتفاع الصوت ، والثانى يتجه نحو أنها تفيد « الرفعة » والسمو ٠ فى الأول قولهم : نبح ، نبس ، نبص ، نبأ . أنبأ ، نبى ، نبئى — ومعناه صاحب الكلمة التى تتكلم بوساطة ٠ نبص ومنه قولهم نبض الرجل قوسه اذا صوتها ٠ وفى الاتجاه الثانى يقولون : نبل بمعنى ارتفع ، ومثله نبر ونبك ، ارتفع من الأرض ، ومثله نبت النبات ، ونبع الماء ، ونبغ يفيد الرفعة والتفوق ٠

---

(١) الأب أنستاس الكرملى : نشوء اللغة العربية واكتهالها . ص ٥ ٠

وواضح أن المجموعتين تنضويان تحت الدلالة الكلية التى تحدد للنون والباء معنى الارتفاع(١) ·

أليست محاولة رفع الثنائية الى حد القانون نحوا مما قال به فريق من قدماء اللغويين ؟ أبها بعيد مفارقة عن مثل : جبل ، جبن ، جبر ، وعن مثل : جرف ، وجلف وجنف ؟

ولكن الشيء الذى لا بد أن نعيه بعقولنا أن الأمر ليس عبثا لغويا ، أو مهارة فى القياس والتخريج · انه يمثل حسا خفيا يساوق بين النظر الى اللغة والنظر السحرى الذى يربط الألفاظ بدلالتها عن طريق ما وراء الدلالة المعجمية — وكان من الممكن أن تنمو تلك المحاولات لتصبح وعاء كاملا يستوعب الكثير من أبحاث فقه اللغة ، ولكن عاقتها نزعة البحث فى اللغة كمجموعات من الألفاظ متعالقة ومحدثة لصور متكاملة · لقد بزغت أبحاث لا تأخذ الألفاظ « كدوال لذاتها » بل كدوال بما ترتبط به من جيرانها · ولا شك أن مثل هذا التحول يمثل مرحلة حاسمة فى علاقات « فقه اللغة » بمادته · لقد استقرت الخطى على طريق جديد · طريق يأخذ بالنظر العقلى أو لنقل بالنظر العلمى ، حين أوشك الجانب السحرى أن يزول · وهكذا كتب على محاولات الخليل وأبى عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وغيرهم أن تخلى المجال لأصحاب المباحث فى علوم المعانى ونظريات النظم والتراكيب · فهذه الأخيرة وليد موفق بعد أن أثمرت الأبحاث الفلسفية والعلوم الكلامية ، وبعد أن توارت سطوة السحر ، وان يك ذلك التوارى مشوبا دائما بالقلق الذى يمزق ستره من آن لآخر ، فيرتد لنا فى أكثر من مجال · قد نراه سافرا ، وقد يتسلل فى مؤثرات بيانية أو اعتقادية ·

---

(١) راجع كتاب « نشوء اللغة العربية واكتهالها » ، ص ١

والمؤلف عارف بالجهد الذى انفقه السابقون له : « فمن قال بها ولم يحد عنها قيد شعرة الراغب الأصبهانى صاحب كتاب « غريب القرآن » ، فانه بنى معجمه على اعتبار المضاعف هجاء واحدا . ولم يبال تكرار حرفه الأخير ، فهو عنده من وضع الخيال لا من وضع العلم والتحقيق . أى أنه اذا أراد ذكر مد — يمد — مدا مثلا فى سفره ذكرها كأنها مركبة من مادة مد أى ميم ودال ساكنة · ولا يلتفت أبدا الى أنها من ثلاثة أحرف أى مدد كما يفعل سائر اللغويين · ولهذا السبب يذكر مد قبل مدح مثلا » · ولا يقدم هذه على تلك على ما تشاهده فى معظم معاجم اللغة كالقاموس ولسان العرب وأساس البلاغة وتاج العروس ·

ما وراء اللغة

أصحيح أن كل الجهد الذى بذله اللغويون لتفسير صيغ الاشتقاق كان عبثا لغويا ؟ أكان طريقا للمهارة العقلية ؟ وتلك المنزلة الكبيرة التى احتلها : أكانت لفهم صلة خفية بين العقل والأداة الصوتية التى اصطنعها الانسان ! لا أظن أن الاعجاب يكفى للتفسير ٠

ألم تكن هناك فلسفة تتراءى له من وراء فعله ؟ وحتى اذا لم يقم هو بوضعها فى الاطار ، أليس لنا أن نتساءل عن علاقة ذلك السعى من العالم اللغوى بسعى آخر كان يدور حول « وحدة الوجود » ؟ أليست المعانى العامة التى برزت بعد التقلبات للمادة اللغوية ، أو بعد تضارع الحروف ، أليست هى نمط من أنماط « وجود عام » كان العقل اللغوى هو الطريق لتحقيقه ؟ كل وجود لتلك « المعانى العامة » له وجود ب « القوة » من خلال الموجود ب « الفعل » ٠ والفعل هو تلك الصيغ التى يديرها الحس اللغوى ويحاول ، من ملاحظتها ، الوصول الى ما وراءها ٠ وكأن « الصـور» التى تأخـذها المواد الصوتية هى الطريق الى ادراك ما أسماه أرسطو ب « الهيولى » ٠ لو صح منا ذلك التفكير فان منهج الاشتقاق والمضارعة بين الحروف يصبح توكيدا للأصل البعيد للغـة ، ذلك الذى ذهب الى ميتافيزيقيـة ، أو الى ابراز ، جانبهـا الأسطورى ٠

الأصول المختصة :

مبحث أصل اللغة : أالهام هى أم اصطلاح اثيرت حركته مع أقدم من وصلت الينا آراؤهم اللغوية ٠ وما زال البحث معروضا حتى زماننا ٠ واذا علت صيحات تنادى بالكف عنه ، فما ذلك الا لافلاس الفكر وعجزه أن يتخطى

وسائل المعرفة التى يمتلكها(١) ولكن ما زال ما قرره بعضهم من أن أصل اللغات كلها من الأصوات المسموعات « وجها صالحا ومذهبا متقبلا »(٢) ·
فاذا كان دى سوسير F. De Saussure قد أحدث ثورة فى مجال الدراسات اللغوية بأوروبا بعد أن أثار قضايا الظواهر الاجتماعية والتطورية للغة ، وبعد أن تحدث باقناع كاف عن الرموز الصوتية واختيارها اختيارا جزافيا · فقد عرض فى كتابه (Cours de Linguistique générale) لاعتراضين أساسيين يراهما يمتنعان عن مطاوعة فكرة جزافية اختيار العلامة الصوتية المرتبطة بالدلالة(٣) ·

الاعتراض الأول : ان الكلمات المحاكية للأصوات Onomatopées تدل على أن الدالة "Signifiant" ليست دائما جزافية "arbitraire" اى أن مبانيها الصوتية توحى بارتباط معين بين اللفظ والمعنى · ويهرب دى سوسير من الموقف حتى تستطرد نظريته فى شوطها بأن يحدد للكلمات المحاكية للأصوات مواضعاته التالية :

(أ) ان عددها قليل ، فهى لا تمثل جزءا هاما فى المعجم اللغوى ·

(ب) انها لا تمثل عناصر عضوية eléments organique فى داخل النظام الصوتى (Système linguistique) ·

(جـ) الكثير منها يمكن أن يكون قد حدث بعد تطورات صوتية evolution phonétique تضعف من تصور هذه الكلمات مجرد محاكاة لأصوات طبيعية(٤) ·

---

(١) قال فندريس فى كتابه اللغة : « ان مسألة أصل الكلام ليست من مسائل علم اللغة » ، ص ٢٩ · ومنذ قال ذلك يحاول كثير من المحدثين العزوف عن علاجها ، لأنها تضرب فى طرق مسدودة كما يشعرون ·

(٢) الخصائص : جـ ١ ، ص ٤٧ ·

(٣) أعرض الاعتراضين ملخصا ، حتى لا تعوق الأمثلة والاصطلاحات السياق الذى نحن فيه · انظر :

Saussure : Cours de linguistique gén., pp. 101 - 102.

(٤) لعل فكرة دى سوسير عن وظيفة الأنوماتوبيا المحدودة هى التى تجعل بول زيف يقول : « ان الأونوماتوبيا ليست بذات أهمية كبيرة » ثم يشرع فى تكرار يشبه أقوال دى سوسير

Paul Ziff : Semantic Analysis, p. 25, New York 1967.

الاعتراض الثانى : وهو خاص بالصيحات الانفعالية Exclamations وهى قريبة الشبه جدا بالأونو ماتوبيا ، ولكنها تثير اعتراضات أشد صلابة على نظرية جزافية اختيار العلامات الصوتية . فهى تعبيرات حقيقية تمليهـا الطبيعة — ومع أننا لا ننكر وجـود ارتباط ضرورى بين الدلالة والدالـة "Le signifié et le signifiant" فان المقارنة بين هذه الصيحات فى لغتين تدل على التفاوت التى تعبر به كل منهما على المواقف نفسها .

هذان موقفان يوضحهما واحـد من الذين تركوا أعمق الأثار فى كل المباحث اللغوية الحديثة . وهما ينبعان من فكرة وجود صلة الدوال اللغوية بالدلالات ، أو من فكرة أن « اللغات محاكاة لأصوات المسموعات » ومن فكرة تعبير جزء من المعجم اللغوى عن الجوانب الانفعالية للانسان . ان الصيحات قد تطورت بلا شك وانتقلت من مجال الى مجال . ومع هذه الاعتراضات فاننا نجد — على سبيل المثال — Beals & Hoijer يقولان فى كتابهما الـكبير عن الانثروبولوجيا : « أغلب الظن أن اللغة نشـأت عن نظـام « مجموعـات الصيحات » التى تحاكى ما عند الحيوانات الراقية ، فهناك صيحة للطعام ، وصيحة للخطر .. »(١) وكأن الفلسفة اللغوية التى تحاول ربط نشأتها الى عجلة الجوانب الانفعالية عند الانسان ما زالت راجحـة . ومهما اشـتدت الجوانب الموضوعية فى الأبحاث اللغوية ، فان الجانب الذاتى ، أو الانفعالى سيبقى واضحا . « ان الانسان لا يتكلم ليصوغ أفكارا فحسب ، بل يتكلم أيضا ليؤثر فى أفعاله وليعبر عن حساسيته .. الانسان لا يستخدم اللغة ليعبر عن شيء فحسب ، بل للتعبير عن نفسه أيضا .. يجب أن نميز فى كل لغة بين ما يمدنا به تحليل التصورات وبين ما يضيفه المتكلم من عنده : بين العنصر المنطقى والعنصر الانفعالى »(٢) . يستحيل اذن أن نتوقع غياب الجانب الذاتى — الانفعالى فى اللغة ، ومن ثمة يصبح طرح سؤال عن ارتباط

---

(١) R. Beals & H. Hoijer, An Introduction to Anthropology p. 615, (éd 1969).
وفى نفس المجال يمكن الرجوع الى « علم اللغة » الدكتور السعران من ص ٦٠ الى ص ٦٦

(٢) هذه جمل منتهبة من كلام فندريس فى « اللغة » : ص ١٨٢ — ١٨٣

اللغة فى أصلها البعيد بمثل ذلك الخيط المستمر معها طوال عصورها سؤالا لا يجانب المنطق العلمى . واذا كانت أبحاث المحدثين لا تكف عن تقليب علاقات الانسان بلغته ، بغيــة كشف الدلالات ، الخفية قبل الظــاهرة ، فان قدماءنا قد لمسوا بقوة ماذا تعنى الألفاظ حين لا تفهم فى سياق المقام الذى وضعت فيه ، ومن ثمة كان جهاد أهل الأصول واضحا عندما جهدوا أنفسهم لاستخلاص محمول العبارات في جوهر « الوجود اللغوى » . « ألا ترى الى قوة تنازع أهل الشريعة فى اللغة ، وكثرة الخلاف فى مباديها ، ولا تقطع فيها بيقين ، ولا من الواضع لها ، ولا كيف وجه الحكمة فى كثير مما أريناه آنفا من حالها »(١) . لا سبيل لقبول هذه الخلافات وذلك التردد الا عند غياب فكر فلسفى ينسبها الى ما « وراء اللغة » Meta Linguistique أو الى ميتافيزيقيتها .

لو أن الفكر اللغوى استبان العلاقة بين الرمز والمعنى لهان كثير من التردد . وستبقى فكرة محاكاة بعض كلماتنا لأصوات الطبيعة أو لصيحاتنا الانفعالية دربا ربما يقودنا لتطابق - أو لشبه تطابق - فيما بين الرمــوز والمقولة العامة المتعلقة بالوجود . لقد أصبح علم اللغة المعاصر يأخــذ بأن العلاقة بين الأسماء ومسمياتها علاقة اصطلاحية أو اختيارية . ولا شك فى أن ذلك تفسير عقلى تحاول به المناهج الحديثة اسقاط منجزاتها على ما فات من نظرنا . ولو أن فكرة « الطبيعة » رجحت كفتها لكان فيها ثراء !؟ ومن الغريب أن مرجحاتنا الحديثة لقاعدة الاصطلاح والاختيار تستند الى « جهلنا » بالأصول البعيدة أو لغياب تلك الأصول . ومن الغريب أنه منذ أكثر من ألف عام طرح سيبويه الاحتمال نفسه : « قد يمكن أن تكون أسباب التسمية تخفى علينا لبعدهــا فى الزمان عنا ، ثم ألا ترى الى قوله «..أو لعل الأول وصل اليه علم لم يصل الى الآخر » يعنى أن يكون الأول الحاضر شــاهد الحال ، فعرف السبب الذى له ومن أجله ما وقعت عليه التسمية ، والآخر -

---

(١) الخصائص : ج ١ ، ص ٥٣

لبعده عن الحال — لم يعرف السبب للتسمية »(١) . هلا يمكن أن تكون اشارة سيبويه وتفسيرها رجوعا الى أصل أسطورى بعيد تختلط فيه التسمية بالاسم ؟ أو لم تكن محاولات القائلين بتوقيفية اللغة حلا ميتافيزيقيا لميتافيزيقية اللغة ! وحين يرفض أهل السنة مع ميلهم للأخذ بتوقيفية اللغة — رأى فريق من أهل الاعتزال عن أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع ، ألا يرتد موقف أهل السنة أساسا الى اشفاقهم من تطبيقات مقولات الفلاسفة فيما يخص وحدة الوجود !

ثم ، أين نضع اعتقادهم فيما يخص وحدة الوجود ؟

يقول الرازى : « العرب تقيم سبب الشىء مقام الشىء ، وتسميه باسمه ، والقرآن نزل بمذاهب العرب . فلما كان أمر الله عز وجل سبب كل شىء ، وبأمر الله كانت الأشياء كلها سماها أمرا »(٢) . والسياق اللغوى لكل أوامر الله — سبحانه — هو الكلمة وليست بعيدة عن تلك التى كانت فى بداية الانجيل : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله هذا كان فى البدء عند الله . كل شىء به كان ، وبغيره لم يكن شىء مما كان »(٣) . وتلك مقولة المسيح كما نسبت اليه ، والموقف اللغوى هنا واضح الدلالة الى أن كلمة الله : « كن » هى ما تقابل كلمة « الأمر » الذى يستتبع رد فعل من الكون . والى هذا المنحى قال بعض فقهاء اللغة . فان أبا حاتم الرازى أراد تفسير الأمر بأنه « الكلمة » فعنده أنها من الآية الكريمة : « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » . وعقد الصلة بين صدر الآية : « الأمر » وبين عجزها « كن » ، واضح غير خفى . وعنده كذلك أن صلة الأمر بالكلمة مستمدة من قوله : « ألا له الخلق والأمر » فالأمر كون (مشددة العين) به الله الأشياء كلها . وعنده أن العرب سموا المطر سماء ، لأنه من السماء ، ولأن السماء سبب للمطر . وبذا نصل الى ما يشبه « الدور » ، أى أن سبب الشىء يقوم مقام الشىء . وهذا منهج نهجه العرب فى كثير من عباراتهم .

---

(١) المصدر السابق : ص ٦٦

(٢) الزينة ، جـ ١ ص ١٣٢

(٣) انجيل يوحنا : ١ : ٣

فحين يقول القرآن : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (النساء آية ٨٠) أو حين يقول : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله » (الفتح آية ١٠) فكأن الله قد أقام الرسول مقام نفسه ، لأن الرسول سبب لله ، ومن تعلق به فقد تعلق بالله · هو حبله · وحين نجمع أطراف العبارات : ما بين الأمر والكلمة والاحداث فان « وحدة للوجود » تتحقق ، ويضيع ذلك الفهم القاصر لوظيفة « الكلمة » فى العبارات السابقة · انها معنا — هنا — تعنى الالتحام الكامل بين الارادة والخلق ، بين ارادة الفعل والفعل ذاته ·

ثم ، أليس ذلك موقف التجميع بين الجانب الواقعى والجانب الميتافيزيقى ؟ أليست الكلمة هنا قائمة مقام ما وراء اللغة ، أو ميتافيزيقيتها ؟

الكلمة : هى الأمر ، هى الارادة · وكم اختلطت بالمنطق الأسطورى ! وحتى لا يضيع منا الخيط آخذ ما قاله العتبى فيما نقله عنه أبو حاتم السجستانى وسجله ابن دريد فى كتابه الكبير الاشتقاق : « أخبرنا أبو حاتم سهل بن محمد السجستانى ، قال : قيل للعتبى : ما بال العرب سمت أبناءها بالأسماء المستبشعة وسمت عبيدها بالأسماء المستحسنة ، فقال لانها سمت أبناءها لأعدائها ، وسمت عبيدها لأنفسها »(١) أليست هى العادة النفسية القديمة التى تفترض صلة ثابتة بين الاسم والمسمى ، أو على الأقل صارت تفترض « وهما » أسطوريا يربط بينهما · العرب يرون أن تكون الأسماء مثل : صخر — حجر — نمر — ذئب ·· مما يمنحونه لأبنائهم ، حتى تحدث الأسماء تأثيرها :

الأول فى الأبناء حين يشبون وقد علقت صفات أسمائهم بأذهانهم فاكتسبوا بعضها ·· صلابة أو شراسة أو اصرارا ··

الثانى فى الاعداء حين ينزل بهم الخوف توجسا من صفات الخصوم المنتمية لأسمائهم ·

---

(١) الاشتقاق · ص ٤

وكما تقع الاسماء المستبشعة على الابناء وعلى الأعداء ، فان أسماء العبيد مثل : يسر ويمن وسعد تتحدث بدورها عن رجع التفاؤل الذى يعتمل فى نفوس السادة حين يستبشرون بعبدهم يمنا أو يسرا ، بل ربما يحرك الاسم العبد نفسه فيحقق لآله بعض ما علق بقلوبهم من البشارة ·

واذا كانت فرصة تحويل بعض هذه « الأوهام » الى واقع تبقى مرتبطة بالقدرة الفعلية التى تكون للأبناء ، كأن يكون بطلا مغوارا ، أو تكون للعبيد كأن يكون مصدر خير ، فان فلسفة اختيار الأسماء تتفق مع الواقع الوجدانى الذى يرى الاسم – أو الصفة – مرشحة للرؤية العقلية · وتاريخ اللغات كلها يعج بما نفسره بالتفاؤل أو بالتشاؤم ، ولا مدرج لهما الا فى نطاق الحس الذى يراودنا من الواقع النفسى أو من لحظة الحضور النفسى · انها لحظة استغراق تمتزج فيها الروح مع البناء اللغوى امتزاجا كاملا ، ويصبح اللفظ حاملا للطاقة الانفعالية أو للموجة المتحركة بالأعماق عند بدء الاهتزاز · وحتى خير البشر ادراكا لتعلق مصائر الناس بأعمالهم كانت له المواقف المماثلة لما نحن به · من ذلك ما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن قوما من العرب أتوه فقال لهم : من أنتم ؟ فقالوا : نحن بنو غيان ، فقال بل أنتم بنو رشدان »(١) ·

ولقد ثار جدل طويل بين المفسرين حول الآية الكريمة : (ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين · قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم · قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » · (البقرة آية ٣١ : ٣٣) · وأيا ما كان خلاف المفسرين حول توقيفية اللغة أو اصطلاحيتها ، فالآية تنم فى وقعها الأول على

---

(١) الخصائص : جـ ١ . ص ٢٥٠

وان لم يتفوه الرسول بذلك · وأغلب الظن أن اشـــارة الرسول هى ضرب من الدعاء المقـوم

وان لم يتفوه الرسول بذلك · وأغلب الظن أن اشارة الرسول هى ضرب من الدعاء

بالرشاد بدلا من الغى · وليست من منهج ما قاله ابن جنى ·

فضيلة آدم . تلك اكتسبها بعلمه للأسماء . ومن ثم كانت كلمة الله لهم من بعد . ان اسجدوا لآدم . الفضل اذن مستمد من معرفة أسماء الأشياء . لأن كل شيء يعرف باسمه ويستدل عليه بصفته « والصفة تقوم مقام الاسم ، وتكون خلفا منه . والله عز وجل يعرف بأسمائه وينعت بصفاته »(٢) .

ان التداخل الذي يحدثه أصحاب النظر اللغوى فيما بين الاسم والصفة، هو صورة منطقية من التداخل الذى أحدثه الأسلاف بين الاسم والمسمى فى صورة فطرية . ولهذا لا نعدم ان نجد فرقاء من اللغويين يجهدون أنفسهم لايقاع التباين بينهما ، فأحيانا ينجحون واحيانا يخسرون . ولن يصعب أن نحرك « الاستعارة » لتوضع على نفس المحك . واذا قلنا ان الاستخدامات الاستعارية انتقال بالاصول الحقيقية الى افق « ميتافيزيقى » أو الى أفق سحرى حادث مع الاثارة الوجدانيه المبدعة مع كل عبارة تخييلية . فان ذلك الانتقال لن يظهر الا حين نلغى اللحظة الزمنية التى آثرنا فيها الاستخدام الاستعارى وعدنا بالالفاظ الى مهد تاريخى معين . وعنده نرى الأصل الحقيقى أو الحسى .

أليس من الحق ان نقول ان كل الجوانب الروحية بالانسان لن نمنحها حقها من الادراك الا حين نحسن فهم الوظيفة اللغوية ؟ ألا نرد اليها موقفه من السحر ومن الأساطير ومن التفاؤل والتشاؤم بل ومن الدين ! ومع الاشفاق من استعجال الرمى بجمرات « الاستاتيكية » عند ايثار حركة السيولة الديناميكية فلن نأنف من تطبيق المنهج على الكلمات ثم على الجمل والعبارات . فاللغة قدر الانسان . ولن نقدر على درسها الا حين نتأنى فى تحليلاتها : « من الممكن أن تقارن اللغة بصحيفة من الورق . الفكر يحتل وجها ، والصوت

---

(٢) الزينة جـ ١ ص ١٣٢

يمثل الوجه الآخر ، ولن نستطيع أن نعزل الفكر عن الصوت ولا الصوت عن الفكر . فلن نصل الى ذلك الا بنوع من التجريد ينتهى بنا الى دراسة سيكولوجية والى دراسة فنولوجية »(١) .

الصواب أن ندرسها متكاملة لأنها ، بوجهيها ، تأخذ من صفحة القلب وصفحة العقل . لقد كان ذاك هو الذى وقف المشركين عاجزين عجزهم التام امام بيان القرآن الكريم ، ومعجزته اللغوية الخالصة .

---

(١) F. De Saussure. Cours p. 157.

التوهم والحروف
أو
النظر السحرى والنظر العقلى

حاول أحباب اللغة ، فى نقائها كما تصوره ، جعل المعانى والالفاظ فى قماط واحد . ولكن أنى لهم ، وعلماء الاصول والفلاسفة يفتشون ! وفى حديثه عن المفرد يسجل أبو الحسن بن على صاحب كتاب « الاحكام فى أصول الأحكام » أن المفرد هو « ما دل بالوضع على معنى لا جزء له ، يدل على شيء أصلا ، كلفظ الانسان فان « ان » من قولنا « انسان » ، وحيث كانت جزءا من لفظ الانسان ، لم تكن شرطية ، لأن دلالات الالفاظ ليست لذواتها بل هى تابعة لقصد المتكلم وارادته . ونعلم أن المتكلم حيث جعل « ان » شرطية لم يقصد جعلها غير شرطية »(١) .

هذا كلام ينقض بدعة الثنائية ، والنقض قائم بفعل النظر العقلى . ومع ذلك فهو يفيد أن اللفظة تعنى المعنى الذى استقلت به منذ وضعها الانسان . ومن العبث أن نبحث عن دلالة مستقلة لأى من أجزائها ، حتى وان لاح للسامع أو للقارىء وكأن بعضا منها يحمل دلالة مستقلة . ورفض المعنى صادر من موقف المتكلم وقصده بحكم استهدافه للمعنى الكلى . وهو بدوره فى طريق ينتوى على التصور « السحرى » الذى كنا بصدده منذ قليل .

نظريات « النظم » و « البيان » تنضج مع مرحلة « الرؤية بالقلب » و « النظر بالعقل » ، ومن تماسهما لا تصعب رؤية الامتزاج بين الجانبين :

---

(١) الاحكام فى أصول الاحكام ص ١٨

ما نسمه بالغيبية وما نسمه بالعقلانية · ومن عند أحد اللغويين(١) ، آخذ فصلا يدافع فيه بحرارة شابة عن لغة العرب(٢) ،ويفضلها على اللغات الثلاث التى نزلت بها كتب دينية وهى : العبرانية والسريانية والفارسية (هكذا)· ومن مجرد المقارنة تبدو نظرته اللغوية حين ينسب فضلا الى تلك اللغات لأن بها كان كلام « الدين » · وكأن الفكرة غير بعيدة عن روح الأسطورة ، وكأن الدين مما يلهمه التفكير بمثل تلك الروح · وحين يعالج المؤلف الحروف التى عليها بنيت الصيغ يقسمها الى قسمين :

١ — حروف محدثة ، وهى التى يتكلم بها بغير كلام الله ·

٢ — الحروف التى يتكلم الله بها ، وهى غير منعوته بالاحداث(٣) ·

ومثل هذا التقسيم محاولة لرد المعرفة الالهيـة للذات · فهى متفردة بنمط متميز من الحروف ، نمط يبقى وكأنه فى لوح محفـوظ « كان أول ما توهم الله عز وجل — شيئا متوهما ، وأراد مرادا ، وشاء مشيئا ، فكان توهمه ومشيئته وارادته للحروف ، التى جعلها — عز وجل — أصلا لكل شىء ودليلا على كل مدرك وفاصلا لكل مشكل · فمن تلك الحروف يعرف كل شىء : من اسم حق ، أو اسم باطل ، أو فعل ، أو فاعل ، أو مفعول ، أو معنى أو غير معنى · وعليها اجتمعت الأمور كلها · ولم يجعل للحروف عند توهمه لها شيئا غير أنفسها بتناه ولا وجود · لأنها متوهمة بالتوهم · والتوهم فى هذا الموضع أول فعل الله — عز وجل — الذى هو نور السماوات والأرض · والحروف هى مفعولة لذلك الفعـل ، وهى الحروف التى عليهـا بنى الكلام كله »(٤) ·

---

(١) هو أبو حاتم الرازى مؤلف الزينة ، وقد مات أو قتل عام ٣٢٢ هـ ·
انظر المقدمة التى كتبها المرحوم حسين بن فيض الله الهمدانى للكتاب . وخاصة ص ١٠ وما بها من مراجع عن مؤلف الكتاب ·

(٢) انظر الفصل المذكور فى ص ٦٦ من الزينة ·

(٣) الزينة . جـ ١ . ص ٦٧

(٤) المصدر نفسه . ص ٦٦

أبو حاتم فى نصه السابق يدفع تصوره للحروف الى حومة المثالية الايجابية وكأنه يريد تفسير أحداثها بما يفارق طبيعتها . والنطاق اللغوى هنا مضروب حول منهجه بسبب أن حروف اللغة هى مصدر المعرفة لكل شىء ، بها يعرف الخير والشر والصحيح والباطل . وبها أيضا تعرف كل المقولات . وما دامت الحروف محدثة ، فلا بد أن تمر بمراحل خلق . ولذلك حدد المراحل بثلاث : الخلق الأول هو التوهم ، ولا وزن له ولا لون ولا حركة ، والمتوهم لا يسمع ولا يحس . وكأنه ضرب من المثالية يتخيله صاحبنا .

الخلق الثانى وهو الحروف ، وهى مسموعة بالأذان موصوفة بالألسن ، ولكنها غير منظور اليها ، لأنه لا وزن لها ولا لون .

وأما الخلق الثالث فهو ما يقابل الواقع المادى أو المحسوس ، أو هو « كل ما كان بالحروف موصوفا فى الأنواع كلها ، وهو ملموس محسوس ذو وزن منظور اليه » .

الوجود اذن سابق للادراك البشرى ، لأن الله يحدث الحروف لاحتياز المدركات . وحتى لا نحمل الرازى اشارات معينة يمكن أن تستقى من حديثه عن التوهم ننقل عنه ما يقوله : « الله — عز وجل — سابق للتوهم ، لأنه ليس قبله شىء ولا كان معه شىء » . ثم يضيف : « والتوهم سابق للحروف ، والحروف محدثة »(١) .

وما كان يمكن أن يذيع ذلك الا ان تبنى فلسفة فصل الاسم عن المسمى، وفصل الصفة عن الموصوف ، وفصل الحد عن المحدود . ونحن لا نستبعد أن تكون الدعوى غير بعيدة عن آراء « أصحاب الرأى » الذين آثروا فصل « الصفات » عن الذات العلية حين اتجه التفسير والجدال الكلامى الى الأخذ بـ « المعقول » بدلا من « المنقول » . لقد كانت الآراء حول صفات الله عازلة بين الفريقين . ذلك حين تصور بعضهم ربط الصفة بالموصوف ، وتصور بعض آخر وضع الصفات فى مجال المجازات . وذلك نفس الشىء الذى يرمى

(١) المصدر السابق ، ص ٦٧

به أبو حاتم الرازى . فالحروف التى يتكلم الله بها غير منعونة بالأحداث · وأما الحروف التى يتكلم بها بغير كلام الله فهى المحدثة · وسر ذلك أن الأولى منه ، وانه لا يحدث فيه شيء ، وانما يحدث ما سواه · ومن ثمـــة فالمخـلوقات : السماء والارض ، والبر والبحر ، والجن والانس ··· حادثة بفعل الحروف . « ما جمعته الحروف أو مزقته فهو مفعول بالحروف » · ان الحروف هى التى تمكننا من حيازة المدركات ، ولا مدرك الا ما يدرك بالحروف ! وحتى حينمـا تحتاز بعض الاسماء أو بعض الصفات ، فانها تبقى كحروف مقطعة محـدودة الافق الى أن تجتمع على غير أنفسها · ولا شك فى أنه حين يصل التفكير بنا الى هذا المربط ، فاننا أمام مرحلة أخرى من نمو الاحساس اللغوى · لم تعد الحروف المحدثة وحدها هى فرس الميدان ، ولكن هناك « محدثات » التأليف : « الاسماء والصفات انما هى حروف مقطعة قائمة برؤوسها ، لا تدل على غير أنفسها ما دامت متفرقة ، فاذا جمعت دلت باجتماعها على غير أنفسها » · ان النفى الذى تؤكده العبارة هو سعى وراء استخلاص الدلالة ، لأن الله سبحانه لا يجمع الحروف فيؤلفها الا لمعنى · وعلى ذلك فتوهم الخـــالق غـــير توهم المخلوقين ، لأن توهم الخالق للشيء يعنى « أنه أبدعه قبل أن أظهر صورته » ، والمصطلح يساوى : أراد الشيء وشاءه ودبره · وأما توهم المخلوقين فانه يكون بالفكر والروية والقلب ·

الحروف هى الطريق الى المعرفة ، تلك خلاصة الرأى ، ثم هنالك حروف التوهم المبدع الذى أوجـد حروف الـكلام ، وهنالك حروف توهم المخلوقين الذين يستحدثون عن فكر وروية · وحين يجتمع الطرفان فلن نكون بعيدين عن الجانب السحرى والجانب العلمى الذى مر بنا ·

* * *

الايقاع والدوال :

اذا كانت الأبحاث حول الحروف لم تنشأ — تاريخيا — الا بعد آلاف السنين بقى الانسان فيها حبيس النطق والسماع ، فان اثارة قضيتها هى بدورها موجة من موجات العقل الذى لم تكف تقليباته عن كشف الجانب الانفعالى فى اللغة · وحين ينشط جيل من رجالها لتحليل « أجسادها » فالحق أنهم يسعون الى معرفة « روحها » ، وهى نفس النظرة التى كانت حين تصور من قبلهم أن النطق جسد الكلام وأن المعنى هو الروح · والصورة مستمدة منذ كانت الطقوس فى حياة الانسان ، ومنذ بدأ الشعر ، بصلصلته ، يوقظ الخيال ، بل ويضع العقل أمام مرحلة جديدة من مراحل استخداماته اللغوية ، فيها الانفعال وفيها آثار التفاعلات والنزعات · « فى كل الشعر تقريبا نجد أن جرس الألفاظ وبنيتها — أى ما نسميه عادة بشكل القصيدة ، مفرقين بينه وبين محتواها — هما اللذان يبدوان فى التأثير · وعملية التأثير هذه تعمل بدورها بطريق غير مباشر فى المعانى التى تفهم من الألفاظ · بل ان المدلول المباشر لمعظم الألفاظ وخاصة فى الشعر مدلول مفعم بالالتباس ، فنحن نستطيع أن نفهم منها متى شئنا مدلولات شتى · والمدلول الذى نشاء أن نختاره هو المدلول الذى يوافق الدوافع التى ولدها « شكل » الشعر فينا »(١) · اختيار الشاعر لالفاظه لا تبرر له الا من خلال تصورنا لوقع الألفاظ مع ايقاع عواطفه · ومهما كانت التحاليل ، ومهما قدمت علوم النفس من كشوف للحوافز ، فان كل شىء سيظل يلهث وراء السر ، ووراء جانب غيبى أو سحرى لم يستطع العلم أن يفسره ، وأحسب أن أجيالا كثيرة ستشهد التخبط فى متاهات النفس ، فهى وان روعها الجانب العلمى ، أو التقدم التكنولوجى ، ستبقى محتاجة أبدا الى ذلك الطيف الخيالى الذى تستروح معه من المعاناة · وسيبقى الايقاع الشعرى محدثا أثره بفضل صلات تبدو — واضحة — وان اختفت أحيانا أمام النظر العاجل — بين الألفاظ ومعانيها · وكيان الشعر فى وزنه ، والوزن نوع من المحاكاة ، أو نوع من الاحساس

---

(١) ريتشاردز : العلم والشعر ، ترجمة د· مصطفى بدوى — ص ٢٦

الفطرى لا مرد له الا نحو دائرة الأنغام الساحرة : « واجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة حسنة ، مجتلبة لمحبـــة السـامع له والناظر بعقله اليه ، مستدعية لعشق المتأمل فى محاسنـه ، والمتفرس فى بدائعه ، فيحسه جسما ويحققه روحا ، أى يتقنه لفظا ويبدعه معنى ، ويجتنب اخراجه على ضد هذه الصفة فيكسوه قبحا ويبرزه مسخا ، بل يسوى أعضاءه وزنا ويعدل أجزاءه تاليفا ويحسن صورته اصابة ، ويكثر رونقه اختصارا ويكرم عنصره صدقا ·· ويعلم أنه ثمرة لبه وصورة علمه والحـــاكم عليه أو له »(١) · وحين نتخطى الملاحظات البلاغية ، عن الجمال والايجاز وما اليها، فانه يبقى أمامنا التنبيه على النظر العقلى الذى لن يكون الا بتحقيق الشـعر روحا والاحساس به جسما · أى تحقيق الدلالة المستندة الى الصياغة أو الى الايقاع ·

أليس ذلك تحويرا لصلة الألفاظ بدلالاتها أو لوحى من الصياغات نحو معانيها ؟ ولن يتم فهمنا لذلك الا بعد أن يستقر الذهن على فلسفـــة لغوية لا تفصل الاستخدام عن الطبع ، فهما يتساندان مساندة كاملة ويتكاملان · ولعل ذلك هو ما يفسر الاحساس بضياع المجهود الذى يبـــذله كثيرون من أساتذة اللغات حين لا تثمر أعوام طويلة من التدريس فتخلق رهافة الحس اللغوى عند الطلبة والطالبات وسر ذلك اختلاف الطبائع ، وبحكم أن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ·

الرمز اللغوى :

حين يطرح السؤال ما الرمز ؟ نأخذ اجابة لتحدده « الرمز علامة تنهض بدلا من أى شيء آخر · هو دائما بدل أو « مقابل » من علامة أخرى يضـــع معها « مترادفات » · وكل العلامات التى ليست رموزا هى اشارات ، وكـل العلامات التى ليست اشـــارات رموز · ان الجهـــد الأساسى للتفكير هو : تحويل تجربة الى رمز · فلا شيء يعصى على أن نحـــوله للتدليل على شيء

---

(١) عيار الشعر ، ص ١٣١ ـ ١٣٢

آخر »(١) . كان الاتجاه المحدث فى تناول اللغة هو ما نراه من تحويل ألفاظها الى مثابة رموز .

والفكرة الرئيسية التى وراء ذلك نابعة من ابتعاد الفكرة الأسطورية التى كانت تربط اللفظ ربطا مباشرا بدلالته .

وحين تداعت تلك النظرة ، وحين استطاع التعامل الموضوعى مع الالفاظ أن يحرك الالفاظ مع مداراتها ، صار اللفظ الى « الرمزية » ، قادرا على أن يحرك دلالات أخرى غير تلك التى هو دالتها . ويمكن القول عامة ان « المتكون الصوتى » ، هو المحرك للدلالة « المستدعاة » من مكمنها فى الذهن مع المتحدث والسامع ومع الكاتب والقارىء .

وتنصرف الأبحاث التى تدور حول « الرموز اللغوية » ، الى اعتبارها اشارات عقلية engrams يمكن نطقها ، وتعمل كما يعمل أى رمز آخر أو علامة فعنية(٢) .

ولم يفت هذا الاتجاه أن الرموز يمكن أن تنطوى على غير اللغة المنطوقة والمسموعة . ولذلك نستكمل وظيفة الرموز . يقول أولمان : « كثيرا ما حللت العملية الرمزية ، وخاصة عند السلوكيين » .

وليس بضرورى أن نتتبع تفصيلاتهم . وتجربة بافلوف الشهيرة عن رد الفعل الشرطى عند الكلاب تؤكد أن الفعل ورد الفعل والتجربة تقدم صورة عامة عن آلية العمل .

« ان الرموز اللغوية أجزاء من تجارب أوسع ، وهى تحوى ذات الأشياء المشار اليها . فكلمة « مائدة » على سبيل المثال — هى جزء من موقف يكون فيه لنشىء المومأ اليه حضور مماثل »(٣) .

واذا كانت الرموز هى الحوافز التى تحرك الصور الذهنية ، ومن ثمة تنشط الأفعال لتحقيقها ، فليس من الضورى أن يحضر الرمز فى المساق السمعى ، وليس من الصعب أن تقوم الاشارات البصرية أو العلامات الحسية

(١) Simeon Potter, Language in the Mod. World. 48.

(٢) Ullmann, The principles of Semantics, p. 28.

(٣) المصدر السابق .

بالوظيفة نفسها ، ولكن الفرق الأساسى بين الرموز عامة ، والرمز اللغوى ، هو اعتماد الآخر على الطابع الصوتى والسمعى · ولعل ذلك هو الذى جعل « أوجدن وريتشاردز » فى كتابهما (معنى المعنى) يحولان الفكرة فى عبارات أكثر مرونة · « حينما نعالج الانواع المختلفةلأوضاع العلامات التى يستخدمها الناس فى اتصالاتهم وكوسائل للتفكير ، فاننا نتحقق من أن تلك العلامات تحتل منزلة خاصة · ومن المفيد أن نجمعهـــا تحت اسم مميز ونختـــار لها الرموز · وهى التى تؤثر على حياة الناس وأفكـــارهم فى مجالات لا حصر لها »(١) ·

وهذا الالحاح على أثر الرمز فى حياتنا هو صـــورة أخرى من صـــور الادراك لنهج من مناهج تحصيل المعرفة · ذلك أن الحديث وهو التحقيق الفعلى للغة ، تحريك لجهد عضلى فى أقرب صوره المادية ، ثم هو تحريك لمضمون غيبى أو حضورى عقلى فى أبعد صوره · وأنا أشعر بأثر من آثار قدمائنـــا واضحا مشرقا حين أقرأ لاخوان الصفا قولهم : « ان المنطق مشتق من نطق ، ينطق نطقا ، والنطق فعل من أفعال النفس الانسانية · وهذا الفعل نوعان: فكرى ولفظى ، فالنطق اللفظى هو أمر جسمانى محسوس ، والنطق الفكرى أمر روحانى معقول ، وذلك أن النطق اللفظى انما هو أصوات مسموعة لهـــا هجاء ، وهى تظهر من اللسان الذى هو عضو من الجسد ، وتمر الى السامع من الآذان التى هى أعضاء من أجساد أخرى وأن النظر فى هذا النطق والبحث عنه والكلام عن كيفية تصاريفه وما يدل عليه من المعانى يسمى : علم المنطق اللغوى »(٢) ·

وحتى نقطة اقتباسنا كان اهتمام الاخوان هو بالفعل المحقق بالتركيب الصوتى سواء تم أداؤه باللسان واستقباله بالأذن ، أو شرع الذهن يستحضره ثم ضن به ولم ينطقه · والى أن يتم لجهاز النطق ولجهاز السمع تبادل المـــادة المنطوقة ، فنحن بعيدون عن علم المنطق اللغوى — كما حدده اخوان الصفا — والطابع الحسى واضح عندهم ، وتلك هى فكرة اليونان منذ قالوا : « الألفاظ

(١) Ogden & Richards, The Meaning of meaning, P. 23.

(٢) اخوان الصفا : رسائلهم · ص ٣٩١ طبعة دار صادر · بيروت — ١٩٥٧

أبدان للأرواح التى هى المعانى » · ولا خير فى أن تتزيا الفكرة بأزياء مختلفة: من بين الأرواح الى المخدوم الشريف الى الكيان الالهى ··· ··· وكما يكون الحد اللفظى تحديدا للمنطق اللغوى ، فهناك مقابلة المنطق الفكرى · « أما المنطق الفكرى الذى هو أمر روحانى معقول فهو تصور النفس معانى الأشياء فى ذاتها ، ورؤيتها لرسوم المحسوسات فى جوهرها وتمييزها لها فى فكرتها فبهذا النطق يحد الانسان فيقال : انه حى ناطق مائت · فنطق الانسان وحياته من قبل النفس وموته من قبل الجسد ، لأن اسم الانسان انما هو واقع على النفس والجسد جميعا »(١) ·

ذلك هو المستوى الثانى من مستويات اللغة عندهم ، وفيه ضوء مع المنطق الفكرى ، المنطق المعقول · ولن نستشعر الانسان الا اذا استشعرنا وجوده الروحانى والجسمانى ، وكذلك اللغة ، لن نستشعرها الا اذا استشعرنا منطقها الحسى - ألفاظها - منطقها الروحانى - معانى الأشياء فى ذاتها ·

ثم نأتى الى المستوى الثالث من تفكيرهم اللغوى ، ونعنى به الربط بين النطق اللفظى المحسوس وتصور النفس معانى الأشياء · « واعلم أن النظر فى هذا المنطق الفكرى والبحث عنه ومعرفة كيفية النفس معانى الموجودات فى ذاتها بطريق الحواس ، وكيفية ادراك انقداح المعانى فى فكرها من جهة الفعل الذى يسمى « الوحى والالهام » وعبارتها عنها بألفاظ بأية لغة كانت ، يسمى علم المنطق الفلسفى »(٢) ·

هذه ثلاثة مستويات اذن يأخذ بها اخوان الصفا عند موقف الانسان من اللغة · أولها : التحقيق المحسوس عن طريق الأصوات ، وذاك حد المنطق اللغوى · وثانيها : التحقيق الادراكى للموجودات عن طريق الفكر ، وذاك المنطق الفكرى · وثالثها : ادراك عملية انقداح المعانى فى الفكر بعد سماع الأصوات ، وذاك المنطق الفلسفى(٢) ·

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩٢

(٢) الموضع السابق ·

وأهم ما نحرص على ابرازه هنا هو : الايحاء الواضح بفكرة الرمزية القادرة من خلال المرحلة الأولى للنفاذ الى المرحلتين التاليتين ٠

واذا كان مثل هذا التقسيم قد يبدو أمامنا منافيا لطبيعة اللغــة التى تأتينا دائما متحدة المستويات ، فان منهج التحليل هو القادر على أن يضىء المسار حتى نرى كيف تتم للانسان تلك العملية الرائعة التى هى عند كل خير فى حياته ٠ فاللغــة طريق واضح للمعرفة ٠ وبها تدرك النفس معانى الموجودات ٠

جنوح نحو المثالية

اذا كان المنهج التحليلي ، الذي وقف مع الالفاظ يحاول أن ينفذ الى سر بنائها سواء في ذاتها أو في اتصالها بالمحيط لم يستأثر وحده بالاهتمام ، فلأن دربا آخر كان يجاوره ويجد فيه مرتاده الارض الين موطنا من مثل ما صنعه مذهب الاشتقاق الاكبر او التصاقب اللفظي او الاحساس المعنوي . ولعل أوضح مراحل النهج الثاني الذي نقف معه كان استمرارا لما ذهب اليه أفلاطون من أن الرسم والموسيقى محاكاة للطبيعة ، وأن الحروف التي منها الكلمات هي وشائج تصطنعها اللغة لمحاكاة ما تريد أن تدركه . ثم سجل أرسطو رأيه في الأمر واضحا ، وفصل بين مرحلتين من مراحل اللغة ، المنطوقة والمكتوبة . فعنده أن الكلمات التي ننطقها رموز لحالات تعيشها النفس ، ثم عنده أيضا ، أن الكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة(١) . ولا شك في أن المأخذ الذي يأخذ به أرسطو دلائل اللغة يعتبر محورا أساسيا تدور حوله فلسفات لغوية معاصرة ، حتى وان اختلفت في تحليل تفاصيله . فكل ألفاظنا هي رموز نحاول بها اثارة مدركات خارجية أو داخلية ، واثارتها منبعثة أبدا من الحالات النفسية التي نعيشها : وكأن كل تعبير عن النفس هو جهد لتحميل الدلائل اللغوية بعض ما في النفس ، ان لم يكن كله . ولن يبتعد بنا ذلك كثيرا عن فلسفة الفن عامة التي قال بها المعلم الأول ، حين ألح على الدور التطهيري الذي يقوم به الأداء الفني . وحين أراد أرسطو الحديث عن الكتابة ، كانت عنده مجرد تسجيل ، أو رمز جديد لرمز أول . وفي كلا الحالتين يصبح الكلام — أو الخط — تعبيرا يستهدف الوقوع مع الحالات التي تحرك اللفظ وربما العكس صحيح . ولقد يفلت اللفظ مما نألفه له من دلالة حسية وينحاز الى دلالة تجريدية يكتسبها حين يبتعد عن مرتبته الأولى ، ان وجدت ! ولا شيء يفرض مجالا ليتحرك فيه اللفظ الا ما تضعه الألفاظ الأخرى . فالسياق ، أو وحدات الجمل ، هو الذي يمنح اللفظ دلالته . فيوشك أن يخرج عن ارادة مستخدمة . وكم من مرة وقع الشعراء والكتاب على مساقات ردوا بها شباب ألفاظ بدت في فترة من الفترات مترهلة

---

(١) Parain : Recheche. sur la nature et les fonction du language P. 51.

مبتذلة ، وكأن الشيخوخة أكلت أوصالها . فاذا بما يشبه الدم الجديد ينساب فيها من أخواتها أو جيراتها · ولم يفلت الجدل الذي وضعه فلاسفة أثينا من فكر فلاسفتنا وأقلامهم ، لقد كانت لهم أيضا معالجتهم لصلة الالفاظ بالمعاني، في صورتها المنطوقة وفي صورتها المكتوبة ·

تقول رسائل أخوان الصفا : « الحروف ثلاثة أنواع : فكرية ولفظية ، وخطية ، فالفكرية هي صورة روحانية من افكار النفوس مصورة في جواهرها قبل اخراجها معانيها بالألفاظ ·

والحروف اللفظية هي أصوات محمولة في الهواء ، مدركــة بطريق الأذنين بالقوة السامعة ، والخطية : هي نفوس خطت بالأقلام في وجوه الألواح وبطون الطوامير ، مدركة بالقوة الباصرة بطريق العينـــين »(١) · الزيادة الواضحة التي يبرزها النص هي تلك المرحلة الاولى التي تسبق عملية النطق أو التلفظ · وهي ما يعبرون عنه بأنها صورة روحانية من افكار النفوس وليس من المستحيل أن نتصورها صورة صوتية غير منطوقة ، أو هي صورة خطية مطبوعة على صفحة النفس · انها بلا شك بداية كل حدث كلامي وحين تتحقق ، تنتقل الى الصورة الحسية المسموعة · ثم حين ترسم ، تستقر في وضع ثابت قابل في الوقت نفسه لتقمص الحالة الصوتية ، فالحالة الروحية، وكأن الفريق مرتد على أعقابه · ومن الطريف أن الفلاسفة السابقين قالوا : « اعلم أن الحروف الخطية انما وضعت ســمات ليستدل بهـا عـلى الحروف اللفظية ، والحروف اللفظية وضعت سمات ليستدل بها على الحروف الفكرية والحروف الفكرية هي الأصل »(٢) ·

تقرير أن الحروف الفكرية هي الأصل تقرير واع مدرك لمعايشة النفس للألفاظ قبل نطقها في صورتها الصوتية ، أو قبل أن ترسمها في صورتهـا الخطية · وهو اشارة واضحة الى الصور المختــزنة التي تنشــدها الحروف الفكرية ·

---

(١) رسائل اخوان الصفا · جـ ١ ص ٣٩٢

(٢) المصدر نفسه ص ٣٩٣

ومن جهة أخرى يعلق فيلسوفنا « الفارابى » على كلام أفلاطون حول صلة الألفاظ بدلالاتها فيقول : « انه — أى أفلاطون — قد فحص هل تلك الصناعة هى صناعة علم اللسان ، وهل اذا أحاط الانسان بالأسماء الدالة على المعانى حسب دلالتها عند جمهور تلك الأمة التى لها ذلك اللسان . يكون قد أحاط علما بجواهر الأشياء وحصل له بها ذلك العلم المطلوب . اذا كان أهل هذه الصناعة يظنون بأنفسهم ذلك ، تبين أنه لا تعطى هذه الصناعة ذلك العلم أصلا »(١) . صلة اللفظ بالموجودات هى شغل الفارابى فى تعليقه . الشيخ القديم لم يكن يسلم بأن احتياز اللفظ احتياز للموجود ذاته . والقضية تثار من زاوية النظر الباحثة عن المعرفة :هل الدالات من وسائلها ! الى أى حد تعيننا معرفة الدالة على معرفة ما نستهدفه بها ؟ ولقد انقسمت آراء فلاسفتنا الى ثلاثة متمايزة ، يطبع كل واحد منها الموقف الفلسفى أو الاتجاه الذى يأخذ به صاحبه(٢) كان هناك رأى يستدل على خصائص العالم من خصائص اللغة . والتشابه بين التركيبين هو الذى يضيىء الضوء أمام أصحاب الرأى ذاك ، لأن التعابير تقوم على الوحدات الجملية . فالجملة هى أقل ما يحمل دلالة الى السامع ، وفى كل جملة لابد من توافر جانبين هما :المسند اليه من جهة والمسند من الجهة الأخرى . وأشياء العالم تسير على هذا النحو من التأليف . فيها الجوهر من جهة ثم الخصائص التى تطرأ على ذلك الجوهر من جهة أخرى . هذا فيما يخص التعابير ، ثم حين ننظر الى المفردات ، نراها كذلك مختلفة النوع ، مسمياتها مختلفة ، منها ما هو جزئى ومنها ما هو كلى . وفى العالم الخارجى ما يقابل ذلك : بجزئيته وبكليته . وكان ذلك مما دعا أفلاطون الى القول بوجود عالم بأسره فيه الكائنات الكلية ، هو عالم الأفكار أو عالم المثل ، ويقابل عالمنا المادى بكل ما فيه من أفراد جزئية ... وهكذا فكل مفرد لغوى ، ولكل تركيب مقابل فى عالم الأشياء .

وأكد الفيلسوف العربى « جابر بن حيان » ذلك الرأى حين قال : «ان

---

(١) النص مأخوذ من كتاب « جابر بن حيان » للدكتور زكى نجيب محمود ص ١١٤ وهو هناك منقول عن كتاب « جابر بن حيان » للمستشرق « بول كراوس » جـ ٢ ص ٣٢٨

(٢) المصدر السابق من ص ١٠٩ — ١١١

تركيب الكلام يلزم أن يكون مساويا لكل ما فى العـالم من نبات وحيوان وحجر » .

أما الرأى الثانى : فقـد كان من فريق فلاسفة يرون انه محـال أن يتجاوز الانسان بعلمه حدود الكلمات اللغوية الى حيث العالم الخارجى . فنحن حين نقول « الورقة بيضاء » مثلا، فاننا نشرح فى الواقع كل كلمة بأخرى .. وكأن كلا من المتحدث والسامع سيدور فى فلك الألفاظ التى يتلقفها كـل منهما من صاحبه . ومن ثمة تصبح كل معرفة ـ حتى ما نطلق عنيها المعرفة العلمية ـ انما هى معرفة لغوية . الألفاظ فيها حاملة للمعنى ، والعقل لا يتخطى عالمها .

وكان الرأى الثالث للفلاسفة الذين يرون أنهفى وسع الانسان أن يدرك حقائق ما بغير الكلمات ، وذلك مصدره نقص اللغة وعجزها ، فهى عاجزة عن التعبير الكامل عن الحقيقة . ولهذا العجز لجأ الانسـان الى طريق الايحـاء ليستكمل به معرفته . وفى جانب هذا الرأى يقف المتصوفة والفلاسفة الذين يأخذون بالادراك الحدسى .

تلك آراء تسعى لتفسير علاقة الفكر بالكـون من جهة ثم علاقته بالموجودات من جهة أخرى .

ادراك الانسان للكون يتمثل بادراكه لتركيب اللغوى القائم على الحدين اللغويين الأصليين ، حد المسند وحد المسند اليه . وكذا الكون ، هو تطابق فى المنهج وتماثل فى الروح الذى يجمع بينهما . ثم حين يستقر الامر يبدء السؤال عن قدرة اللغة فى تجاوز الموجودات أو عن عجزها أمامها .

ولا شك أن ذاك السؤال هو الذى تنشط وراءه أبحـاث الاستعارات والمجازات ، وأبحاث المنطق والنحو .

الجانب الشعرى فى اللغة هو الذى حرك السؤال ، فى حين يعجز المنطق « النثرى » عن التقاط ذلك الجانب ، يرقد العقل يفتش فى خفاياه عن مبررات للعجز . وكان هذا العجز نفسه هو الذى جعل علماء التفسير يقفون أمام ما سمى بالتفسير وما سمى بالتأويل .

وحين يضع علماؤنا ذلك فالحس اللغوى مختلط تماما بالشعور الدينى .. وتلك بلا شك سمة شعرية أخرى • ولعل أقدم ما حمل الينا من توجيهات الألفاظ ما ينسب للخليل : « فأخذ التفسير من الفسر ، وهو البيان • قال : والتفسرة اسم للبول الذى تنظر فيه الأطباء وتستدل به على مرض البدن • وكل شيىء يعرف به تفسير الشيىء فهو تفسرته » •

وقال غير الخليل : « التفسير مقلوب من السفر ، وهو كشط الشيىء عن الشيىء كما تسفر الريح الغيم عن وجه السماء فتسفر ، والسفر أيضا كنس البيت وغيره • تقول : « سفرت المرأة اذا كشفت النقاب عن وجهها »(١) •

والمعنيان هنا يأخذان بأصلين ، فرأى الخليل أن « فسر » أصل قائم برأسه والرأى الآخر ينفى ذلك ويرده الى « سفر » وكأننا غير بعيدين عن تقلبات ابن جنى • ولكن من الواضح فى المساق أن الرأى الثانى الذى يجعل « سفر » أصلا يقدم من نماذجه وأصول معانيه دائرة أوسع • وكأن المفسر هو الذى يفسر اللبس عن حكم النص أو الآية ببيانه • وحين تصبح مهمة المفسر مثل ذلك ، فمن العلماء من يقصر تعاطى التفسير على الأنبياء ، بحكم الحق الذى يكون لهم فى كشف غامض الآيات وتوضيح دلالاتها أمام المؤمنين • وكل تفسير هو ابانة لحكم اللفظ ، أو هو — كما عم مع المفسرين — عرض « ظاهر معنى الآية » •

وأما عن لفظة « التأويل » فقد قال فريق من قدمائنا : انها تفعيل من « أول » ومعناه : صرف اللفظ الى أوله وذلك أن أول كل شيىء هو قصد القاصد لما يبتغيه • والمؤول اذن : يبين للسامع القصد الذى لأجله أورد اللفظ • واذا كان المؤولون قد استقروا على أنه « تحميل اللفظ ما هو يحتمله من المعنى » أو أن التأويل هو علم احتمال اللغات ، فلكل واحد من أهل اللغة أن يتأوله بلغته » •

ففى كل المواقف يبدو أن التاويل الى أول الشيىء كان احساسا من

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٧٣ وما بعدها •

وما لم ننص على مصدر آخر ستكون نقولنا من ذات الكتاب فى ذات المضمار •

الاشتقاقين بأن الأصل فى تفسير الألفاظ هو ردها الى مساقاتها فى لغات القوم ، وهكذا كان القول عندهم ٠

وفيما بين التفسير والتأويل ٠ كان موقف العلماء من قوله تعالى « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » (سورة آل عمران آية ٦) فأخذوا المتشابهات هنا على أنها ضرب من النظم ، معجز بدوره كالمحكمات ، ولكنه كان على المجاز والكنايات والاشارات والتلويحات ، وذلك لأن هذا الضرب هو المستحلى عند العرب الغريب من ألفاظهم ، البديع فى كلامهم ٠ ومن ثمة كان التحدى يقع به ، ليكون من جنس المستحسن عندهم ٠

التفسير والتأويل كما نقول هو ضرب من تحديد الموقف ازاء الألفاظ والمعانى ، ازاء الظاهر والباطن ، أو ازاء القريب والبعيد حتى ان كان البعيد مفسرا برده الى أوله ٠

الحكم اذن فى هذا المجال هو للمعانى ! وذلك أمر لم يقو نفر من اللغويين على التحليق فوقه ٠ وكأن صورة المعانى المبثوثة لم تفارق تفكيرهم ٠ ومن الممكن أن نأخذ ما قاله الجاحظ على أنه تكثيف للفكرة التى اعتورت الكثير من آرائهم ٠ « ان المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى وانما الشأن فى اقامة الوزن وتخير الألفاظ وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك »(١) ٠

حديث الجاحظ هذا التقط بأعين عجلى ، وعلق بالأذهان منه ذلك الشق السابق ٠ ولكن لا تكتمل صورته الا بقوله « ان الشعر ضرب من التصوير » ٠

وكأن صاحبنا يخص صناعة الشعر بجهد البحث عن الألفاظ التى تحقق ما سرد من أوصاف ٠ وفلسفة تخصيص الشكل الشعرى بنوع من العناية فى اختيار الألفاظ كانت دائما موضع البحث ٠

---

(١) الحيوان جـ ٣ ص ١٣١

ولا أحسب أن الرعاية الشكلية للشعر قاصرة على تحديد المعانى أو التصوير الذى يريده الشاعر ، ان « مبحث الألفاظ الشعرية يجب أن لا ينفصل مطلقا عن مبحث الألفاظ السحرية ، وكلاهما وعاء واحد للطاقة العاطفية والوجدانية » . ولذلك كثيرا ما وقع قدماؤنا فى عبث وطريق خادع حين تكلموا عن المعانى ، مستقلة ، أو عن الألفاظ منتمية الى فصاحة وبلاغة وما اليها . وكتاب أبى هلال العسكرى « الصناعتين » ثم كتاب « ابن الأثير » المثل السائر » وكذا كتاب ابن سنان الخفاجى « سر الفصاحة » تعج بالكثير فى مقاطعها بالنقاش الشكلى أو الضارب فى المتاهات .

ما بين اللفظ والماهية :

حرك التفكير اللغوى علاقة المعانى بعضها ببعض شوطا طويلا حتى أخذوا بنظرية النظم أو التأليف Syntax ولكنهم مع ذلك أثاروا سؤالا نستكمل لهم اجابته طبيعة العلاقة بين اللغة والعقل ، وكان سؤالهم : هل الألفاظ موضوعة بازاء الصور الذهنية أم بازاء الماهيات الخارجية ، ولابد أن نضع السؤال فى نطاقه المنطقى الذى حركه فأحسب أنه كان استكمالا للشروح التى قدمها الأصوليون والفلاسفة لكتاب « الأرجانون » الذى خلفه أرسطو وأثار به قرائح المتأخرين لتفسيره ، واذا كنا نعرف أن « الأرجانون » كان يستهدف وضع قضايا القياس وجها الى وجه ازاء قضايا التصورات فيهمنا أن نستل من بين القضايا « قضية الحد » الذى شغل كل الناس : فقهاء وفلاسفة وأهل أصول ومناطقة ...

والحد هو علاقة يعقدها العقل بين لفظ يوضع ومعنى معين ، وهو قائم على تصور ثابت لتلك الصلة التى تقرنهما ، ومن ثمة فهو من باب التصورات ، وفى ضوء تلك المحاولة التى تسبق كل حد ، كان السؤال عن الصلة بين الأسماء والماصيات . وعند الاجابة اختلف المجيبون : فريق ذاهب الى أن الألفاظ تدور مع الصورة الذهنية ، وفريق معتقد بارتباط الألفاظ بالماهيات الخارجية .

أما أصحاب الرأى الأول الذين يرون اللفظ دائرا مع الصور الذهنية فانهم يترسمون خطوات الامام فخر الدين الرازى ، ويضربون مثلهم على ذلك

بقولهم « ان من رأى شبحا من بعيد وظنه حجرا أطلق عليه لفظ الحجر ، فاذا دنا منه وظنه شجرا أطلق عليه لفظ الشجر ، فاذا دنا منه وظنه فرسا أطلق اسم الفرس فاذا تحقق أنه انسان أطلق عليه لفظ الانسان »(١) ٠

المثال واضح الدلالة على أن اطلاق اللفظ أو وضعه يدور مع الصورة الذهنية دون الماهيات الخارجية ، وهذا مدخل كان أصحابه يرون فيه مدلجا الى المعرفة حين ترد الى الادراك الحدسى ٠

وفى مقابل ذاك الرأى ينهض الشيخ أبو اسحاق الشيرازى مؤكدا أن الوجود الخارجى هو حافز وضع اللفظ ٠ وعند أصحاب الرأى أن اللفظ دائر مع المعانى الذهنية ، لاعتقاد أنها فى الخارج كذلك ، لا لمجرد اختلافها فى الذهن ٠

وكان رأى ثالث يجمع بين المذهبين وينسبه السيوطى الى الامام الأسنوى فى شرح منهاج الامام البيضاوى « ان اللفظ موضوع بازاء المعنى من حيث هو ، مع قطع النظر عن كونه ذهنيا أو خارجيا »(١) ٠ وسر هذا الموقف أنه يرى استقلالا للمعنى ، وحصوله فى الخارج أو فى الذهن ، يعتبر من الأوصاف الزائدة على المعنى ٠ والأصل فى اللفظ المشدود الى معنى ألا نقيده بوصف زائد ٠ وكانت « المجردات » مما دعم الرأى ، فالمعنى الذى يدل لفظ « العلم » عليه — مثلا — لا ننتظر حين نطلقه أن يستقر العقل على وجوده وجودا ذهنيا ، أو وجودا خارجيا ٠

ومن هذه اللمحات التصورية ينبثق تصور آخر عن تفسير وضع اللفظ ، فهو اما أن يوضع لاعتبار عام أو يوضع لشخص معين ٠ والاعتبار العام هو أن اللفظ يوضع حين يعقل أمر مشترك بين مشخصات ويصبح اللفظ موضوعا لكل فرد أو لكل واحد من هذه المشخصات بخصوصه « بحيث لا يفاد ولا يفهم به الا واحد بخصوصه دون القدر المشترك ، فتعقل ذلك المشترك آلة للوضع ، لا انه الموضوع له »(٢) ٠

---

(١) المزهر جـ ١ ص ٤٢

(٢) المصدر نفسه ص ٤٦

والذى يراد ههنا هو أن يكون الوضع كليـا ، أى يقصـد به جمع من المشخصات ، أما الموضوع له فهو جزئى أو مشخص · والمثال الذى يضرب على ذلك هو وضع اسم الاشارة ، فهو موضوع لكلى ولكن مسماه أو المشار اليه يكون دائما مشخصا ، لا يقبل الشركة ، فكلمة مثل « هذا » ينطبق عليها وضعها « الكلى » ، ثم عند الاستخدام فهى دائما مشخصة ، وهى لا تفيـد التشخيص الا بقرينة تفيد تعيين المشـار اليه · وضرورة هـذا التميز أو الاضافة القرينية تنشأ عن استواء نسبة الوضع الى المسميات ·

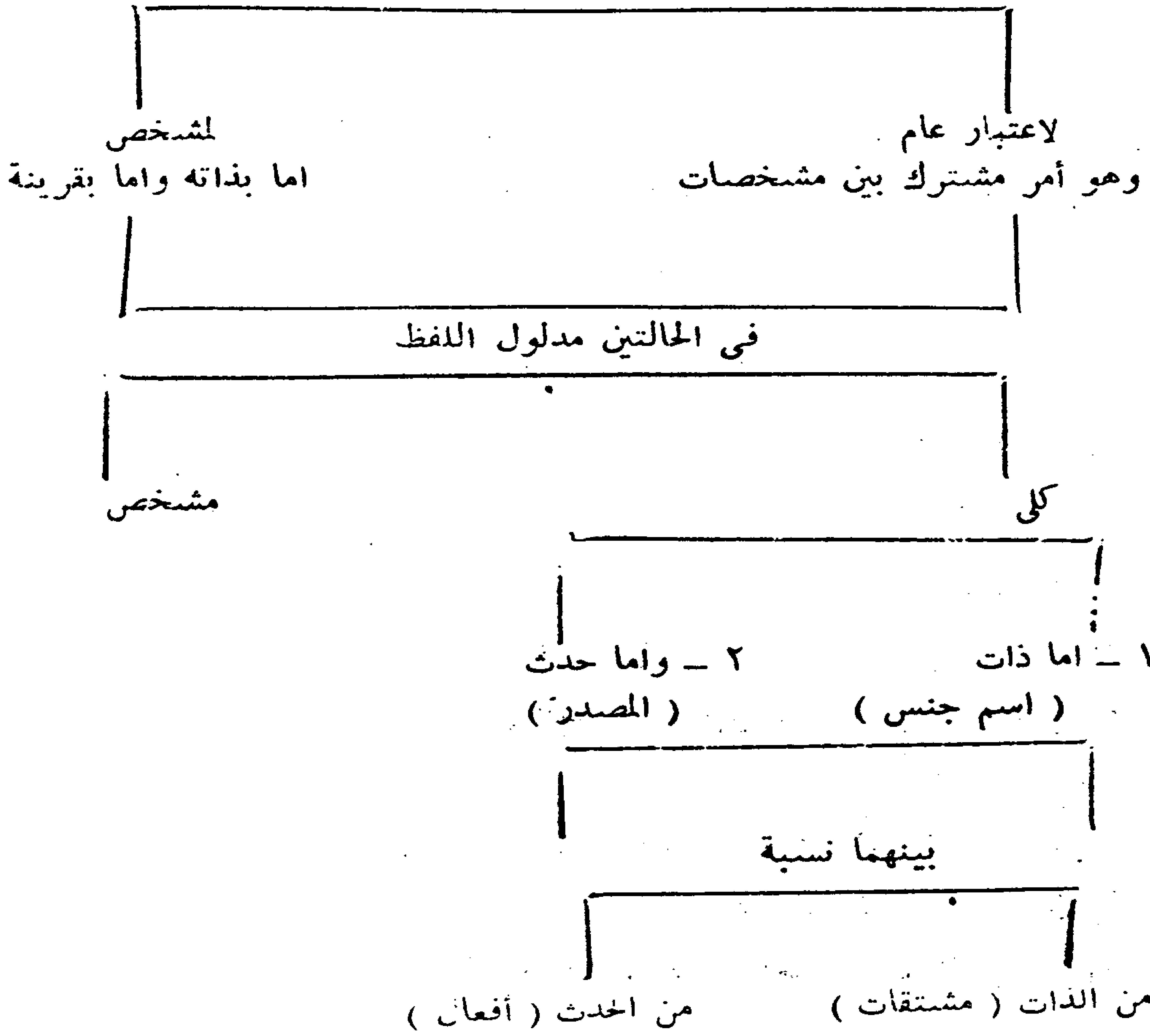
ويتولد عن هذا التصور للوضع الكلى وللوضع المشخص تصور آخر عن مدلول اللفظ ، يثيره الأصولى عضد الدين الأيجى : فعنده أن مدلول اللفظ اما كلى واما مشخص · على نفس النسق السابق ، وحين يكون المدلول عليه كليا فاما أن يدل على الذات ، وهو ما يسميه النحاة « اسم الجنس » ، واما أن يدل على حدث ، وهو ما يسمونه « المصدر » · وحين لا يستوعب هذا التقسيم مدلولات الألفاظ يشققـون نسبة بينهما ، وذلك « اما أن يكون يعتبر من طرف الذات وهو المشتق أو من طرف الحدث وهو الفعل »(١)·

هذا جهد من جهود أهل المنطق لتفتيت العلاقات بين الاسم والمسمى ثم بين الدالة والمدلول · وأحسب أن اللفظ المنطقى أو المقولات تتحـكم فى القسمة التى تفرض على الدالات · والأصل الرمزى فيها ينفر من الحدود التى تأتيها من الخارج ·

وأنا واضع – كتابع – تخطيطا بيانيا لمثل أقسامهم حتى تتضح صورة ذلك الفكر المنطقى المتعامل مع اللفظ ودلالته :

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦



ومن التخطيط يتضح أنه حتى وان لم نضع أسهما توضح اتجاه المسار فلن يصعب علينا أن نصعد بها من أسفل الى أعلى · وذلك نهج لم يرفضه علم اللغة ، بل ونادى به قدماؤنا حتى حين قرروا أن مرجحات تربط المسميات بأسمائها ·

ان القضية كما سبق أن قلت تتعدى حدود الفاظ اللغة ، فهى فى جوهرها بحث عن طريق تحصيل المعرفة ، والالفاظ أداتها أو هى صورة من صور « تصور الفلاسفة لوجود قيام جوهر مادى خارج عن عقولنا بصياغته » وهى أيضا صورة من « رفض وجود هذه الصور ، الا فى العقل ، لأنها فى نهاية الأمر ليست الا أفكارنا عن الأشياء المادية ، أو هى صور ذاتية عنه · فهذا الجوهر المادى اذن ليس الا مجرد وهم باطل »(١) واذا كان الجدل الفلسفى قد وصل الى أن ظاهرة الأشياء ليست الا ما يبدو لنا منها ، فكأن الجدل حول علاقة الصور الدائرة فى الذهن واللفظ المحرك لها هو نوع من الرغبة فى الاشراق على سبيل من سبل المعرفة ·

(١) د· يحيى هويدى : مقدمات فى علم الفلسفة ص ١٧١

« بين التاريخية والوصفية »

تطور الدالات والدلالات :

مرت الدراسات اللغوية بأوربا في مراحل عدة منذ أن قامت النهضة الحديثة • ولعل الكشف الذى سجله سيروليم جونز عام ١٧٨٦ ، حين استقرأ صلة اللغة « السنسكريتية » باللغات الأوروبية كان المدخل الذى نشطت بسببه الدراسات المقارنة ، سيان فى ذلك ما اتصل بالصوتيات أو بالتركيب •

ثم من تلك المقارنات تراءت فكرة « التطور » للعلماء أملا فى الوصول الى صور بسيطة لنشوء اللغة قبل ارتقائها • وحين ضاع الأمل كان الجهد لكشف الآثار التى يحدثها المجتمع فى بناء اللغة ، بنظامها الصوتى أو بنظامها المعنوى • وفى هذه المرحلة يبدو تأثير فردينان دى سوسير واضحا قويا •

ولم تستطع المناهج التاريخية ولا المناهج الوصفية أن تقنع العقل اللغوى بأنه قد وصل الى شاطىء يطمئن اليه ، حين يبحث عن علاقة اللغة بالكائن الانسانى ، أو عن مدى التحولات التى تتعرض لها دلالات الألفاظ بحكم أنها هدف أولى فى كل استخداماتنا اللغوية •

وكان من الممكن أن تكفى تلك المناهج المختلفة التى قلب بها اللغويون والنحاة والفلاسفة والمفكرون اللغة ، ولكن الصعوبة تنشأ دائما من أن اللغة « وعاء » للنفس والوجدان مع حملها الطاقة الموضوعية • أعنى : أن كون اللغة تجمع الجانبين العقلى والوجدانى يجعل الاستقرار على تصور كامل لها شيئا يشبه المستحيل •

ولعل ذلك ما جعل أحد تلاميذ دى سوسير وهو « انطوان مييه » يقول : « ان اللغة تمثل نظاما بالغ الحساسية وبالغ التعقيد ، وكل ما فيه

يتماسك بصورة شديدة ، ولا يسمح بتغييرات جزافية أو نزوية »(١) ٠

ان جهـدا كبيرا أصبح مجرد تسجيل تاريخى لمحـاولات العلماء(٢)، ويفصح عن كل ما بذل من نظرات واجتهادات ما زالت أصداؤها واضحـــة حتى وان تلاشت تأثيراتها ٠

وفيما يخص بحوث الدلالة ، فمما لا شك فيه أن كتابى: أرسين درمستتر "Arséne Dermesteter" ، وميشيل بريال "Michel Bréal" قـد لعبا دورا واضحا فى توجيه الأنظار نحو قضية الدلالات ٠

والكتاب الأول هـو : دراسة حياة الألفـاظ من خـلال معـانيها :
'La Vie des mots étuduée dans leurs significations"

والعنوان ينم عن اتجاهه لعلاج الألفاظ ككائن حى ، له حياته وله نهايته ، وبسبب هذه الروح كان الاعتراض عليه ، لأن حياة الألفاظ مقترنة بالانسان الذى يستخدمها ، ويصبح تصور حياتها : حية أو ميتة عـدوى منتقلة من فلســـــفة عصره ، عصر نظرية « داروين » (١٨٠٩ — ١٨٨٢) اذا علمنا أن الكتاب قد نشر عام ١٨٨٧ ٠

وأما الكتاب الثانى فهو : « مقـال فى علم الدلالة ، علم المعـانى »
'Essai de Sémantique, Science des significations"

---

(١) كتب مييه Meillet نصه ضمن مقالته عن كتاب « بريال » Bréal الذى خصصـــه للبحث عن الدلالات ٠ والنص فى « فرنسيته » موجود فى كتاب :

Simeon Potter; Language in the Modern World, P. 154.

(٢) لاستعراض أهم المراحل التى مرت بها دراسة اللغة يمكن أن نجد عرضا كافيا عند :

(أ) Simeon Potter, Language in Mod. World, P. 9-)12 ; 130-162

(ب) كتاب مناهج البحث فى اللغة للدكتور تمام حسان ، ص ١٤ : ٣٠

(جـ) كتاب علم اللغة للدكتور محمود السعران من ص ٣٥٨ : ٣٨٠

والمآخذ الذى كان عليه أنه اهتم بالاشتقاق من وجهة النظر التاريخية ولذلك كان حرصه على الناحية التسجيلية أوضح من حرصه على القيمة الضرورية "actuelle" للألفاظ أو للصيغ اللغوية ٠

ومن بعد ذلك الاتجاه نشطت المباحث حول صلة المبانى بالمعانى ٠ وأخذ لغويو أوروبا بفكرة الرمز "Symbole" ومن ثمة سارت بحوثهم فى شعبتين : واحدة تبحث عن علاقات بين المفردات وما يستحدثه ذلك من صور نفسانية واجتماعية ، وصلة تلك الصور بالمختزن اللغوى الذى يعيه المخ ٠ وهذه الدراسات هى التى نلتقى بها حين ندرس اللغة كنظام صوتى واسع أو "Systéme de rapports".

أما الشعبة الثانية فقد نشطت للتفرقة بين الوحدات الصوتية التى تتشكل منهـا الكلمات بغية معرفة أثر تلك الوحـدات أو « الفوينمـات » "Phonology" التى اشتقها الفرنسيون من اليونانية القديمة بمعنى الصوت أو الحديث ، وحتى تصل أبحاثهم الى نتائج كانت الدراسة التحليلية "Etude analitique" هى التى أغرتهم ٠ وفى ضوء هذا نقف مع جهد بذله أحد فلاسفة اللغة الهولنديين H.G. Pos حين سعى الى رأب الصـدع الذى ظهر بين دراسـة علم الأصـوات "Phonology" وعلم الدلالة "Semantics" ، ولقد قال بوز : ان علم الأصوات قد عقد الصلة بين الصوتيات "Phonetics" والدلالات "Semantics" ، ومن ثمة لا نسمى الأول منهما قسما ثانويا "Sub-division" ، ولكنه مدخل للدلالات "Antechamber of semantics".

ان الانتقال من الفونيم الذى يدل على ذاته بذاته الى الكلمة التى تدل على شىء آخر ليس بالانتقال الكبير مادمنا نحمل فى عقـولنا أن الكلمات تتكون دائما من فوينمات ٠ وأن المعانى التى تنشأ حين ننظم الكلمات فى جمـل تامة هى بدورها مختلفة بصـورة واضحـة عن معـانى المفردات مستقلة »(١) ٠

(١) Quoted by Ullmann . The principles . P. 31-32.

نظريه « بوز » محاولة جريئة لربط جرس الحروف بالدلالة - وهو بذلك يربط بين الفونيم والكلمة . كما يربط فى مقابلته بين الكلمه والتركيب . ولكن النظرية لم تكن لتقنع اللغويين الذين يردون الرأى الذاهب الى أن لونا من الصلة يربط أجراس الحروف بدلالات الألفاظ - ومن الممكن أن نلخص ما أثاره المعترضون على نظرية « بوز » فى ثلاثة مجالات يجمعها « استيفان أولمان » ، الأول فيها يمس آراء « بوز » مسا مباشرا .

١ — القول بأن الفونيم ذو دلالة ذاتية يحمل التناقض ، فلا شيء يحمل دلالة ما دمنا لا نملك « دالة » و « مدلولا عنيه » . فافتراض أن الفونيم شعار الدالة ، ثم هو فى الوقت نفسه شعار المدلول عليه افتراض مستحيل .

٢ — ان تصورنا للكلمات متكونة من فونيمات تصور يتناول الكلمة من الوجهة الشكلية فقط . ولنأخذ مثلا لفظة "table" انها تتكون من تتابع عناصر صوتية ، ولكن دلالة — أو معنى — النفظ اللاتينى "Mensa" « المائدة » لا شأن لها مطلقا بهذه العناصر الصوتية المكونة لنفظة table وذلك أمر لا مشاحة فيه بحكم القاعدة القائلة بأن الفونيمات ليست رموزا كاملة . ولكنها مجرد عناصر متدخلة لتكوين الرمز .

٣ — افتراض أن صلة تجمع معنى « الفونيمات » مع معنى « الكلمات » ثم تشبيه ذلك بصلة معنى الكلمة بمعنى الجملة مجرد هراء . فمن الواضح أن كلا من كلمة table وجملة The table is round لا ترتبطان الا فى شكل قاصر . وفونيمات .. t-a-b... لا تعنى أى جزء فى المعنى الذى تركبت منه الكلمة . وكأن مهمة الفونيمات قاصرة على الاشتراك فى بناء وحدات أكبر منها . وتنتهى تلك المهمة بمجرد أن يتم ذلك البناء ، ويسمح تعدد الفونيمات وتنوعها باحداث التباين بين المعانى .

الثانى : وهو غير بعيد عن الانتماء المباشر ، فاذا كانت الكلمات التى يشعر فيها النظام الصوتى بنوع من المحاكاة لأصوات الطبيعة (الأونوماتوبيا (Onomatopeia) أو أصيحات الانفعال (Exclamatian)

تقدم سندا لنظرية بوز (Pos) . فلا بد من ادراك أن هذه المحاكاة تخضع لنوع من الاتفاق النسبى أو لنقل المحاكاة الجزئية . ومن ثمة فهى تتغير من لغة الى أخرى . ومن جيل لجيل ، وهذه النسبية تحول دون قيام افتراض عنصى ثابت(١) .

والى جانب هذا الاعتراض المباشر على نظرية بوز (Pos) ، فان دى سوسير محرك الدراسات اللغوية الحديثة فى أوروبا يقرر أن الكلام (Parole) ليس مجرد سلسلة من (الفونيمات والمورفيمات (morphemes _ الدالات الصرفية) تتتابع كما تتتابع حبات المسبحة ، فاللغة عنده تراكيب ذات مستويات مختلفة ، وأى تغيير فى جزء من أجزائها يحتم تغييرا فى المستويات الأخرى ، فالتغيير اللغوى يشبه حركة من حركات قطع الشطرنج : تحدث الأثر ولا يدرك مداه الا مع النهاية(٢) .

الثالث : ويجمع بين بعض سمات اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة ، ذلك أن هذا الاعتراض يقف مع بعض الظواهر الصوتية التى تميل الى حذف أجزاء من بنية الألفاظ ، ومن ثمة فهو اعتراض على فكرة ايحاء الفونيمات بأجزاء من الدلالات . ويتحرك الاعتراض قدما ليحول دون محاولات تعريف اللفظ بأنه تتابع لمجموعة من الأصوات . ففى الانجليزية مثلا حشد كبير من الكلمات تفقد أجزاءها أو بعضا منها ، فكلمة مثل : don't تأتى بدلا من do not ، وكلمة مثل she'll تأتى بدلا من She will ومع ذلك فان الدلالة تبقى كاملة . وفى اللغة الفرنسية اذا كانت الكتابة تحتفظ بالكثير من الفونيمات ، فان النطق يكسبها حضورا أو غيابا ، ورغم ذلك فلا شىء يستحدث فيما يخص الدلالة ، ويمكن أن نسوق مثالين يستكملان النطق ، ومثالين ينتقص النطق منهما بعض الحروف :

Les hommes . Les étoiles ثم Les tables , Les femmes .

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٧ : ٣٦

(٢) شرح دى سوسير ما يعنيه بمستويات اللغة من داخل تشبيهه لها بالشطرنج . ويمكن مراجعة صفحات ٤٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٥٣ من كتابه .
Cours de Linguistique Générale.

فظهور حرف (S) الدال على الجمع فى أداة التعريف بالمثالين الاولين لم يعرض لهما دلاله زائدة عن صوتيهما اللذين فقدا الـ (S) عند النطق بها كما فى المثالين المتأخرين .

هذه أهم الاعتراضــات التى تقف ازاء محاولة تحليل الالفــاظ الى مكوناتها الصوتية رافضة أن تطوع أجراس الفونيمات لترتبط بمعان محددة ارتباطا ذاتيا .

وحين نضع الاعتراضين الأولين على محك الآراء التى رأينا صدرا منها مع نفر من لغويينا ، فلن تصعب رؤية الاحتجاج عليهما من طبيعة اللغــة العربية الآخذة بالاشتقاق كمبدأ من مبادىء نموها وتطورها . وأما الاعتراض الثالث وهو الدائر حول الحذف والزيادة فى الكلمات ، فانه مطروح فى مساقات العربية منذ أوائل عهود التقعيد والتنسيق . قبله النحاة وقبله البلاغيون وقبله الشعراء والنقاد .

قرر سيبويه الأمر فى كتابه . وأخــذه من بعده كل من تصــدى للدس . يقول صاحب الكتاب : « اعلم أنهم مما يحذفون الكلم وان كان أصله فى الكلام غير ذلك ، ويحذفون ويعوضون ، ويستغنون بالشىء عن الشىء الذى أصله فى كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطا . فمما حذف وأصله فى الكلام غير ذلك : لم يك ولا أدر وأشباه ذلك . وأما استغناؤهم بالشىء عن الشىء فانهم يقولون يدع ولا يقولون ودع . استغنوا عنها بترك وأشباه ذلك كثير .. »(١) وفى ضوء هذه الملاحظة يمكن أن نسلك بقية أقــوال اللغويين ونقاد الشعراء .

ولابن قتيبة كلام يقول فيه : « ان العرب يحذفون من الكلمة الحرف والشطر والأكثر ، وينقصــون البعض والشــطر والأكثر ، يوجزون به ويومئون ، يقولون : لم يك فيحذفون النون مــع حذفهم الواو لاجتمــاع

---

(١) سيبويه الكتاب جـ ١ ص ٢٤ – ٢٥ . وكلمة « اعلم » فى أول النص يشرحها السيرافى على أنها تعنى زعم .

الساكنين ، ويقولون يا صاح ، يريدون يا صاحبى .. وقال الفراء فى قولهم (سترى) انما أرادوا (سوف ترى) فحذفوا الواو والفاء »(١) . وما يذهب اليه ابن قتيبة قواعده واضحة ، ثم لعله من الأبواب التى اهتم بها نقاد اللغة طوال العصور ، وكثير مما جاءت به ضرورات الشـــعر هى أضرب على الحذو . ويعبر أبو عبد الله القزاز القيروانى فى كتابه « ضرائر الشعر » عن القضية بقوله : « ومما يجوز للشـاعر : الاجتزاء بحرف من الكلمة يدل على سائرها كما قال الشاعر :

بالخير خير آت وان شرافا ولا أريـد الشر الا أن تـا

يريد ان شرا فشر ، ولا أريد الشر الا أن تريده والا أن تشاءه »(٢) .

ومثل هذا الحذف ليس قاصرا على أبيات يبدو العبث غير بعيد عند استقبالها ، فالشاعر لبيد يقول :

درس المنا بمتالع فأبان بالحبس بين البيد والسوبان

فكلمة المنا يريد بها هنا المنازل(٣) .

وقول الآخر :

ثم تنادوا بعد ذاك الضوضا منهم بهـات وهـــلا ويـابا

نادى مناد منهم ألا تا قـالوا جميعـا كلهم ألا نا

يريد بذلك : ألا تركبون(٤) .

---

(١) القرطين : جـ ١ ، ص ٩

(٢) القزاز القيروانى : ضرائر الشعر ، ص ٢٣٢

(٣) الجرجانى : الوساطة ، ص ٤٥٠ ـ وأنظر لسان العرب مادة منو

(٤) المصدر السابق ، ورواية أخرى فى ضرائر القزاز ص ٢٣٣

تنادوهم أن ألجموا الا تـا قالوا جميعا كلهم بلى فـــا

يريدون ألا تركبون قالوا : بلى فاركبوا

وكما يجترئ الشعراء بعض أجزاء من بنية الكلمة . فانهم يزيدون فيها مثلما يقول شبيب بن ثعلبة :

ولسبة الحرقوص بالقفن ودمل فى الاست مستقرن

أحب منك موضع الوشحن فذاك من ذاك الى السنن

قطنة من أجود القطن

ويعلق على بن عبد العزيز الجرجانى بقوله : « زاد الشاعر هذه النونان »(١) .

ولكن مع كل ما قرره النحاة والنقاد واللغويون . هناك شيء آخر لا بد من ادراكه . ذاك هو الموقف النفسى لسامع النص . فالعقل يقوم دائما بعملية استكمال لما نسميه لغويا (الحذف) . وأثناء ذلك يستمرئ التفكير اللغوى الوضع . بل انه ينتصر حين يستطيع عبور الفجوة الصوتية التى تفصله عن الدلالة الكاملة . كما لا يتردد التفكير اللغوى عن حذف كل الحروف أو الكلمات التى يستشعر فيها زيادة عن القوالب التى عركتها خبرته اللغوية . واذا استطاع النظام الصوتى للشاعر وللسامع أن يرتد الى الفه فسيكون الاجتزاء توكيدا للدور الذى يقوم به العقل فى بناء اللغة . والموقف الذى يبرر هذه الحالات اللغوية هو أن الألفاظ لم تخرج عن فلكها الذى رسمه لها تتابع صوتى ، أو مسلسلة صوتية رغم كل العوامل الطارئة على بنائها . فذهن المتحدث وذهن السامع يحتفظان بملامح الكلمة الكامنة - أو فى صورتها المثلى - طالما وعى كل منهما الأصول لمادته اللغوية ، أما حين تقصر المعرفة عن تقبل هذه الصيغ المتغيرة فتصبح فى عجز عن استيعاب الدلالة . ومصدر الفقدان ليس غياب دالات أو « فونيمات » ذات دلالة ذاتية ، وانما مصدره غياب الالف والمعاينة الصوتية .

---

(١) مرجعه السابق . لسبة . عضة . الحرقوص . دويبة كالبرغوث لها حمة كحمة الزنبور .

واذا كان مثل ذلك الحوار بين اتجاهين ، أحدهما يتوقع الكلمات كاملة والآخر يتربص بكل غياب أو زيادة ليسمه بالضرورة فيجوزها أو لا يجوزها، فان محاولات ربط المعانى بالأصوات الكلاسية تتأرجح بين التسليم للنظرية وبين الرفض لها • ومع ذلك فان وجهة النظر التى يمكن أن تتراءى لنا بغير حرص على التوفيق أو على التلفيق يمكن أن نلقاها حين نسلم بأن مجموعات من الألفاظ يمكن أن تخضع لمثل المواضعة التى تربط الدالات بالدلالات بحكم كم أسطورى أو سحرى أحاط بتلك المجموعة • وليس من المرفوض أن تكون مجموعات أخرى قد نأت عن مثل ذاك الأفق أو أن تكون أصولها البعيدة قد ضاعت فى طيات التاريخ الطويل والمبهم •

ومثل هذا سيفضى بنا الى نفى الصلة الدلالية بين مكونات اللفظ وصورته النهائية ، أو الى نفى كون الأصوات رموزا تحمل معان بفعل ذات المرموز •

ولا شك فى أن للنظر هذا مساره ، فمهما كانت الصفات الخاصة بالمرئيات الصوتية « فونيمات » فمن العسير أن نتصورها مبتلعة الخصائص المستقلة والكاملة للألفاظ ، لأن لاستخدام اللغة نطاق ضخم يجب أن يشكل نظرتنا اليها • أعنى اذا غاب الحديث عن أصولها البعيدة نستبقى لنا المعاصرة . وتلك غاية تستحق العناء • ويكاد كل السنا يحيط ب « الرمز » •

التفاعل بين الدلالة والاعراب :

لم تكن قضية اللفظ والمعنى فى نظر اللغويين – وهى مختلفة – تماما عما أخذ به النقاد والبلاغيون(١) – قائمة فقط حول أصل المادة اللغوية وطريقة وضعها أو الاصطلاح عليها . وانما كان الاعراب مما أثار حسهم فهو عندهم من العلوم الجليلة التى خصت بها العرب ، وهو الفارق بين المعانى المتكافئة فى اللفظ . وبه يعرف الخبر الذى هو أصل الكلام . ولولاه ما ميز فاعل من مفعول ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ولا صدر من مصـدر ، ولا نعت من توكيد »(٢) وحين نترك وراء الأذن كل المقـولات النحوية فى العبارة ونأخذ المضمون اللغوى أو الدلالى ، فاننا نلمس القضية فى صورة واضحة : الاعراب فارق بين المعانى . وحين يستقر الرأى على ذلك تصبح مقولات النحاة من فاعليـة ومفعولية و ... و ... ضروبا من الأوصاف المنطقية التى هى مدخولة على اللغة . وحين طرح السؤال عما دعا الى الاعراب واحتج اليه من أجله ؟ كان الجواب « ان الاسماء لما كانت تعتورها المعانى ، فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضـافا اليها . ولم تكن فى صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى بل كانت مشتركة . جعلت حركات الاعراب فيها تنبىء عن هذه المعانى »(٣) والقضية كما يعرضها صاحب علل النحو تبدو غريبة . فالأسماء فى أصلها متعاورة بين المعانى . وذاك شأن كل اللغات ، وشأن ما بنى فى عربيتنا وما أعرب . ومورد الموقف هنا أن أصحاب العلل يقفون مع الالفاظ مستقلة ويميلونها الى أشياء منفصلة عن التفكير أو عن الارتباط الذهنى حين تنخرط فى العلاقات التى تسفر عن الفاعلية أو غيرها .

---

(١) علينا أن ندرك أن موقف هؤلاء كان سعيهم وراء الوضوح والغموض ، أو المسروقات أو الابلاغ المعنوى . أما اللغويون فكان بحثهم فى الاصل عن صلة المادة – اللفظ – بالمعنى بعد المدلول عليه

(٢) الصاحبى فى فقه اللغه ص ٤٢

(٣) الايضاح للزجاجى ص ٦٩

والكلام غير المعرب قريب من المعرب كثرة ، منه الأفعال الماضية وفعل الأمر للمواجه وحروف المعانى وكثير من الأسـماء ، وازاء ذلك يقررون « ان الاعراب عرض داخل في الكلام لمعنى يوجده ويدل عليه » ومن ثمة فان الكلام سابقه فى المرتبة ، والاعراب تابع من توابعه . ورغم هذه المحاولة من فلاسفة النحو عن ترتيب الأشياء تقديما وتأخيرا ، وهو بدوره منطـق يجانب منطق اللغة ، فان القضية لا تحل بتقديم ولا بتأخير . ومثل هـذا التهشيم لبنية اللغة وطبيعتها هو الذى جعل الجاحظ يحمل على النحو حين رآه يزهق البيان ويفرض على صاحبه وقفة دائمة مع الشكل أو مع مقاييس عقلية يبتعد بها النص عن الجانب الوجدانى أو البيانى . « وأما النحـو فلا تشغل قلبك منه الا بقدر ما يؤديه ألى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام فى كتاب ان كتبه ، وشعر ان أنشده ، وشىء ان وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أرد اليه منه : من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع ، وانما يرغب فى بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصاد فيه من لا يحتاج الى تعرف جسيمات الأمور والاستنباط لغوامض التدبر ، لمصـالح العباد والبلاد ، والعلم بالأركان ، والقطب الذى تدور عليه الرحى . ومن ليس له حظ غيره ولا مكان سواه ، وعويص النحو لا يجرى فى المعاملات ولا يضطر اليه شىء »(١) .

الجـاحظ قلق من الاسراف فى طلب النحـو ، لأن ذلك عنده أخـذ بالشكل ، وخضوع لمقولات تفرض على اللغة . ولا يعنى ذلك أن صاحبنا كان ثائرا على القاعدة أو راغبا فى عزلها ، كل ما فى الأمر أنه يأخذ اللغة بشموليتها ، « بنظمها » . وهـو من أوائل القـائلين بالنظم ، وأحس أن الغوص وراء مقولات النحو تجعله غاية أو تفصله عن النظام الصوتى الذى تعرفه العربية .

الجاحظ يحدد موقفه ذاك ، لأنه رجل بيان ونقد . وهكذا فهم آنذاك ، فصل أو شبه فصل بين الالفاظ والمعـانى . واذا كانت القضـية قد تسربت الى

---

(١) الكامل لابن الأثير — الهامش ص ٢٦ ، ٢٧ الجزء الأول .

الأدباء بعد طول الوقوف مع النحاة ومقولاتهم ، فلقد كان حسهم اللغوى سليما •

وكما انتصر الادباء للحس اللغوى ، كذلك كان موقف الكثيرين من المفسرين ، كان الانتصار للمعانى • لقد قرروا قضيتهم فى حكمتهم : ان الاعراب فرع المعنى • وهاك السيوطى بعد أن يعرض فى اتقانه شروط المفسر • ويناقش مسألة الاعراب ، يصل الىّ قوله : « قد يتجاذب المعنى والاعراب الشىء الواحد ، بأن يوجد فى الكلام أن المعنى يدعو الى أمر ، والاعراب يمنع منه ، والتمسك به : صـحة المعنى ، ويؤول لصحة المعنى الاعراب »(١) المعنى هنا هو الأصل ، فان حاد الفرع عن مجاراته ، فلتكن التضحية به ، وليكن التمسك بالجوهر ، فمثل ذلك التشبث أو الترجيح هو الذى جوز لبعض علمائهم طرح قضية : « ان تكون العرب نطقت أولا بالكلام غير معرب ، ثم رأت اشتباه المعانى فاعربته ، ثم نقل معربا فنتكلم به »(٢) • ولم يكن من الممكن أن يلقى السؤال الا ان أحدث العقل اللغوى مفارقة بين الدلالة والاعراب • ومـــع ذلك فالفرض لا يحـل الموقف ، لأنه ـ كذلك ـ اقحام للمنطق الشكلى فى مجال كلية اللغة • ولو أن الاعراب كان بقصد توضيح المعانى ، لوجب أن يكون لكل معنى اعراب يدل عليه ، لا يزول الا بزواله ، وذاك فرض ميتافيزيقى دخيل • واذا كان بعض رجال النحو قد آثروا تفسير دخول حركات الاعراب بردها الى أسباب صوتية يعتدل بفضلها الكـلام حين ينتقل النطق « بين متحرك وسـاكن ومتحركين وساكن »(٣) فان ذلك تفسير لواقع أو اجتهاد لتعليل •

وقد يخرج نفر من النحاة بفنهم عن مجرد وضع معانى الألفـاظ فى النسق وعلاقاتها وفق المقولات فيرون أن النحو يتخطى الخطأ والصواب • فهذا أبو سعيد السيرافى ، صاحب نحو البصرة يقول « ان معانى النحـو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف فى مواضعهـا

---

(١) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن جـ ١ ، ص ٣١١

(٢) الزجاجى : الايضاح فى علل النحو ، ص ٦٩

(٣) ذلك هو رأى محمد بن المستنير قطرب ، تلميذ سيبويه ، أنظر رأيه فى ايضـاح الزجاجى ، ص ٧٠

المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير ، وتوخى الصواب فى ذلك ، وتجنب الخطأ من ذلك .

وان زاغ شيء عن هـذا النعت فانه لا يخلو من أن يكون سائغا بالاستعمال النادر ، والتأويل البعيد ، أو مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم »(١) .

مهمة النحو عند صاحبنا هى تفسير سلامة اللفظ فى سكناته وحركاته ، وسلامته داخل الاطار العام الذى نسلكه فيه حين نركبه مع غيره . وهو اذن يفصله على جانب علم المعانى الذى يتوقف مع التقديم والتأخير وكأن النحو معين على البلوغ .

ولعل الذى هو أصنع هو ما قالوه حين طرح السؤال : « فاخبرونى عن الكلام المنطوق به الذى نعرفه الآن بيننا ، أتقولون ان العرب كانت نطقت به زمانا غير معرب ثم أدخلت عليه الاعراب أم هكذا نطقت به فى أول تبلبل ألسنتها ؟ » .

وجواب هذا السؤال هو الذى أوثره فى القضية لأنه يحسم الأمر ويطفىء شرارة جدل نحوى أو منطقى لا يقدم شيئا وربما يرهق اللغة ذاتيا .

قالوا « هكذا نطقت به فى أول وهلة ، ولم تنطق به زمانا غير معرب ثم أعربته »(٢) .

هو اذن من ظواهر العربية ومكمل للعلامة اللغوية أو الدالة . ونحن حين نتحدث عن دالة فلا بد أن يكون حديثنا وسط حشد من الدالات ، المكونة للدلالة العامة المتراكبة . فبدون ذلك لسنا الا أمام وحدات صدئة من معجم ليس فيه غناء . ان رصيدا هائلا يحيط بكل لفظة : رصيدها الصوتى ورصيدها الاعرابى ثم رصيدها المعجمى الذى لن يعرف الثبات الا

---

(١) التوحيدى ، الامتاع والمؤانسة ، ص ١٢١

(٢) الايضاح ، ص ٦٧ ، ٦٨

عندما تتحول الوحدة من أفق الى أفق مع تحول حضارى مرموق ، مثل ذلك الذى مرت به ألفاظ الجاهلية بعد أن نشر الاسلام عقيدته وحضارته ٠

واذا كانت محاورات النحاة بين بعضهم البعض ، سـواء الآخـذون بالعلل الفلسفية أو الآخذون بالعلل النحـوية لم تكن كـافية فان منطقيا ونحويا يعقدان محاورة من أروع المحاورات التى سجلها علم اللغة القديم ، وسجلها الأديب الفيلسوف أبو حيان التوحيدى(١) ٠ وهو يحدثنا عن زمانها بأنه فى سنة ستة وعشرين وثلاثمائة ، وأن قطبيها كانا أبا سعيد السيرافى رأس نحاة البصرة ومتى بن يونس رأس المترجمين فى زمانه ٠

سأل أبو سعيد محاوره (متى) عن المنطق ، ما يعنى به ؟ فقال له متى : أعنى به أنه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه ، كالميزان ، فانى أعرف به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح ٠

ولم يكن أبو سعيد ليقنع بهذا الرد ، لأن صحيح الكلام من سقيمـه يعرف بالنظم المألـوف ، والاعراب المعروف اذا كنا نتكلم بالعربيـة ، كما أن فاسد المعنى وصالحه يعرف بالعقل اذا كنا نبحث عنه بالعقل ٠ ثم يقول له : هبك عرفت الراجح من الناقص عن طريق الوزن ، فمن لك بمعرفة الموزون ، أيما هو حديد أو ذهب أو شبه أو رصاص ٠٠ فكأن معرفة الوزن لا تغنى عن معرفة جوهر الموزون ، وعن معرفته قيمته وسائر صفاته ٠٠ وليس كل ما فى الدنيا يوزن ، بل فيها ما يوزن وفيها ما يذلع وفيها ما يمسح ٠٠ وكـذلك الأمر فى المعقولات المقررة ٠

ان الاحساسات ظلال العقول تحكيها بالتقريب والتبعيد ، مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة ٠

---

(١) المحاورة تمثل ما دار فى احدى المسامرات التى سجلها التوحيـدى فى كتابه الشيق « الامتاع والمؤانسة » وما نعرضه منها خاضع لتصرفنا هروبا من التطويل ٠

ونصها الكامل فى الجزء الأول من الكتاب طبعة المرحوم أحمد أمين ، ص ١٠٨ وما بعدها ، وهى واردة كذلك فى معجم الأدباء لياقوت ، ج ٨

وحتى هنا والحوار من جانب السيرافي يستدرج خصمه الى الوقوف أمام الشكل ، شكل القياس الذى قاس عليه متى · ولذلك ينبرى هذا ليدفع بأن المنطق لازم لأنه يحث عن الأغراض المعقولة ، والمعانى المدركة ، كما أنه تصفح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة · وان الناس فى المعقولات سواء ، ألا نرى أنه أربعة وأربعة ثمانية سواء عند جميع الأمم · ويرفض السيرافى ذلك المنطق ، فهو يرد المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ الى تلك المرتبة البينة ·

ويستطرد محاورا : اذا كانت الاغراض المعقولة أو المعانى المدركة لا يوصل اليها الا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف فتلك حاجة ملزمة لمعرفة اللغة ··

وواضح أن جدل السيرافى هنا يدور حول اللغة كوسيلة للمدركات · واستمر القطبان حتى سأل أبو سعيد مجادله المنطقى متى قائلا : أسألك عن حرف « الواو » وهو دائر فى كلام العرب ، ومعانيه متميزة عند أهل العقل ، فما أحكامه ؟ وكيف مواقعه ؟ وهل هو على وجه أو وجوه ؟ فبهت متى وقال : هذا نحو · والنحو لم أنظر فيه لأنه لا حاجة بالمنطقى اليه ، وبالنحوى حاجة شديدة الى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ ، فان مر المنطقى باللفظ فبالعرض ، وان عثر النحوى بالمعنى فبالعرض والمعنى أشرف من اللفظ واللفظ أوضع من المعنى ·

ورأى متى أن الاسم والفعل والحرف تكفى ليبلغ بها كل متحدث أغراضه، دون كل ذلك الهم الذى ينشغل به النحاة · ولكن أبا سعيد يعرض حسه اللغوى الذى يرفض ان لغة من اللغات تطابق لغة أخرى : من جميع جهاتها ، بحدود صفاتها فى اسمائها وأفعالها ، وحروفها ، وتاليفها ، وتحقيقها واستعاراتها ، وتشديدها وتخفيفها · وسعتها وضيقها ، ونظمها ونثرها ، وسجعها ووزنها وميلها ، وغير ذلك مما يطول ذكره · وصاحبنا يؤكد ذلك « خاصية اللغة » واستحالة تشابه لغتين : ولعل ذلك بذور بعيدة لما يذهب اليه علم اللغة الحديث من استحالة تشابه جملة واحدة تنطق مرتين · ويؤكد السيرافى نظرته بقوله : « واذا سلمنا أن الترجمة صدقت وما كذبت ،

وقـومت وما حرفت ، ووزنت وما جزفت ، وأنهـا ما التاثت ولا حافت ، ولا نقصت ولا زادت ، ولا قدمت ولا أخرت ، ولا أخلت بمعنى الخاص والعام ، ولا بأخص الخاص ، ولا بأعم العام ، فان حدث ذلك لن تفى الترجمة بحق اللغة لأن « هذا لا يكون ، وليس فى طبائع اللغات ولا مقادير المعانى » ٠ ومن ثمة لا بد للمنطقى من اللفظ الذى يشتمل على مراده ويوافق قصـده ما دام المنطقى لا يريد أن يرتب ما عنده بالوهم السانح والخاطر العارض والحدس الطارىء ٠

هذه محاورة تدور معبرة عن نفس القضية التى اشتجر حولهـا جدل النحاة واللغويين ، بين المعنى واللفظ ٠ وهى هنا بين « منطقى » « ونحوى » وكلاهما مؤمن بأن أداته هى الاقدر على دفـع المعنى الى النفس ٠ فاذا كان المنطق أداة يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسد المعنى من صالحه ، فان اللفظ بحكم طبيعته بائد على الزمان الذى يقفو أثر الطبيعة بأثر آخر ، ولذا كانت مادته الطينية متهافته ٠ وعلى نقيض ذلك : المعنى ، فهو مستمل للعقل ومن ثم اكتسب البقاء ٠

ومهما كانت لذة الجدل مثيرة لشهوة الانتصار العقلى فان وضع المحاورة بين الفكر واللفظ يخرج بهـا — فى بعض مراحلهـا — عن المنطق اللغوى الصحيح ٠

ولسنا نرى وضعا فيه فكر دون اللفظ الملائم الصحيح ، ولسنا نرى كذلك كلما صحيحا دون منطق أو فكر قويم ، وان شكونا من طغيان المنطق على النحو ، فان شكوانا لن تستبعد قبول المنطق العام ٠

وكان ما فات رجال القرن الرابع سواء ما سجله الزجاجى فى الايضاح أو التوحيدى فى امتاعه — كان مافاتهم هو الذى نال الجرجانى حظ تسجيله حين أكد دور « النظم » ٠

ولقد رفض صاحبنا اعتبار الألفاظ موضوعة لتعرف معانيها فى ذاتها ، فان ذلك مما يستحيل أن يقبله عاقل ٠ لأن المدركات عنده قائمة بذواتها ، أيا ما كانت الالفاظ التى تفرض لها ٠

فى فلسفة الجرجانى لا تخرج الالفاظ عن صورها الصوتية ، الا أن ربطها الذهن بما حولها من الدلالات ، والنظم الذى يؤثره الناطق أو الكاتب هو الذى يمنح الدالات سلطانها ، ولذلك يقول صاحب « دلائل الاعجاز » : « ان النظم ليس شيئا غير توخى معانى النحو واحكامه فيما بين معانى الكلم »(١) .

وعمق هذا الكلام مستمد من الفلسفة اللغوية التى تأخذ النحو ، ليس بمقولاته ، ولكن تأخذه كسر صناعة العربية ، فهو رابط الصيغ الذهنية وهو الذى يعين اللغة لتقفز - به - فوق عقبات الخلخلة الكاذبة . واذا كان الجرجانى يقف بذكاء مع معانى النحو ودورها مع معانى الكلام ، فانه لا يتوقف مع تلك المحاولات التى سعت لتحليل علاقة الألفاظ المستقلة بالمعانى أو حتى الحروف المجزئة بالبنيات . انه يستهدف « النظم » أو الكل الحادث من الوحدات والعلاقات ، بما ورثته من تقليد. واذا كانت نظرية عبدالقاهر عن « النظم » دائرة فى فلك البلاغة فان المرمى كان لغويا فى أساسه . واستطاع أن يعقد نظما محكما بين الالفاظ ودلالتها . ولم يكن كل النحاة بضائعين وراء المقولات المنطقية الخالصة . بل منهم من كان يلمح علم اللغة فى فلسفة كاملة . أبو سعيد السيرافى يسأل : ما معنى كن نحويا لغويا فصيحا ؟ ولا يتردد الرجل فى الاجابة « افهم نفسك ما تقول ، ثم رم أن يفهم عنك غيرك ، وقدر اللفظ على المعنى ، فلا يفضل عنه . وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه . أما اذا حاولت فرش المعنى وبسط المراد فاجل اللفظ بالروادف الموضحة والأشياء المقربة والاستعارات الممتعة . وبين المعانى بالبلاغة ، اعنى لوح منها بشىء حتى لا تصاب الا بالبحث والشوق اليها . لأن المطلوب اذا ظفر به على هذا الوجه عز وجلا وكرم وعلا ، واشرح منها شيئا حتى لا يمكن أن يمترى فيه أو يتعب فى فهمه أو يعرج عنه لاغتماضه ، فهذا المذهب يكون جامعا لحقائق الأشياء ولأشباه الحقائق »(٢) .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٠٤

(٢) الامتاع والمؤانسة ص ١٢٤ - ١٢٥

ذلك بلا شك قول حكيم · وما زالت فكرة السيرافى علما يأتم به اللغويون والنقاد كلما أرهقهم ابتذال التعابير التى ما تزال تخضخض المعانى وتنثرها فما تبقى منها الا ما يشبه الهشيم · عنده أن اللغة لتفهم نفسك ما تقول ثم لتفهم غيرك · وكل ذلك على حرف ، أما ان شئت بسطا فى المعانى فليكن منك أن تترك متعة الشوق والتفوق لسامعك حين تلوح له · دعه يشق الحجب ، حتى يظفر بما تنشد وعندئذ ستعز الدلالة ودالتها · وان خشى صاحبها الاغتماض فليشرح بعض ما يمكن أن يمترى فيه ·

وهذا فهم واع وتقرير لوظيفة اللغة حين تصير عربة لأفكارنا ·

ومن الطريف أن ما قاله قدماؤنا منذ مئات السنين ما زال حوله أخذ ورد بين المحدثين وكأن السابقين قد اكتشفوا الأثافى التى دونها لن تنهض هندسة لقول أو بناء لفن · وواحد من العلماء المحدثين هو الدكتور جونسون يعرف اللغة بأنها رداء للفكر ، ويعانده « كارليل » فيقول : « انهم يعرفون اللغة بأنها رداء للفكر ، ولكن من الأفضل أن نقول انها الجسد الذى يتقمصه الفكر ، انها جسم الفكر »(١) ·

ومن البين أن توماس كارليل حريص على أن يدفع فى حومة الحد اللغوى ليوحده مع حد الفكر · وتلك بلا شك غاية فى كل المواقف ·

ونفس الحس الشعرى يقول به فلوبير حين يسجل « ان هؤلاء الحمقى يتمسكون بالتشبيه العتيق الذى يتناول اللفظ وكأنه الثوب ، كلا ان الشكل هو جسد الفكر ، كما ان الفكر روح الحياة »(٢) ·

شاعرنا لا يريد أن يميز الصورة عن المضمون ، فهما وحدة متماسكة ، وكأن روح السيرافى قد تسرب الينا ·

---

(١) هذه الأقوال مبثوثة فى كتاب أولمان :
The principles of Sem. P. 94.

(٢) المصدر السابق ·

عن الاصوليين :

لم يكن البحث حول « الدلالة » محصورا تحت باب الأصوات الموحية ، سيان فى ذلك أصوات الحروف أو أصوات « الفوتيمات » ، وانما كانت الآراء تتناوله من واقع الاهتمام الثقافى · واذا كانت الصلة بين الأبحاث اللغوية والأبحاث الأصولية تؤكد وجهات حمل أصـول الأول على أصول الثانى ، فان وجهات نظر هؤلاء التى تنتسب اليهم ، أو ينتسبون اليها ، هى من فرط ارتباطهم باللغة وكثرة احتضانهم لدلالاتها · وليس هناك من أصـولى الا ويفتتح أعماله بتوضيح مفهومه للغة ووظيفتها بين يديه · وأنا آخذ من المرجع الكبير « الاحكام فى أصول الأحكام » لسيف الدين الأمدى قوله : « لما كان كل واحد لا يستقل بتحصيل معارفه بنفسه وحده ، دون معين ومساعد له من نوعه ، دعت الحاجة الى نصب دلائل يتوصل بها كل الى معرفة ما فى ضمير الآخر من المعلومات المعينة له فى تحقيق غرضه ، ولذلك استخدم الانسان ما يتركب من المقاطع الصوتية التى خص بها نوع الانسان دون سائر أنواع الحيوان ، عناية من الله تعالى به · ومن اختلاف تركيبات المقاطع الصوتية ، حدثت الدلائل الكلامية والعبارات اللغوية »(١) ·

ان هذه الفقرة من كلام الآمدى تفصح عن عدد من الأفكار الهامة التى سيشتجر حولها خلاف من اللغويين والمفكرين · بل ان القضايا التى يطرحها لم تخل سبيل أسنة الأقلام حتى يومنا ·

أما الفكرة الأولى التى يعرضها « الاحكام ··· » فهى النظر الى اللغة باعتبارها دلائل يتوصل بها كل واحد الى معرفة ما فى ضمير الآخر · وتلك احدى المهام الخطيرة التى تناط الى اللغة · وفريق من الباحثين يذهبون الى أن دور اللغة متركز فيما تقدم من عون على التفاهم والسلوك · يعبر (م· لويس) عن الفكرة تعبيرا صريحا بقوله : « ان اللغة فى جوهرها شـكل من أشكال السلوك الاجتماعى »(٢) · وفى مثل ذلك السلك ينخرط كل القائلين بالوظيفة السلوكية للغة ·

(١) الاحكام فى أصول الأحكام ، جـ ١ ، ص ١٦

(٢) اللغة فى المجتمع ، ترجمة الدكتور ابراهيم أنيس والدكتور تمام حسان ، ص ٢٨٩

والفكرة الثانية يحددها صاحبها العربي ـ الآمدى ـ بقوله : ان اللغة مما يعين الانسان على تحقيق غرضه ، والدور الاجتماعى مما يشغل باله . وصارت الوظيفة الاجتماعية مبحثا من مباحث المحدثين كـــذلك . وجهود جاردنر ومالينوفسكي ويسبرسن توكيد لهذا المنزع(١) .

والقضية الثالثة التى يقررها الامدى هى امتياز الانسان بنوع معين من اللغة ، لا يسايره فيه كائن حى آخر . وهو يؤكد أن للانسان أن يصنع من مقاطعه ما لا يستطيع الحيوان أن يصنع . ومن هذه القدرة تنبع لغة الانسان وتتعدى مرحلة العلامة الصوتية الغريزية الى العلامة الصوتية الارادية ، والتى لن تفعل الا حين تصبح رمزا . وتلك هى الفـــكرة الرابعة التى يعرضهـا الآمدى ، فاختلاف التتابع الصوتى وتنوعه هو المحدث للكلمات ذات الدلالات المختلفة . وهى تخضع لما يمنحه الانسان للأصوات من ارتبـاطات سواء فى داخل اللفظ أو فى داخل العبارة .

ولعلنا حين ننظر فى الفقرة التالية نلمس مدى الدقة التى قال بهـــا الآمدى آراءه : « اللغة وسيلة للاتصال ، وهى تتكون من مجموعات عشوائية أو أنماط من أصوات الكلام . وبوساطتها ينقل الانســـان غرضه للآخرين ويشركهم فى أفكاره وعواطفه ورغباته . وطالما أن اللغة انســانية ، وليست غريزية ، فهى ترتفع عن الأصوات التى تصدرها الحيوانات والطيور والحشرات ومن قبيل تلك الصيحات الغريزية ما يطلقه الحصان من « الصهيل » والكلب من « النباح » والضفدع من « النقيق » ... »(٢) فما أقرب ما يقولونه مما قالوه بالأمس !

فقيه آخر من رجال أصول الفقه هو أبو الحسن على بن محـــمد الملقب بعماد الدين والمعروف بالكيا الهراسى ، وكان من فقهاء المــذهب الشـــافعى ،

---

(١) على سـ بيل المثال يمكن الرجوع الى الفصل الأول من كتاب يسبرسن ، وفيه تقرير عن ان مهمة الألفاظ هى اشباع الرغبة الاجتماعية عند الانسان .

Jespersen, Mankind, Nation & Individual from a Lingustic point of view. London, 1956.

(٢) Simeon potter, Language in the modern world, P. 10.

يجمع فى تعليقه على أصول الفقه فلسفة اللغة كما يراها الأصوليون فيقول : « ان الانسان لما لم يكن مكتفيا بنفسه فى معايشه ، ومقيمات معاشه لم يكن له بد من أن يسترفد المعاونة من غيره ، ولهذا اتخذ الناس المدن ليجتمعوا ويتعاونوا »(١) . وحتى هنا فهو منصرف الى المنهج الاجتماعى الذى يشرف منه على تفسير الظاهرة الاجتماعية التى تجمع الناس فى المدن ، بغية التعاون واسترفاد المشاركة . وطبيعى أن يحتاج بنو المدن الى اللغة ، فهى وسيلتهم ووعاؤهم : « ان الانسان هو المتمدن بالطبع ، والتوحش دأب السباع ، ولهذا المعنى توزعت الصنائع ، وانقسمت الحرف على الخلق ، فكل واحد قصر وقته على حرفة يشتغل بها ، لأن كل واحد من الخلق لا يمكنه أن يقوم بجملة مقاصده ، فحينئذ لا يخلو من أن يكون محل حاجته حاضرة عنده أو غائبة بعيدة عنه ، فان كانت حاضرة بين يديه أمكنه الاشارة اليها ، وان كانت غائبة فلا بد من أن يدل على محل حاجاته وعلى مقصوده وغرضه ، فوضعوا الكلام دلالة ، ووجدوا اللسان أسرع الأعضاء حركة وقبولا للترداد »(١) ولو تخطينا موقفه المسرف فى « تعقيل » الأشياء كمثل حديثه عن سر استخدام اللسان ورد ذلك الى قبوله للترداد ، فان احساسه بوظيفة اللغة اللازمة لتوزع الصنائع ، وكأن اللغة عنده معبرة عن الموجودات . وكأنه يأخذ من مثل ما قالته جماعة اخوان الصفا ، وهم رجال عصره ، « من فضيلة النطق أيضا أنه كاد أن يكون مطابقا للموجودات كلها كمطابقة العدد للمعدودات ، والدليل على ذلك كثرة اللغات ، واختلاف الأقاويل ، وفنون تصاريف الكلام ، مما لا يبلغ أحد كنه معرفتها الا الله عز وجل »(٢) .

---

(١) المزهر ، جـ ١ ، ص ٣٦

وفى نفس المساق يقول الامام فخر الدين الرازى : « السبب فى وضع الألفاظ أن الانسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته بل لابد من التعاون ، ولا تعاون الا بالتعارف ، ولا تعارف الا بأسباب ، كحركات أو اشارات ، أو نقوش ، أو ألفاظ توضع بازاء المقاصد ، وأيسرها وأفيدها وأعمها الألفاظ ... فلما كانت الألفاظ أيسر وأفيد وأعم صارت موضوعة بازاء المعانى » . المصدر نفسه ، ص ٣٨

(٢) رسائل اخوان الصفا ، جـ ١ ، ص ٣٩١

ويفسر الكيا الهراسى التراكيب اللغوية ، فيذكر أن الكلام انما هو حرف وصوت ، ثم قطعته أعضاء الانسان المشتركة فيما نسميه بجهازالنطق، والذى حده هو نفسه بأنه يبدأ من أقصى الرئة الى منتهى الفم ٠ والتقطيع يحدث ليكون لكل صوت لون(١) ، ثم من مقطعات الأصوات يركب الانسان العبارات ليدل بكل مركب على دلالة معينة ٠ ولما استحال على الانسان وضع لفظ لكل معنى(٢) لجأ الى وضع الأسماء المشتركة فجعلوا اللفظة الواحدة تدل على عدة مسميات ٠ وكانت تلك الملاحظة هي التى دار حولها كثيرون من القدماء من تفسير الظواهر اللغوية المندرجة تحت أبواب الترادف والتضاد والمشترك اللفظى ٠ وفى السياق يقول فقيهنا : « هذا الكلام انما هو حرف وصوت ، فان تركه سدى غفلا امتد وطال ، وان قطعه تقطع ، فقطعوه ، وجزءوه على حركات أعضاء الانسان التى يخرج منها الصوت ، وهى من أقصى الرئة الى منتهى الفم ، فوجدوه تسعة وعشرين حرفا ، لا تزيد على ذلك ٠ ثم قسموها على الحلق والصدر والشفة واللثة ، ثم رأوا أن الكفاية لا تقع بهذه الحروف ، ولا يحصل له المقصود بافرادها (أى بافراد الحروف) فركبوا منها الكلام ثنائيا وثلاثيا ورباعيا وخماسيا ٠ هذا هو الأصل فى التركيب ، وما زاد على ذلك يستثقل ٠٠٠ وكان الأصل أن يكون بازاء كل معنى عبارة تدل ، غير أنه لا يمكن ذلك ، لأن هذه الكلمات متناهية ، وكيف لا تكون متناهية ومواردها ومصادرها متناهية ؟ فدعت الحاجة الى وضع الأسماء المشتركة ، فجعلوا عبارة واحدة لمسميات عدة ، كالعين والجون واللون ، ثم وضعوا بازاء هذا على نقيضه الكلمات لمعنى واحد ، لأن الحاجة تدعو الى تأكيد المعنى والتحريض والتقرير ، فلو كرر اللفظ الواحد تسمج ومج ، ويقال : الشىء اذا تكرر تكرج (أى فسد) ٠ والطباع مجبولة على معادات العادات ، فخالفوا بين الألفاظ والمعنى الواحد »(٢) ٠

---

(١) من أقدم علمائنا الذين عرضوا هذه الفكرة يمكن أن نأخذ عن ابن جنى قوله : « اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له فى الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنية عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا » ٠ سر صناعة الاعراب ، ص ٦

(٢) المزهر ، جـ ١ ، ص ٣٧

حشد من الأمور يجمعها صاحب الكـلام فى أقواله : للغة دورهـا الاجتماعى ، باعتبارها الوسيلة الممكنة لصاحبها من التعبير عن كافة أفكاره أو عن احتياجاته • وذلك ما يقرره أصحاب اجتماعية اللغة ، سواء كظاهرة أو كوظيفة ، ثم هو أخذ بفقه اللغة فيما يمس الأصول التى تتركب عليهـا العربية • ولكنه حين يعرض للتطابق بين المفردات والمعانى تأخذه مناهج أهل الكلام الذين يبررون بالعقل أكثر مما يكتفون بالاستقراء الذى يمكن أن يصل بهم الى الحقائق • ولا شك فى أن مراحل نمو لغتنا وتجمعها من اللهجات ، ونماذجها التى جمعها اللغويون والدارسون من مطويات الأشعار ، هى التى أوقعت قدماءنا فى مثل التفسير المتوارد عنهم فيما يخص المشترك اللفظى • أن تجمع اللغة كل هذا الحشد من التضاد أو الترادف ، مما لقفه المؤلفـون السابقون ، يمثل ظاهرة مضادة لطبيعة اللغة • انه الاستعمال الذى لون كل المفردات ، ثم حين أخذ العلماء يجمعون الألفاظ مستقلة نزعوها من مساقاتها ونزعوا معها المعانى التى اكتسبتها من مواقف ديناميكية ، فى الاستعمال ، وجعلوها ستاتيكية فى القواميس •

وحول قضية المترادفات يقـول اوجدن وريتشاردز : « انهـا تقودنا بطبيعتها الى دراسة « الاستعمال الصحيح » ، ولقد تحدثنا عن معنى الصواب فيما يخص الرمزية • ان الرمز يكون صحيحا حينما يثير محركا مشابها الى ما يرمز اليه فى أى سياق مناسب •

ان الرموز صحيحة حين تثير « صورة ذهنية » مشابهة لما يرمز اليه عند التفسير المناسب • وفى مثل هذه المواقف سيثار قدر معين من الثبات لشىء يمكن أن نطلق عليه المعنى الصحيح ، أو الاستعمال الجيـد • وذلك الشىء الثابت يوصف بأنه معنى الكلمات الواردة فى السياق • والحق أن الثابت هو الصورة الذهنية التى يستحضرها أى فرد من أفراد الجماعة عندما يفسر الرمز فى أية مناسبة من مناسبات الحديث المتصل بهذه الصورة الذهنية •ولا ريب فى أنه من المهم أن لا تتنوع تلك المعانى الا فى أضيق الحدود • ويحق لنا أن نحرص على الاحتفاظ بمعايير متجانسة للمقارنة دون أن نشعر بأنه من الضرورى افتراض أن تلك المعايير قد نبتت بصورة خارقة Supernatural أو أن تكون هى فى ذاتها مما يورث من جيل لجيل •

والاعتقاد السائد بأن الكلمات — بالضرورة — تعنى ما تعنى ناتج من غموض كلمة — بالضرورة — التى يمكن أن تنهض اما للتعبير عن الحقيقة الواقعة القائلة بأن هذا مطلب من مطالب الاتصال ، واما أن تنهض لما يزعم من امتلاء الكلمات بمعان ذاتية ·

وهكذا ثار الجدل رفضا لأن يكون لكلمة « حسن » good ، مرادف ، فهى — من ثمة — بلا مرادفات · والناس الذين يحسنون استخدام هذه الكلمة يتأكدون من استحالة التعبير عن الفكرة التى لديهم بغير ذلك «الرمز» · ومن هذا المنطلق يقال انه ما دامت الكلمة تستعمل استعمالا يقينيا ، فلابد من وجود فكرة فريدة ، لها سمة أخلاقية بسيطة ، أو كما يقال — فى بعض الأحيان — لابد من وجود خاصية متميزة أو « مسند اليه » سواء أسندنا شيئا أو لم نسنده ، وعلى وجه من الدقة فمثل هذا الدرب يقول علماء الرياضة انه اذا لم يوجد شىء على الاطلاق فسيبقى هناك خاصية للعدد ١٠٧ يمتاز بها ذلك العدد ، على سبيل المثال »(١) ·

الاستعمال اذن هو الجوهر المحدد للمعانى · وشرط أن نحسن الاستخدام · ولكن رغم وضوح ما يقوله النص فان حدود الصحة والخطأ تفوت كل المحاولات · عنصر الزمان يعبث بالكثير · وكم من استعمالات بدت خاطئة ثم أكسبها الزمن شروط الصحة والثبات · ومع ذلك فلا شك فى أن جزءا هاما مما تداخل فى عربيتنا من الألفاظ والمعانى كان تفسيره فى الاستخدام لو أنهم وقفوا مع العبارات متمهلين أكثر مما وقفوا مع المفردات · وأحسب كذلك أن تأثير سيبويه وكتابه كان واضحا فى أذهان المتأخرين ، لقد دفعهم ذلك المعلم منذ قال : « اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين ، لاختلاف المعنيين ، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين »(٢) · والفكرة الأولى التى يقررها سيبويه لا اهتزاز فيها ، فذلك هو أصل اللغة ، أما الثانى فهو ما يأتى تحت باب المترادفات ، ويضرب له سيبويه مثلا بقولهم : ذهب وانطلق · وأما اتفاق اللفظين والمعنى مختلف فهو كقولك:

---

(١) Ogden & Richards; The Meaning of Meaning, pp. 206-207.

(٢) سيبويه : الكتاب ، جـ ١ ، ص ٢٤

« وجدت عليه من الموجدة ، ووجدت اذا أردت وجدان الضالة » • ثم يعلق سيبويه : « واشباه ذلك كثير »(١) •

هذه الملاحظة من سيبويه تعاورها المؤلفون من بعده ، فمنهم من راح يبررها : « انما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد ، ليدلوا على اتساعهم في كلامهم ، كما زاحفوا في أجزاء الشعر ، ليدلوا على أن الكلام واسع عندهم »(٢) •

ويرى غيرهم خلاف ذلك « لأن كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه ، ربما عرفناه فاخبرناه به ، وربما غمض علينا فلم تلزم العرب جهله »(٣) • واذا كان من الواضح أن الحروف المقصودة هنا تنتسب الى لغة واحدة ، ومن خلالها جاز أن يكون اللفظان قد وقعا من لغتين الى مستخدم واحد وحسبهما دالتين متساويتين • ولقد كان حرصهم على تفسير التضاد برده الى مثل التبرير السابق ، فلانه كان ملفتا لنظرهم أكثر مما نسميه بالترادف ، ومن ثمة انكره جماعة انكارا تاما(٤) • وليس سياقنا اليه ولكنا مع ذلك نأخذ قولهم : « اذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ،ولكن لأن أحد المعنيين لحي من العرب والمعنى الآخر لحي غيره ، ثم سمع بعضهم لغة بعض فأخذ هؤلاء عن هؤلاء ، وهؤلاء عن هؤلاء »(٥) • كل الآراء أشارت الى الاستخدام أو الى الانتقال من لغة الى لغة • ولا شك في أن الصواب لن يجانب هذين العاملين عند تتبع الظواهر التي أشار اليها سيبويه فيما سبق• وكان من الممكن لو أنهم أخذوا بالمنهج التاريخي ، أن يكتشفوا ما غمض عليهم ومع ذلك فجهدهم كبير ورائع •

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٧ — ٣٦

(٢) هذا — على سبيل المثال — رأي قطرب كما نقله ابن الأنباري في الأضداد ، والسيوطي في المزهر ، جـ ١ ، ص ٤٠١

(٣) ذلك رأي ابن الاعرابي ، وهو يشاكل الصواب كما يقرر فقه اللغة • انظر الرأي في المصدر السابق •

(٤) عرض السيوطي أهم الآراء التي لا تخرج آراء المحدثين عنها • انظر المزهر ، جـ ١ ص ٣٩٨ وما بعدها ، وانظر د• حسن ظاظا : كلام العرب ، ص ١٠٢ — ١١٦

(٥) المزهر ، والرأي غير منسوب •

متشابهات متأخرة

إن ما مر من آراء الأصوليين وآراء الفلاسفة فى تراثنا العربى يؤكد ذلك الاحساس الذى عبرنا عنه من أن جهود علماء العربية فى اللغة تبقى فذة متميزة لأنهم طرقوا جل الموضوعات ونقشوا فى تاريخ الدرس اللغوى علامات ثابتة واضحة · ولقد مرت مئات السنين حتى استطاع الدرس اللغوى فى أوربا المعاصرة أن يتوقف وقفة واضحة مع ما صنعه فردينان دى سوسير **Ferdenand de Saussure** وأصبح اللغويون من بعده يدورون فى فلكه ، سواء اتفاقا معه أو اختلافا عنه ·

من تاريخ الدرس اللغوى :

ولعله من الاضاءة أن نوجز فى بدء هذه الصفحات أهم المراحل التى كانت للدرس اللغوى التى سجلها دى سوسير فى الفصل الأول من كتابه ، وفيها حديثه عن تاريخ الدراسة اللغوية ، وانا اذ أعرض هذه الخلاصة ، ففى النفس رغبة فى تحديد المواقع التاريخية بالنسبة للدرس العربى ثم بالنسبة للدرس الأوربى ، ولن نعرف موقع قدمائنا الطيب الا اذا رأينا مواقع الآخرين ·

يوجز دى سوسير تاريخ الدراسة اللغوية فى أوربا بثلاث مراحل:(١)

المرحلة الأولى : وقد بدأت بما سمى « الأجرومية » وهى التى بدأها اليونانيون ثم تممها الفرنسيون ، ابان عصر النهضة ، وهذه الدراسة ترتكز على المنطق ، ومن ثمة فهى عارية من كل تخصيص علمى خالص للغة فى ذاتها · وهى تستهدف اعطاء قواعد لتمييز القوالب الصحيحة من القوالب غير الصحيحة ·

---

(١) F. De Saussure, Cours de Jinguistique Générale, chapitre premier : Coup d'œil sur l'histoire de la linguistique, (pp. 13 - 19).

هذه المرحلة تمثل جهدا لوضع القواعد ، ولكنها بعيدة عن الأخذ بالملاحظات الخالصة لنغة · ثم بعد تنك المرحلة ظهرت مرحلة «الفيلولوجية» ، واذا كانت الاسكندرية قد عرفت مدرسة « فيلولوجيه » الا أن هذا المصطلح تعلق بالحركة العلمية التى أسسها فردريك أوجست وولف منذ عام ١٧٧٧ وما زالت مستمرة حتى أيامنا هذه ·

وليست اللغة وحدها موضوع الدراسة الفيلولوجية ، التى كانت تستهدف قبل كل شيء تصحيح النصوص وتفسيرها والتعليق عليها ، ولكن هذا الاتجاه مال أيضا الى العناية بالتاريخ الأدبى ، وتاريخ الأخلاق والعادات وما اليها ، ومن ثمة شاع منهجه القائم على النقد "La critique" · وعلاج المشاكل اللغوية يأتى من خلال مقارنات النصوص المنتمية للعصور المختلفة ، ليحدد اللغة الخاصة لكل كاتب وليشرح النصوص التى تأخذ بلغة قديمة أو بغموض خاص ·

وليس من شك فى أن هذه البحوث قد جهزت الطريق الى علم اللغة التاريخى Linguistique historique ، ولكن نفس المنهج يقع فى خطأ واضح ، ذلك أنه يهتم باللغة المكتوبة ويهمل اللغة الحية ، فلقد كانت العناية باليونانية القديمة وباللاتينية هى التى امتصت كل الجهود ·

أما المرحلة الثالثة ، فقد نهضت عندما بدأت مقارنات اللغات بعضها مع بعض · وتلك هى مرحلة « فقه اللغة المقارن » أو « النحو المقارن » · ففى عام ١٨١٦ نشر فرانز بوب Franz Bopp كتابه عن « نظام التعريف فى السنسكريتية ، وفيه قارن السنسكريتية بالألمانية وباليونانية وباللاتينية وبغيرها ·

ولم يكن « بوب » أول من لاحظ نهايات الكلمات ، ولا أول من قرر انتماء هذه اللغات الى أصل واحد ، فلقد سبقه المستشرق الانجليزى وليم جونز (ت ١٧٩٤) وان كانت ملاحظاته المعزولة والجزئية لم تكن كافية ليظهر فى عام ١٨١٦ كتاب يؤكد تلك الحقيقة ·

ومن ثمة فلم يكن « لبوب » الفضل فى اكتشاف أن السنسكريتية أصل

لبعض لهجات أوربية وآسيوية ولكنه أدرك أن العلاقات بين اللغات ذات القرابة يمكن أن تصير « علما مستقلا » ، فالشيء الذى لم يكن قد تم حتى ذلك الوقت هو أن يلقى ضوء على لغة بدراسة لغة أخرى ، أو أن تشرح قوالب احداهما بالأخرى . ولا شك فى انه لولا اكتشاف السنسكريتية لما استطاع « بوب » أن يضع أصول علمه بمثل تلك السرعة . فلقد قدمت له سندا قويا ، الى جوار اليونانية واللاتينية .

والى جانب « بوب » كان العالم اللغوى الممتاز « جاكوب جريم » Gacob Grimm وهو مؤسس الدراسات الألمانية . (نشر كتابه عن الأجروميه الألمانية من عام ١٨٢٢ الى عام ١٨٣٦) .

وكذلك هناك « بوت » Pott الذى قدمت أبحاثه الاشتقاقية أو التأصيلية etymologiques مادة كثيرة بين أيدى الباحثين .

وجاء كوهن "Kuhn" الذى تركزت أبحاثه حول الدراسات اللغوية والميثولوجية المقارنة . وهنالك أيضا « بنفى » Benfey الذى اهتم بتراث الهنود .

ومن بين رجال هذه المدرسة يجب أن يبرز الدور الذى قام به « ماكس موللر » Max Müller ، ج كورتس G. Curtius ، أوجست شليشر Aug. Schleicher

وقد شاركوا جميعا فى الدراسات المقارنة ، وكان كتاب ماكس موللر دروس عن علم اللغة "Leçons sur la science du langage" الذى نشر عام ١٨٦١ مما أكسب ذلك الفرع شعبية خاصة . كما كان "Curtius" واحدا من أوائل الذين صالحوا النحو المقارن مع فقه اللغة الكلاسيكى .

ثم كان شليشر أول من قنن النتائج التى وصلت اليها الأبحاث ،ويعتبر كتابه : مختصر عن النحو المقارن للغات الهندوجرمانية Abrége de grammaire comparée des langues Indo-germaniques نوعا من الدراسة المنتظمة أو نوعا من التتبع للعلم الذى وضع « بوب » أساسه ،

وبذلك فهو اول كتاب يبرز ملامح المدرسة المقارنة التى تعتبر اول مرحلة فى دراسة علم اللغة الهندو ـ اوربى . واذا كان لهذه المدرسة فضل وضع الاصول الاولى نعلم لغة حقيقى فان نقص الاستقراء الذى استندت اليه يمثل بدرة الخطأ الاولى فى مناهجها . واذا كانت المقـارنات مطلوبة وهمة الا أن غياب الجانب التاريخى كان ضعفا فى المدرسة .

ولم يتساءل اللغويون عن الظروف التى تحيا فيها اللغات الا فى عام ١٨٧٠ حينما وضح أن التشابه الذى يربطها ليس الا سمة من الظاهرة اللغوية ، وأن المقارنة ليست الا وسيلة ومنهجا لاعادة بناء الوقائع .

أما علم اللغة الخالص فقد ولد عند دراسة اللغات الرومانية واللغات الجرمانية . لقد دشن « ديز » دراسة اللغات الرومانية بكتابه « أجرومية اللغات الرومانية » Grammaire des langues romanes الذى نشر بين ١٨٣٦ ـ ١٨٣٨ فكل ما كان غيرواضح فى اللغات الهندوأوربية استكمل من خلال دراسته اللاتينية ، وهى اللغة الأم للغات الرومانية . ثم ان الوثائق الكثيرة مكنت من تتبع تطور اللهجات المحلية وكل ذلك أدى الى انزواء الافتراضات لتحل محلها الملامح المحددة .

وحينما نشر الأمريكى « وتنى » Whitney كتابه عن « حيـاة اللغة » 'Vie du Langage' عام ١٨٧٥ كان ذلك هو النبض الأول فى القضية .

وتكونت مدرسة جديدة « مدرسة النحاة الجدد » "Junggrammatiker" وكان كل رؤوسها من الألمان ، ومنهم « بروجمان » Brugmann ، وأوستوف H. Osthoff وغيرهما . وفضلهم أنهم وضعوا كل نتائج الدراسات المقارنة فى منظور تاريخى . وفى أنهم سلسلوا الحقائق فى نظامها الطبيعى .

وبفضلهم ماعدنا نرى ظاهرة لغوية تنمو مستقلة بذاتها ، وانما كل شئ منتسب الى العقل الجمعى للجماعة اللغوية .

ومهما كانت قيمة الخدمات التى أدتها هذه المدرسة فلا يمكن القول بأنها ألقت الضوء كافيا على كل المسألة . وما زلنا حتى اليوم نشعر أن القضايا الأساسية فى علم اللغة العام تحتاج الى حلول .

هذه هى المراحل الحاسمة التى شاء دى سوسير أن يتوقف معها فى مراجعته لتاريخ الدراسة اللغوية الخالصة لعلم اللغة . ومن نهايتها شرع فى القاء محاضراته التى دار حولها أغلب اللغويين المحدثين .

وقبل أن نعرض لبعض القضايا التى درسها دى سوسير وأضاف بدراسته لها شوطا جديدا فى دراسة « علم اللغة العام » وخاصة فى مجال العلاقة بين الرمز اللغوى والفكر الذى يتحرك به ، نقول قبل أن نتوقف مع ذلك ـ نأخذ من لغوى آخر مالخص فيه جهد دى سوسير ـ وذلك حتى يكتمل الشريط ـ يقول « بوتر » : « لقد نهض منهج دى سوسير (١٨٥٧ ـ ١٩١٣) مع ملاحظاته المباشرة للغة ، ولقد امتازت محاضراته فى باريس وجنيف بأصالة فذة . واذا كان دى سوسير لم ينشر كثيرا فى أثناء حياته ، فان دروسه قد نشرت عام ١٩١٦ بواسطة تلميذيه شارل بالى Charles Bally وألبرت سيشاهى Albert Sechahaye تحت عنوان « دروس عن علم اللغة العام » ولن نبالغ اذا ما قلنا أن دى سوسير هو مؤسس علوم اللغة المعاصرة . ولقد عالج أربعة مواضيع فى محاضراته :

١ ـ العلاقة بين اللغة والحديث أو بين العناصر الموروثة فى اللغة ، وهى ما أسماه باللغة langue وبين الاستخدام الخاص الذى يزاوله الناس فى الحديث Parole

٢ ـ تحليل الرموز اللغوية .

٣ ـ التفرقة بين مناهج الدراسة الوصفية Synchronic ومناهجها التاريخية "diachronic" .

٤ ـ الطرق لدراسة التركيب العام للنظام اللغوى .

الثانى منهــا هو المنطوق actualised ، وتظهر العملية أثناء الحديث speech أو la parole حين يتحقق فى أداء صوتى ٠

التصور الذى يثيره الاسم هو ما أطلق عليه المعنى ، Sense ، وهكذا نصل مع « أولمان » الى أن الاسم name يعادل Signifiant والمعنى : sense يعادل Signifiè ٠ ولن تتحقق المعادلات الا اذا كانت اللفظة الأخيرة عائدة الى التصور الذهنى ، وليس للشىء نفسه(١) ٠ وسر الاصرار هنا هو حرص على منح الشىء المعنى وجودا مجردا ، أو على الأقل وجودا غير حضورى ، فذلك هو ما يجعل للحديث عن الرمز موضعا فى السياق ، والا اكتفينا من الرمز بالعلامة التى فيه ، ويصبح كل ظل عقلى لا وجود له ٠

ان الموقف ازاء اصطلاحى « دى سوسير » او اصطلاحى النقد الأدبى لا يغير كثيرا من حقيقة البحث عن الناحية « الرمزية » وراء المنطق اللغوى ٠ واذا كان الانسان قد تحدث طوال عمره بلغة ما ، فان البدايات البعيدة التى أخذ بها منذ تيقظ للدور الاجتماعى ثم النفسى الذى تلعبه فى حياته تؤكد قدم وجود « علم اللغة » حتى وان لم يعرف الاصطلاح الا مع مراحل التدوين والتفكير الكتابى ٠ واذا كان عصر ارتباط التفكير فى اللغة كمجرد أداة سأجرة قد زوحم بالتفكير فيها كعناصر نقدية لفهم مكونات الحياة الاجتماعية عنـد الانسان أو لفهم مكونات التيارات الثقافية التى تشكل المواقف النفسية من الواقع ، اذا كان ذلك قد أصبح مراحل تاريخية أمام علم اللغـــة المعاصر ، فاننا مازلنا نصطنع كل المناهج بغية كشف العمليات العصبية المعقدة التى يقوم بها جهازنا العصبى كله ٠ عند التعبير عن قضايانا ٠ وفى أقل الجمل بساطة ، لا بد أن نتصور سبق الجهاز العصبى لكل نطق خارجى ، أو داخلى ٠ وذلك لأن العلامة اللغوية مع الانسان تختلف تمام الاختلاف عن مثلها مــع الحيوانات الأخرى ٠

ولعل أوضح وجوه الاختلاف حادث عن خضوع « علاماتنا » للتغيير ، وللانتقال ٠ ومراجعة تاريخ عشرات ، بل ومئات من العلامات التى اختفت وخلت أماكنها لغيرها توكيد لفكرة التغيير ٠ والشىء الثانى المميز لموقف البشر

---

(١) المصدر السابق ص ٦٩

فى لغتهم هو ضرورة الالتزام بالاتفاق الجمعى • فهو متحكم دائما عند كل تغيير ، أو استبدال ، أو افتراض ، يحدث فى لغة أو بين لغات • وتتبع هذين العاملين : التغيير والاتفاق يمثل قضية كبرى من قضايا علوم اللغة • ومن درسهما تجتهد مناهج العلوم الحديثة كعلم «الانتروبولوجيا» أو علم « السيكولوجيا » أو « السوسيولوجيا » لاكتشاف مواضع الاهتمام التى يسعى لها كل منها • وليس من الغريب أن نرى نفس المناهج التى قام بها القدماء من علماء اللغة تصطنع اليوم فى العلوم الانسانية كافة •

ان القدماء استعانوا بـ « الملاحظة » لرصد الظواهر اللغوية أو الصوتية ثم بعد أن تم لهم — وفق معاييرهم — ذلك الرصد أو التلاحظ — انتقل النظر من الوصف الى درس التركيب • أى الى درس تأثير ما تمت ملاحظته مع العقل والوجدان • ونفس الروح هو السائد الآن ، فحين يأخذ اللغويون فى تحليل موادهم الى « فونيمات » أو الى « مورفيمات » ثم الى شبه جمل أو جمل ثم الى عبارات أو تراكيب ، فالأمر قياس علمى ، واستفادة بارعة من تقدم فروع المعرفة الأخرى ، ثم هو فى الموقف نفسه قد زود كل الباحثين عن تاريخ الانسان : عقائده وقيمه ، حضاراته وثقافاته بمفاتيح صالحة • ولعل ذلك هو ما يدفع بعض العلماء الى تقرير « ان عالم اللغة هو عالم الاجتماع الوحيد الذى حقق العناصر الأساسية لموضوع البحث »(١) وهم يفسرون ذلك بقدرته على اكتشاف تركيب مادته ، موضع البحث ، ثم اخضاعها لكل منهج علمى يمكنه من تعميق فحوصه واستجلاء استينتاجاته ، ولقد يفوت ذلك الكثير من الفروع التى ما زالت تستند الى افتراضات أو أخذ عينات محصورة، زمانيا ومكانيا • ومع ذلك فمن الصعب الاسترخاء لأن مناهج التحليل اللغوية أو مناهج دراسة تركيبها قد وصلت الى كشف عما يدور بالعقل الانسانى وبكل حواسه حين ينفعل مع جملة ، أو يكون له رد فعل ازاء قول •

الصعوبة تأتى من قاعدة بسيطة لا مشاحة فيها ، نعنى بها أن كل اسم يستدعى مسماه ، بحكم العلاقة المتبادلة بينهما • ولكن ماذا فى الارتباط من استاتيكية ، وماذا فيه من دناميكية !! فحين أسمع لفظ « البحر » أفكر فى

---

(١) International Encyclopedia of Soc. Sciences, Vol. IX art. language, written by William Bright. (P. 18 sqq).

ذلك الكم المائى المسمى باللفظة · ولو أننى فكرت فيه فسانطق باللفظة ضرورة · سيان فى ذلك منحت اللفظة طاقتها الصوتية المسموعة أو حبستها عنها ·

مثل ذلك التداعى بين الاسم والمسمى به يأخذ عند التحليل سمتا آخرا هو الارتباط بين الصورة الصوتية والمضمون العقلى · ولا تبقى الصورة الصوتية مجرد علاقة دائما وانما هى رمز Symbol - يحرك شيئا مرتبطا به ذهنيا · والارتباط الذهني هو أهم ما يفرق العلامة عن الرمز ·

واذا كان كل منهما قادرا على التعبير عن شىء آخر غيره ، الا أن العلامة - أيا كانت - ترتبط بمدلولها ارتباطا مباشرا ، وهناك نوع من الاشارة المباشرة ، فاشعة الشمس مثلا علامة على أن الشمس طالعة ، والسحاب الأسود علامة على المطر ، أما كلمة « الشمس » أو « المطر » فهى » رمز » للشىء المسمى · ومن ثمة يصبح كل ارتباط بمسمى عن طريق غير « اشارى » أو « علامى » ، وبواسطة صوت لغوى نال حظوة الاتفاق الجماعى - مهما كان محدودا - هو النهج الذى نسلكه لنصل الى معنى اللفظ · ، وحينئذ يصبح حد المعنى مشدودا الى العلامة التى تمكن كلا من الاسم والمسمى من اثارة الآخر · وحين تحل « الاثارة » وسط مصطلحنا الوقتى فنحن أمام عملية دنياميكية ، وكأن الوضع الثابت أو - الاستاتيكى - لما نصطلح على منحه « المعنى » · قد اكتسب حقيقته الجوهرية من أنه ديناميكى · ويدل هذا المعنى عند البحث عن « الدلالة » عن دوره المبتقل ، ذلك أنه تحول « الى علاقة أو الى خط القوة والجذب الرابط لهذه الاصطلاحات بعضها مع بعض »(١) ·

وفى الكتاب الذى ألفه « السير الان جاردنر » عن نظرية الحديث واللغة، أصر المؤلف على التفرقة بين « المعنى » الذى يساوى عنده المسمى - والشىء

---

(١) Ullmann; The Principles ... P. 70.

المعنى Thing-meant — أى ما يرجع اليه ، وهو المرتبط ذهنيا بالعلامة اللغوية(١) ٠

وتفسير موقف «جاردنر» هو أنه لا يستبعد من محاضرات «دىسوسير» حول الرمز اللغوى أنهـا تجميد لقـدرة الانســان على تحريـك ما يعتبره دى سوسير رمزا من مجال الى مجال ٠

والرمز عند « جاردنر » رهين باستخدامه لحظات الحديث ، وكل اهمال لذلك سيجعل اللغة مجموعة من « المفردات » ٠ والحق أن « دى سوسير » لم يفعل ذلك الأمر ، ففى فصل فى كتابه يتحدث مؤلفنا عن طبيعة العلاقة اللغوية فيقول :

« ان بعض الناس حين يرجعون اللغة الى أوليتها يرونها مجموعة من المفردات **nomen clature** أى كشفا بمصطلحات تقابل ما يماثلهـا من الأشياء(٢) ٠ وعنده أن مثل ذلك التصور يجعل الأفكار حاضرة ، وكأن على واضعى اللغة مجرد اختيار العلامات ٠ ومثل ذلك الفرض مرفوض ، لأنه حتى عند الحديث عن مثل ذلك الوضع تضيع الاحساس بطبيعة الاسم الذى وضع ، أكان صوتيا مباشرا أم نفسيا مرتبطا باستخدام معين ، وكلمة مثل « شجرة » arbor يمكن أن تقدم تفسيرا — للمحللين — على أساس أن لها وجودا معينا ، وهى خلاصة مستمدة من أنواع عـديدة من الأشجـار ذات الأسماء المعينة ٠ وكأن افتراض وضـع الأسماء بمجرد وجـود رابط يناقض الخبرة اللغوية أو التحليلية اللغوية ، ولنفس هذا الاحساس يقرر ذلك العالم أن العلامة اللغوية **le signe linguistique** لا تربط بين شىء واسم ولكن بين مفهوم concept وصورة سمعية أو صوتية image acoustique

(١) Sir A. Gardiner, The theory of Speech & Language P. 59.

(٢) De Saussure; Cours ... P. 97.

الدلالة والصورة :

الألفاظ لم توضع ، كما أنها لا تستعمل ، لتعيين الأشياء بذواتها ، فهي محركة للمعاني الرمزية فالانسان يمتلك من تجاربه ، ومن تجارب أترابه ، رصيدا هائلا من الصور الذهنية الكامنة ، فعندما تقول : « رجل » لا يمكن أن يثير هذا اللفظ في نفوسنا شيئا ما لم يكن في ذهننا صورة للرجل ، اللفظ رمز لها ، ومحرك (١) • وتحرك الصورة شيء بالغ التعقيد • وكل معنى حادث عن تداخل دائم بين سلسلة من العلاقات أو عن علاقات بشرية يحملها ما نسميه بـ « المعنى » ولم يكن ما قاله الأصوليون عندنا ضربا من التقعر اللغوي ، حين قسموا دلالة الألفاظ الى ثلاثة مستويات (٢) :

١ ـ تلك التي أسموها « دلالة التطابق » ، وهي نوع من التطابق بين اللفظ الذي ننطقه والدلالة المشار اليها • ومثالها : أن « البيت » يطلق على مجموعة الجدران ، وان « المدرسة » تطلق على مجموعة الفصول ، وهكذا تتطابق الدالة مع المدلول عليها •

٢ ـ الثانية التي كانت ، هي دلالة تضمن ، دلالة تفيد فيها الدالة وجود جزء في المدلول عليه ، لا يستغرق كل اللفظ ، ومثالهما : لفظة « الانسان » وتضمنها معنى « الحيوانية » أو لفظ « البيت » وتضمنه معنى السقف •

٣ ـ آخرها هو دلالة « التلازم » أي أن الدلالة يلزمها جزء آخر لا تكفي الدالة لحملة •

مثال قولنا : « السقف » فانه يستلزم صورة الجدار الحامل له ، أو قولنا : « المخلوق » يستلزم الدلالة على « الخالق » •

ومع مثل هذا الجدل فان القضية توشك أن تنفصل عن الفكر البشري حين يدور الجوار حول « اللفظة ومعناها » تطابقا وتضمنا ولزوما ، ولذلك

---

(١) دكتور محمد مندور : الميزان الجديد ، ص ١٤٣ •

(٢) يمكن استقصاء التقسيمات في مثل كتاب الدكتور علي سامي النشار ، ص ٢٧ وما بعدها : « مناهج البحث عن مفكري الاسلام » •

كان الحوار الذى استكمل المجال هو « الذى تناول علاقة الفكر · وأصبح علم اللغة يرى أنه يستحيل أن تحمل الأصوات مستقلة أو مركبة أية دلالات دون مساندة دائمة من تفكير المتحدث والسامع · واشتراك العقلين : المرسل والمستقبل ، هو القناة الأساسية التى تكشف لنا عن دلالة العلامات اللغوية ومدى اقتناص رمزيتها من كلا الجانبين · وحين نستحضر فى الذهن متحادثين من أبناء لغة واحدة ، ولكنهما على مستويين مختلفين من الثقافة والاهتمامات الحضارية ، فان كل محاورة بينهما لا تصل بهما الى استخدام لغوى واحد · ولن نتردد في القول انهما يستخدمان لغتين ، حتى وان جرت الأصوات اللغوية على جهازى نطقهما · فلو تصورنا الشاعر ذا الرمة مثلا ينشد قصيدة له فيمن لم يألفوا معجمه الشعرى فلقد تكون لهم تعليقات — صوتية — كذلك ، ولكن لن يصح زعمنا أن حوارا مستندا الى « الرموز » اللغوية قد جرى بينهم · و نثير من المواقف المسرحيه التى يصنعها المؤلفون تلعب دورها حين تزيد المفارقات والمناوشات النفسية على التفاوت العقلى ازاء المقامات اللغوية · وليس من العسير تقرير أن مثل هذه المقامات ناهضة على الجمل أكثر من نهوضها على المفردات ، ومع ذلك فلم يكن « النظم » أو « التأليف » كافيا لازالة الفواصل ، ولن يتم ذلك الا باستكمال الطاقة المفكرة التى لا بد لكل من الأطراف المتحاورة من انفاقها أو اضافتها الى ما عند الآخر · فلا يكفينى عند سماع جمل أو عبارات من محاورى أن ألتمس فيها معانى وحداتها ، ولكن على دائما أن أضيف الى ما وصلنى · وقد تكون اضافتى مسايرة للتيار الذى امتد بينى وبين رفيقى فى الحديث ، وقد تكون معارضة أو ربما تكون عائمة بين هاتيك · ومهما يكن الموقف فان الاشتراك العقلى بين المتحادثين هو الذى يمنح « الرمز » اللغوى جدواه ، والا صار مجرد علامة أو فى بعض الأحيان مجرد ضوضاء : « ان سيكولوجية اللغة تمثل مظهرين أحدهما للمتحدث والآخر للسامع ، ولا بد أن تكون هذه السيكولوجيات حينما يعبر عنها المتحدث بالكلمات فى متناول فهم المستمع أو المستمعين ، وان فات ذلك فلن ينتج الا عدم الفهم والتخليط · ولو أن المتحدث من وجهة النظر السيكولوجية ، قدم أفكاره التى لا يمتلك مستمعه عنها معرفة كافية ، أو لو أن عقلية السامع رفضت — تمردا — الاستجابة لتلك الأفكار وعزفت

عن مناقشتها أو اعتبارها ، فلن يتم تفاهم حقيقى بين المتحدث والسامع حتى لو أن الأول نطق كلماته نطقا سليما ، والتقطها السامع التقاطا كاملا ٠ ونفس الشيء يحدث حين يعجز جهاز النطق عند المتحدث عن توضيح الكلمات للسامع ، فلن يتم الحوار والفهم »(١) ٠ ولو أننا أخذنا من مصطلحنا الدارج مثل العبارات : « خانته الألفاظ » أو « المعنى فى بطن الشاعر » ثم أمعنا فيها النظر لوصلت بنا الى فلسفة لغوية واضحة ، انهما وأمثالهما تدوران على وظيفة اللغة الجوهرية ، انها توكيد لاتحاد كامل بين « اللفظ » و « المعنى » ، ولن يحدث ذلك الا تحت قبة متجانسة — أو على الأقل متقاربة — من الفكر ٠ وصحيح ان اللغة — بطبيعتها — محافظة ٠ أى أن حكم الارتباط الدائم بينها وبين الانسان جعله يسعى الى تثبيتها على قدر ما يستطيع ، ففى الثبات جذر له فى الماضى ، وبدون ذلك لن يسترفد مثّلاً ينهض عليه مجتمعه سواء فى الجانب الروحى أو فى الجانب المادى ٠ ومع ذلك فتمتاز العصور الحضارية للحياة بخصائص معينة ، وهذا يكون الصراع بين محافظة اللغة وبين الآفاق الجديدة ، التى تكون اللغة بلا شك من العوامل التى تساعد على الاشراف عليها ٠ وتحل المشكلة من خلال استخدامات انشائية جديدة ، وكل منشىء : حادث ، يفصح عن « دلالة » حادثة ، وهذه القاعدة يستتبعها تحول فى النظام الصوتى ٠ ولن يتوقف مثل ذلك التحول على مورفولوجيتها — أو على نظامها الصرفى — ولكنه كثيرا ما يكون فى فونولوجيتها أو فى طرق الأداء الصوتية ٠ وعلى قدر الارتباط بين اللغة المنطوقة ، أو اللغة الحية اليومية ، واللغة المكتوبة يكون تلمسنا لهذه التحورات ٠ ذلك أنه كلما ضاقت المناطق الفاصلة بين اللغتين كانت التحورات أقل وقوعا ٠ وتبرير ذلك أنه عند كل اتهام لمتحدث بالخروج عن الروح المحافظ للغة ، أو لكاتب لمجانبته تقاليد السلف ، لا يجد ملاذا له الا فى اعتماده على اللغة التى تقرع أذنه كل يوم ، ويخيل اليه أن نبض الحياة بها أكثر دفئا ٠

---

(١) Gray; Foundations of Language P. 8.

اللغة والطبع :

اذا كان علم اللغة يسعى لتقديم تفسيرات أو شرح أوضاع ، فمن الحق أن نقرأ من قدماء نقادنا قد وضعوا أصابعهم على القضايا ، قضايا التباين بين الأداء الصوتي والمضمون الفكري . ورغم ادراكهم لدور « الطبع » عند اختيار القول ، فان حسهم ببقية البناء اللغوى كان واضحا وشفافا . ومن خير رجالنا الذين مثلوا الاحساس كان القاضي الجرجاني ، يقول : « وقد كان القوم يختلفون في ذلك (التعبير الشعرى) ، وتتباين فيه أحوالهم ، فيرق شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ، ويتوعر منطق غيره ، وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ، فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة . وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجافي الجلف منهم كز الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب ، حتى انك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته . ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبي صلى الله عليه وسلم : من بدا جفا — ولذلك تجد شعر عدى ، وهو جاهلي ، أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان ، لملازمة عدى الحاضرة وايطانه الريف ، وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب ، وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك ، فان اتفقت لك الدماثة والصبابة وانضاف الطبع الى الغزل ، فقد جمعت لك الرقة من أطرافها »(١) .

حين نصفي هذا النص الهام من الأحكام النقدية أو القيم الجمالية التى يستشعرها صاحبه في شعر واحد من الشعراء دون آخر ، أو حين يفسر أثر البيئة على الشاعر فان ثلاث حقائق أساسية تبقى ، وهى مما يهتم به علم اللغة الحديث :

الأولى : تظهر في قوله ان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع . والجرجاني لا يقصد بالسلامة هنا كما يقصد غيره الذين آثروا لغة البادية ، لفصاحتها

---

(١) الوساطة : ص ١٧ — ١٨

أو لبعدها عن لين لغة الحواضر والأمصار • انه ببساطة يريد العبارة التى تتفق مع الموقف النفسانى ، مما يحدث عنه سلامة النظم أو التأليف •

الثانية : « ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته ، وفى جرسه ولهجته » • وأظن أن الجانب الذاتى الذى يتميز به كل انسان يتضح فى هذه اللمحة ، والدراسة الفنولوجية المعاصرة ما عادت تكتفى بشرح مخارج الحروف وأوصاف أجراسها ، انها تريد الكشف عن النظام الصوتى ، وهو متفاعل مع الألفاظ التى يختارها الشاعر ثم هو مرئى من خلال النغم والجرس • ولو تذكرنا ما أثاره « دى سوسير » عن الحديث La parole، فلن يضيق علم اللغة بملاحظة الجرجانى الذكى •

الثالثة : ان رقة الشعر تأتينا من قبل الشاعر العاشق الذى ينضاف طبعه الى غزله • وهو توكيد لسيكولوجية اللغة التى تجعل من التأليف صنوا للموقف النفسانى ، بل هو الرداء والروح اللذان نستمتع بهما ، وعنهما نعرف بعض ما فى الاعماق •

هذه القضايا تمثل حقولا ما زال علم اللغة يحاول أن يستكشفها • واذا كان الجرجانى قد وصف الوضع وحدد معالمه ، فان التنقيب عن سر ذلك هو ما يشغل به المعاصرون حيزا من ضروب نشاطهم • واذا كانت رعاية الناحية الصوتية ، سيان فى ذلك سلامة اللفظ أو حركته الاعرابية تمثل رعايتنا التركيب الظاهرى للعبارة ، فان رعاية المعانى والتفتيش عنها واحاطتها بالتهيؤ النفسانى يمثل ما يمكن أن نسميه بالتركيب البعدى • ولن ننجح فى تثقف المنطق اللغوى المتكامل الا اذا كان الجانبان — الظاهرى والبعدى — قد حققا لنا ما نصبو اليه من أغراض لغوية • ولعل الناظر فى أقسام المسميات لعلوم اللغة يدرك خلطا واضحا بين الفروع المتجاورة • فنلحظ التداخل بين علم الاشتقاق وعلوم الصرف ، والفرعان ، من بعد يختلطان بعلم دلالة الألفاظ • وهذا الأخير يصعب أن نجنبه بعيداً عن علم التراكيب أو عن علم النظم والانشاء • ولا تفسير لهذا الاشتباك الدائم الا بطبيعة اللغة ذاتها التى تتمرد باستمرار على كل الحدود ، بحكم أن الحدود أوضاع منطقية أو فكر منطقى يسعى للتقنين ، وكثيرا ما يشب طوقها عن

القوانين . وكما تمتزج الدلالات بالفروع السابقة ، يحدث الشيء نفسه حين نستعرض علوم المفردات عند وضع المعاجم وأصولها ، وكل ما يتحرك آنذاك من آثار الصوتيات ، وذاك سر ارتفــاع بعض النداءات التى ترى أن رعاية الصوتيات تقترب من رعاية الدالات فالدلالات . ان كل دراسة للغة تنهار معها كل الحدود التى تحد الفروع . فاللغة لا تنهض الا بالناحيتين الانفعالية والمنطقية وذلك سر خلودها وحيويتها .

ويتناول « جاردنر » القضية فيقول : « ان الألفاظ — فى طبيعتها — تعتمد على ناحيتين : الناحية الأولى هى المعــانى والثانية وهى الصــوت . واستخدامنا للألفــاظ يعنى طلبنا منها للناحية المعنوية ، ويعنى نطقنا لهــا بالصوت من جهة أخرى . واذا كانت الصور الصوتية صالحة لأن نعيد نطقها كلما أردنا ، فان الواقع النفسى لا يغيب عن تطوره كلما عدنا الى الصوت . وهذا سر كون الألفاظ مواد للتعليم واكتساب المعرفة »(١) .

وفى تراثنا كانت الدراســـات النحوية والصرفيــة ضربا من الرعاية للغة ومن سوء الحظ أن هذه الدراسة لم تأخذ دائما بالمناهج الكفيلة بانضاج ثمارها . ومن الحق أنه بدون معرفة الصواب والخطأ ، ومعرفة صيغ الاشتقاق تبقى معارفنا اللغوية ناقصة . وكان أخطر ما عرقل دراسات السابقين هــو خضوعهم لمقولات منطقية غير كافية ، مثل تقاسيمهم لأنواع الكلمات ، وكان أيضا لاعتمادهم على استقصاء ناقص لطرق الأداء اللغوى عند القبائل العربية المختلفة . ثم كانت معالجتهم للكثير من النماذج معالجة مستقلة عن المساقات النفسية والحضارية التى كانت تحيط بالنص حين أبدع أو سجل . ولقــد أخذ مبحث الاشتقاق الــكثير من الطــاقات . وسر بعض الهباء به أنه كان « يبحث المفردات اللغوية كما تقدمها لنا اللغة ، لنسير بعد ذلك صعدا فى البحث عن منشئها ، وتاريخها ، ومراحل تطورها الذى أدى بها الى الحالــة التى نجدها عليها بعد أن استقر أمر اللغة »(٢) .

ومثل هذا التقرير يقف بنــــا أمام حالة يسيطر عليهــا روح تاريخى

(١) Gardiner; The Theory of Speach & Language, P. 69.

(٢) محمد المبارك : فقه اللغة ، ص ٥٢

جاف ، والأصل فى الملاحظة اللغوية أن تستـــند الى شبه ما عبر به الامام الشافعي وقد سئل عن مسألة فقال : « انى لأجد بيانها فى قلبى ، ولـكن ليس ينطلق بها لسانى »(١) . وليس الذى ينشده الشافعى — رحمه الله — هو توكيد عجز اللسان ، وانما يقصد الجانب النفسى أو الجانب السحرى ، الجمالى ، أو المبهم الذى هو ركن من أركان اللغة ، وبدونه تتحول الى علامات اشارية فاقدة لكل جهد رمزى . ومن الريخ ذاته يعبر « فندريس » عن قلقه من الدراسة الاشتقاقية : « ان الاشـــتقاق يعطى فكرة زائفة عن طبيعـــة المفردات .. لأن كـــل ما يعنى به هـــو أن يبين كيف تكونت المفردات ، والكلمات لا تستعمل فى واقع اللغـــة لقيمتها التاريخية ، فالعقـــل ينسى خطوات التطور المعنوى التى مرت بهـــا ، ونقول ينساها اذا افترضنا أنه عرفها يوما من الأيام . وللكلمات دائما قيمة حضورية »(٢) .

ولرأب الصدع فى تراثنا نهض اللغويون بكتبهم اللغـوية يستكملون الفحوص . سواء تلك التى اهتمت بالغريب أو بالمشـــكل أو بالخصائص أو بمعاجم المعانى ثم بالنظريات الدائرة حول علم المعانى(٣) .

وكل القضايا التى تدور حولها هذه الكتب يمكن أن نأخذ فلسفتها فى قضية واحـــدة : هى الصراع بين النظر الجامد للغـــة والنظر الحى . الأول [illegible] ومفاهيم يستمدها من روح المحافظة . والثـــانى يسعى الى تبرير بعض القديم ويأخذ بالحديث . يأخذ بأن التصـــور العقلى للمضمون ينهض أمام الذهن على ما يشبه عمليتين متكاملتين : الأولى هى الأداء الصوتى بكل ما يتولد عنه من المقاييس ، والثانية هى الخضوع للحدس اللغوى الذى يدفع الى اختيار وحدات دون أخرى . وحينما تتحد العمليتان فى المتـــابعة الصوتية فنحن أمام صور ذهنية سواء كانت ماهياتها حاضرة أم غائية .

واذا كان الخلاف حول تشريح عمليـــة الأداء الصوتى لم يتعد قديمـــا الاهتمامات الفسيولوجية ، وما نتج عن ذلك من خلافات فى تغيير أوصـــاف

---

(١) الجرجانى : الوساطة . ص ٤٣٠

(٢) اللغة : ص ٢٢٦

(٣) للدكتور محمد كامل حسين بحث طيب فى مآخذ على علوم الفقه عند القدماء . ألقاه فى الدورة السادسة والعشرين للمجمع اللغوى ونشر بمجلته ، ص ١٤٥ — ١٩٣

الحروف وتحديد مخارجها ، ثم اذا كانت نفس العملية تسعى فى السنوات الأخيرة لتحديد وظيفة الفونيمات والمورفيمات فى البناء اللغوى ، فاعتقد أنه لا القديم ولا الحديث بقادر على أن يستوعب الحس « الجزافى » الذى يختاره المتحدث لمتابعته الصوتية حين يريد منهـا دلالة ، ثم حين نلتقى معه ، أو نختلف عنه ، فى التقاط الدلالة • ان الدالات فى مواقعها ترتكن عند فحصها الى تفنيد اعتباطى أو الى تفنيد يمليه المستقبل عـلى النص • وكأن الرموز اللغوية قد خضعت لاختيار وتواضع هندسى •

حول فلك الاسم والمعنى :

ألقى « دى سوسير » بنظريته عن جزافية « الدالة » وحاول أن يتتبع مراحل افتراض هذه الجزافية حين وقف مع العلامة "Signe" وتحولها الى Signifiant • وفى مقابل نظريته يأخذ القائلون بـ « المواضعة » الرموز اللغوية ويلقون بها فى حومة الجدل كذلك • ونصل الى « أن هناك اتفاقا عاما على المواضعة الطبيعية حول المعنى اللفظى ، ولكن الآراء تختلف حول النقطة المعينة التى تدخل فيها المواضعة الى العلاقات الخاصـة بالدلالات ، وهنـاك أيضا عدة تقـديرات متفاوتة بالنسبة لأهميـة المواضـعة ، والمبررات "Motivation" فى كل النظام المعجمى »(١) •

هذه المواضعة الطبيعية وما يحيط بها من مبررات هى التى تكون لكل انسان عالمه الفكرى ، شريطة أن يستوعب من خلال ذلك العـالم الخاص ، العالم الأكبر أو المحيط الأعظم « ان عـالم الفـكر The thought world هو العالم الصغير (Microcosm) الذى يحمله كل انسان معه ، وبه يقيس كل شىء ، فيفهم كل شىء بالنسبة لعالمه »(٢) • ومع ذلك فان هذا العـالم الصغير لن يتطابق — ولو جزئيا — مع المحيط الأعظم الا من خـلال لحظات معينة يتواقع فيها الاتفاق ، وتبدو مبررات اختيـار « الدوال » منتمية الى اختيار « الدلالات » أو أن التوافيق تأخذ مدلولها الرياضى •

(١) Ullmann; The principles ... P. 35.

(٢) Simeon Potter ; Language... P. 173.

ويتناول « أولمان » فكرة المواضعة حول المعنى Conventionality of Meaning فى عرض دقيق ، احسب أنه لا بـد من تتبع بعض أجزائه · ان كل الثقات من اللغويين يتفقون على أنه لا سبب أساسى لتسمية "arbor" (شجرة باللاتينية) بلفظ tree بالانجليزية · ولا شىء يبرر القضية نفسها معكوسة · وهم متفقون كذلك على أنه لا ضرورة لتكون لفظة tree دالة على الشجرة ، وليس على شىء آخر · وينعكس جانب التواضع فى العلاقات الدلالية من وجهة النظر الوصفية Synchronistically مع امكانية تعدد المعانى كالمترادفات والمشترك اللفظى · ان نفس هذه المواضعة تنعكس من الوجهة التاريخية diachronstically فى امكانية تعدد التغير اللغوى ، وسواء من الناحية الصوتية أم من الناحية الدلالية · وكل ذلك ينعكس بشكل واسع وكلى فى اللغات المختلفة ، التى تتخذ أسماء مختلفة لمعنى واحد أو متقارب مثل : الانجليزية والألمانية والفرنسية التى تعبر عن الشجرة بالألفاظ tree - baum - arbre ، أو تنعكس حين تتخذ اللغات اسما واحدا متوافقا أو متقاربا ، للتعبير عن معان مختلفة · مثال ذلك أن لفظة Tear الانجليزية تعنى الدموع ، ولفظة tir الفرنسية تعنى طلقة أو قذيفة ، ولفظة tier الألمانية تعنى حيوان · ولا يوجد سبب لهذه الخلافات الا عند التسليم بدور المواضعة ، وهو ما تم الاتفاق عليه ·

المواضعة حول المعانى اذن ضرورية سواء اتخذت اللغات أسماء مختلفة لمعنى واحد أو اتخذت أسماء متشابهة لمعانى متعارضة · ومع ذلك فوضع الاسم ليس أقل طلبا للمواضعة العامة عما كان عليه الأمر عند التواضع حول المعنى · وفى جدله حول المواضعة على الاسم Conventionality of name يعرض « أولمان » القضية بالتساؤل :

هل هناك ضرورة لوجود كلمة انجليزية للتعبير عن arbor

ومن الواضح أن الاجابة : نعم · السبب هو وجود شىء خارج عن اللغة ، extra - linguistic reality له سمة خاصة فلابد أن يعطى اسما -

واذا كان الوجود الحسى للشجرة ، ولو مستخلصا من غيره ، يبرر ذلك فان المجردات abstractions تنال نفس التبرير · ولو انهار الفرض ، او لو أن البحث عن الرابط الذهنى بين الاسم والدلالة المجردة وصل الى طريق مسدود فان الخطأ يكون من تعسف الافتراض · اننا نستخدم الألفاظ لتشير الى أشياء فى العالم المحيط ، أو علـى الأقل نستخدمهـا ونحن مؤمنون باستخدامنا لها على تلك الصورة · وهـذه التبريرات الأساسية لا تعنى بالضرورة حتمية لا يمكن الهروب منها · فالعالم الخارجى أو مملكة الأشياء التى نرجع اليها ، يمدنا فقط بالمواد الأولى للخلق اللغوى · ومن الممكن أن يلقى الانسان هذه المواد بالانتخاب من بين المحيطات ، أو بالتحليل ·

والمطاف ...

كان - دائما - حول الدلالة أن تركزت جهود اللغويين والنحاة والمفكرين . وحين ننظر لاستجلاء مواقع قدمائنا يتوقف النظر مع الدراسات الصوتية التى نمت مع الخليل بن أحمد : كان تتبعه لمخارج الحروف ، أوصافها وأنغامها ، وكانت تقنيباته للمواد اللغوية ، وتقطيعاته للأوزان الشعرية ، كلها محاولة واحدة لتحديد منهج فى فهم اللغة ، وعلاقاتها بأصحابها .

ثم من بعده كان « الكتاب » الذى صنعه سيبويه ، وهو وان اهتم بالقاعدة أو بالخصائص الاعرابية ، فقد كانت خلاصة فلسفته قائمة على القياس ، والقياس ضرب من المنطق المستند الى الدلالات ولذلك لن تتأخر القاعدة التى تأخذ الاعراب فرعا للمعنى ، فبه تتضح المعانى وتبين مواقع الألفاظ حين تتعاورها المنازل . واذا كان جدل النحاة ، أصحاب البصرة وأصحاب الكوفة ، وغيرهم ، وقد اتسم بانتمائه الى شيء من العصبية فلا شك كذلك فى أن « الدلالة » كانت هى الثمرة التى يلوح بها كل مناوش .

شيء هام يجب أن نراه هنا ، ذلك أن الأصل فى رعاية النحو لم يكن كما نستسلم عادة لأخبار أبى الأسود الدؤلى وابنته التى سألته : ما أجمل السماء . وما الى ذلك من نوادر . ولكنى أزعم أن القراءات القرآنية هى التى حركت العقل اللغوى ليقف مع مألوف أدائه ويمعن التأمل فى وجوه من القراءات رأى فيها سمات لغوية خاصة من لغات القبائل العربية . كل القراء الذين بزغوا فى ذلك الفن ، فى عصره الأول ، كانوا من كبار النحاة واللغويين ، ولذلك يقرر المتأخرون أنه كم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يعتبر انكارهم ، بل أجمع الأئمة المقتدى بهم من السلف على قبولها . وهؤلاء الأئمة يحددون موقفهم وفق قاعدة أصيلة ، هى أن

« أئمة القراء لا تعمل فى شىء من حروف القرآن مع الأفشى فى اللغة ، والأقيس فى العربية بل على الأثبت فى الأثر والأصح فى النقل والرواية · اذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير اليها(١) ·

ولم يطل المقام الذى استقلت فيه المباحث الجزئية بالحقل ، فما يكاد القرن الثالث يثمر تراثه ، ترجماته وقضاياه ، الا وقد أصبحت البلاغة الممتزجة بالنقد صاحبة الريح الذى يلهب البحث عن « الدلالة » · وهناك أقسام البلاغة : بيانها ومعانيها وبديعها : وأسهم النظر الى الفروع فى وضع أصول معارف عديدة : معاجم المعانى ، ومعاجم الاشتقاق · وازدهر الاختصام بين القديم والجديد ، وكلاهما مستهدف « دلالة » من خلال التراكيب بعد أن بدت أغلبية الألفاظ متعاونة · وفى تلك الحقبة استطاعت العربية ، بعبقريتها ، أن تستوعب كل الفيض الوافد مع تمثل الحضارات الجديدة التى أنضجها الفكر الاسلامى بمرونته المدهشة وشجاعة عقول علمائه · كانت اللغة هى المعبر للدلالات الفكرية والثقافية بكل متشابكاتها العقدية والفقهية والفنية ·

وكان من أروع ما أشرقت به الدراسات اللغوية ، تلك النظرية الواضحة التى تنفرد برعاية « النظم » · لقد أوشكت آراء عبد القاهر أن تكف الأيدى عن تناول المفردات كوحدات مستقلة ، مهما نسب اليها من تلائم حروفها أو فصاحة بنائها ، ومع التسليم بعبقرية الجرجانى فى تحديد معالم نظريته ، فالكثير منها مرتد الى ابداعه الخاص ، أقول ، مع ذلك فلن يصعب على من شاء أن يتتبعها أن يرى جذورها عند الجاحظ أو عند أوائل المفسرين كابن عباس وعكرمة · أولئك الذين لم يتوقفوا مع المفردات قدر توقفهم مع النص المتكامل ، يستفتونه ويلتمسون من لبناته الرفد والعون لاستخلاص الدلالة العامة · سواء كان المنهج مع أهل الظاهر أو مع أهل

الباطن . وكلاهما يمثل موقفا متمايزا من الاستخدام اللغوى فيما بين الذى يسمى بالاستخدام الحقيقى أو الاستخدام المجازى .

ثم : اذا كان عصر ذهبى قد أثمر لنا ما سجله ابن جنى والجرجانى والآمدى ، فان ركودا طويلا قد لف اللغة فيما بعد ، ولن نستطيع الحديث عن تخلف واظلام الا اذا كان عقلنا فطنا الى ان اية نقيصة لن تفهم دون تشرب جمود « الدوال » وتحولها الى أردية خلقه ، تنازلت عن الجدة ، مع تنازلها عن اضافات دلالية جديدة ، فكل استخدام جديد لأى من الدوال اللغوية هو بمثابة خلق مبدع .

وما فات فى عصور التخلف هو الأمل الذى بزغ مع النهضة الحديثة . لا أمل فى حياة يزكيها الجديد الا مع استخدام الدوال استخداما مشنعا . أو لنقل : ان تكون لغتنا فاعلة مع الحياة أو رادة لفعلها النشط فذلك هــو التجديد . وأحسب أن نظامنــا اللغوى يخضـــع لضغط مستمر من أجهزة الاعلام المروعة ، ويخضع أيضــا لمشيئات النظم السياسية والاقتصــادية المختلفة التى نعيش فى كنفها محاولة أن تسجى ردود فعل القادرين عــلى اثارة المحدث من الدلالات ، وسيبقى التجاوب بين الموقفين حتى ينثنى واحد منهما للآخر ، ان كل الدراســات التى تدور حول اللغة فى عصرنا آخــذة بآصرة الدلالة . فهى مستهدف البحث والتنقيب ولذلك أصبحت المعــارف التى تميزت بمناهج مستقلة تترافد مع الدرس الدلالى . هناك علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والرياضة والطب كلها ــ وغيرها ــ يقــدم زادا لفهم وظائف « الدوال » وكيف تنجح فى تحريك الصور الذهنية أو سر عجزها . بل ان الكثير من تلك المعارف تصطنع منهج « علوم اللغة » القائمة عــلى التحليل الوصفى ، والمالكة للمادة موضع البحث حتى تتوصــل الى سرها وفقهها . علم النفس يهتم اهتماما بالغا بدور اللغــة والألفاظ الدالة عــلى صاحبها ، وعلم الاجتماع اللغوى يرى فى « الدوال » نظاما اجتماعيا مرتبطا بالتركيب الذى هو موضع الفحص ... وهكذا .

واذا كانت صورة الحياة الحديثة تحدث وقعا سريعا فى كل المجالات حتى لتوشك التطورات التكنولوجيــة أن تسبق التحولات الاجتماعيـــة

والنفسية فان ردف اللغة لمثل ذلك التطور هو وحده الكفيل برأب الصدع بين الانسان عامة ، ومنجزات الخواص من بنى جلدته ، ولقد يكون من أخطر ما وضعته التكنولوجيا فى يد نفر من المعاصرين تلك الأدوات الدقيقة التى عن طريقها يتم تتبع المفكرين والمعارضين لأى من نظم الحياة ، ولقد أصبحت مثل هذه الأجهزة خطرا فيما أعتقد يهدد قدرة اللغة بنظامها المألوف ... ومن هنا كان ذلك القفز الفكرى الذى نلمسه حين نقرأ الرواية الجديدة أو المسرح التجريبى أو الأدب المتمرد وما الى ذلك . انهـــا ملاذ يحتمى بهـــا أصحابها عن متابعة قوى اجتماعية أو سياسية ومن هنا أيضا كانت العودة الى أساطير السابقين تحملها ما نريد فى عصرنا . وكأننا نخرج على مألوف قواميسنا ومعاجمنا للمتراكيـــات أو بالترتيب للمبعثرات وما أكثر الطرق التى نستطيع أن ننطقها بها .

حين نقول بضرورة التعبير عن معنى « الشجرة » تجبهنا واقفة لغـــوية أخرى لا فرار منها ، فمن المحتمل أن نلتقى بلغات بدائية لا تحتاج الى مثـــل هذه اللفظة العامة التى تقابل كلمة tree . ولكن لا شك فى أن أهـــل تلك اللغة يستعيضون عن ذلك النقص بمعرفة أسماء خاصة لمختلف أنواع الأشجار . وهنالك لابد من وقوع مواصفات كثيرة تدخل فى صناعة ، أو تركيب الادراك Sense ولكن مثل تلك المواصفات لن تصبح خالصـــة لأنها لا ترسو على موان خارج اللغة ، كما يرسو غيرها من الألفاظ .

وما يقرره ذلك الجدل يؤكده بعض اللغويين الذين درسوا لغات بعض القبائل . فقد لاحظوا أن أبناء قبائل التاسمينية Tasmanian ، وهم سكان احدى الجزر الصـــغيرة بجوار أستراليا لا يمتلكون لفظا يقـــابل دلالة « شجرة » "arbre" . بينما هم يعرفون اسما خاصـــا لكل شجرة فى محيطهم(١) . من الممكن اذن أن يجرد الذهن اسما عاما من جزئيات يعرفها باسمائها دون أن يحطم خصائص أى من الوحدات المستقلة ولـــكن فى أثناء

Meillet et Cohen : Les Langues du Monde, P. 711

التحديد يلتقط أجزاء عامة من كل الجزئيات وكل ما نسميه فى العربية أسماء الجنس هو نتح من المجال ٠

وهو أيضا ما عبر عنه قدماؤنا حين حددوا دلالة الاسم بدلالة لفظية أو بدلالة غير لفظية ٠ والأولى تعتبر بالنسبة لكمال المعنى الموضوع له اللفظ ، أو بالنسبة لبعضه ، وكل دلالة كاملة هى مطابقة بين اللفظ ومدلولها ٠ وكلمة مثل « انسان » ان دلت على بعض ما يتضمنه المدلول عليه ، كأن تدل على ما فيه من حيوانية ، أو على ما فيه ميزة النطق ، فهى عندئذ دلالة تضمين وان ظلت لفظية(١) ٠ وأما الثانية ، غير اللفظية فهى ما أدرجوه تحت دلالة الالتزام ٠ ذلك أن للفظ معنى لازما من الخارج ، وعند فهم مدلول اللفظ من اللفظ ينتقل الذهن من مدلول اللفظ الى لازمه ٠ ولو قدر عدم الانتقال الذهنى لما كان ذلك اللازم مفهوما ٠ ومن الممكن أن نضرب مثالا بلفظ « العقل » بمعنى القيد أى عملية العقال ، ثم بمعنى العقل الشائع ، بعد تخليصه من الارتباط بالمعنى الأول ٠ وذلك التخليص عملية ذهنية ٠ قد تحدث بمجردات عن نوع من التشبيه بين فعل القيد وفعل العقل ٠ وقد تحدث عن نوع من القياس بين أصل وفرع ٠ ومع ذلك فالتجريد هو فى ذاته صدى المواضعة الضرورية ٠

قضية أخرى لابد منها : أهناك سبب ضرورى يحتم أن تحيا فى اللغات مثل تلك الكلمات ذوات الطوابع المجردة ، وانا آخذ من الانجليز نفس كلمة tree ، وأمتنع عن أخذ كلمة « شجرة » رغم التكافؤ الكامل بينهما ، لسبب بسيط هو أننا حين نتعامل مع لغتنا الأم يصعب أن نرد العقل عن فطرته اللغوية الذى قد تدفق ليتخطى الأصوات وتحولاتها مع ارتباطها بالمعانى ، أما حين تكون مادة التأمل لفظة من غير لغتنا فهنالك لحظات وقوف تمنحنا ذلك التأمل وتجسم الانتقال من الدالة الى المدلول عليه ٠ ولذلك أقول اننا حين ندعى أن لا ضرورة لوجود كلمة tree فى الانجليزية أو كلمة arbre الفرنسية أو كلمة Poum فى الألمانية ثم كلمة

---

(١) الآمدى الاحكام فى أصول الأحكام ، ص ٣٠

شجرة فى العربية ، فاننا نتخطى مرحلة الطفولة البالغة الأهمية فى مواقفنا اللغوية . فمثل تلك الصوتيات أو الفونيمات أصبحت مرتبطة بالمضمون العقلى الذى حددناه من مختلف الأشجار التى كانت لنا بها خبرة . وذلك هو ما يدفع بالعالم يتفسبت ليقول : ان اللفظ والمضمون العقلى قد طبعا فى عقولنا . وكلاهما يثير الآخر فى كافة الظروف ، وبينهما ارتباط قريب الى الحد الذى يصبح فيه مفهوم كلمة Böeuf (الثور) كالروح للصورة الصوتية Böf .

واذن ، فان لم يكن هنالك سبب أساسى لوجود الاسم ، بينما هنالك ما يستجيب حياة المسمى ، فمن الواضح أن المواضعة الخالصة هى طابع الاسم.

ذلك منهج يرى الوصول الى تحليل وضع كلمة ذات معنى مستخلص ، مجرد ، مثل « شجرة » كان بعد خبرة بالمتخصص من الأسماء . ولكن أيمتنع أن يكون أصلنا اللغوى قد سلك الطريق المعارض ، أعنى أن تكون المتخصصات بأسماء معينة كالتين والنخيل والزيتون وما اليها كانت فى طفولتها البعيدة مندرجة تحت شبيه كلمتنا المستخلصة ! ثم بالتدريج أخذ العقل فى ادراك الفوارق ، وبعد أن فحص المميزات ، خص كل نوع بتسميته . أليس ذلك ما نتعرض له حين نوضع وسط غابة من أشجار لا ندرى عن خصائص أفرادها الا الخضرة والنماء ! هى عندنا « أشجار » ، يتساوى فى ذلك القسطل والآراك والجميز ..

التفكير بحث وراء المواضعات المعنوية ، ثم لابد حتى يكتمل الجناحان فى أية علاقات لغوية،أن ننظر فى مبررات الاسم **motivation of the name** وهذا يعنى طرح السؤال التقليدى الباحث عن سبب الشكل **forme** الذى استقر عيه الاسم كعلامة دالة على معنى معين . ولم لم يكن شكلا آخر ؟

وحين تكون الاجابة موحية بنوع من الانبعاث الذى يبدو طبيعيا أو شبه طبيعى ، فنحن أمام تفسير ايجابى لاختيار الاسم . ولصاحب « أسس علم الدلالات » — أولمان — علاج يدور فى مستويات متتالية : ذلك النوع من الأسماء الموحى بمناسبة طبيعية بين التسمية والمعنى . ثم المستوى الآخر الذى يحمل فيه العقل عبء الخلق .

فكلاهما مشدود بالمواضعة المادية ، سواء فى الجانب الصوتى للاسم أو فى الجانب المعتوى للعلامة اللغوية ٠

مثال ذلك قولهم splash وتبرير الاختيار هو التشابه بين الأصوات المتعالقة لتكوين الكلمة والأصوات التابعة عن الحدث قرين المعنى ، وهو اصطدام السوائل - أو شبهها - عند انسكاب بعضها على بعض ٠ وذاك قريب مما ساقه علماء عن الألفاظ المحاكية لأصوات المسموعات ٠

مثال آخر : لفظة totter : وتبرير الاختيار نوع من المضارعة والمطابقة بين أصوات الكلمة والحركة التى يرجع اليها المعنى ، وهى السير فى اهتزاز وعدم اتزان ٠ وتردد فونيمات الكلمة نابع من تردد المعنى ٠ وكان تردد حرف التاء ـ t ـ مفردا مرة ومزدوجا أخرى ، هو الحافز لعقد الصلة بينه وبين المعنى - المتردد - ٠ وواضح أن التبرير فى المثالين السابقين تبرير صوتى phonitically - ووصف الحروف المنطوقة هو الدهليز الذى يتسرب منه الترابط بين الكلمة ، وخارجها ٠ ان كل الكلمات المحاكية للأصوات ، أو الأنوماتوبيا - والكلمات المعبرة عن الانفعالات المباشرة exclamation تقع تحت راية هذه التفسيرات ، وبداهة ان المحاكاة ليست كاملة ٠ فالأمر ، كما قال جرامون Grammon : ان كل أصوات الاسم ليست محاكية للمعانى المحكية ، ومن ثمة كان الترابط فى ذلك الميدان واسع المدى ٠ يمتد من التقليد الكامل الى النسبى أو شبه التقليد ، وكل من هذه الصفات خاضع بدوره للمساومة ٠ وحين نأخذ بهذا الروح المسلم بالتقارب ، فلن نستبعده ، حين نتعامل مع المسافات المتكاملة ، وسنرى خيطا يخترم كل الألفاظ ، ليخدث نوعا من الانسجام المحاكى : immitative harmony حتى وان صعب التقاطه عند الوهلة الأولى ، فانه يبقى عنصرا من عناصر الجمال اللغوى أو الأسلوبى ٠

اللغة هى الوسط الذى يتكون فيه الانسان بكل ما يتواضع عليه من القيم · وكل ما يستصفيه من مقومات الحيـاة الروحية والحسية · وهى لا تبتعد أبدا عن تموجات الافعال الحسية التى يدركها بالعقل ، ولا من مجال المغامرات التى تاتيه من الجوانب السحرية والاسطورية · ولو اعـدنا ذكر أصل اللغة فلن تفلت من فكرة المحاكاة ، حتى وان اعترض مثل «يسبرسن» بأن المحاكاة نفى للغة ، بحجه أننا نلجأ الى المحاكاة عندما تعوزنا الالفاظ ، أو تفشل الكلمات المتواضع عليهـا فى التعبير عمـا فى النفس · ستبقى المحاكاة جامعة للرافدين : العقلى والسحرى ، ويتأتى من ذلك الالتقاء جهد تبذله اللغة لتنسق الحياة · ولن يصعب تصور علاقات الحياة وكانها على نمط اللغة : وحدات متداخلة متبادله التأثير ، وحتى حين تنعكس القضيه ونرى اللغة على نمط الحياة ، فستكون هى نفس العلاقات : افعال وانعكاسات ·

ما يقوم به العقل من جمع الألفاظ ذات المعانى المتقاربة ، - وشىء منه عمله ابن جنى - رصد للتجارب الحسية مزودة بطاقاتها الانفعاليه والنفسيه · والشىء نفسه مع فلسفة تقليب المواد اللغوية ، ذلك الجهد المغامر يصل الى تثبيت ملامح من الجهد الارادى · وما زالت لغتنا تحتفظ بكثير مما يبدو فى كتب القدماء اسرافا عقليا · خذ كلمة مثل « ملك » التى جاءت بمعنى القوة والقدرة · انها تتردد على ألسنة فئة من الشعب حين يقولون « المراة تملك العجين » ، أى انها تلوكه وتحركه لتنضام أجزاؤه · وحين نستمع لعامتنا يذمون رجلا بأنه « دنف » ألا تحمل الينا اللفظة ما قاله السابقون عنها من الضعف !

ان الأمل معقود بتقدم البحوث حول الصلة الوثيقة بين اللغة والفكر · ولقد أصبح ذلك شغلا يشغل الباحثين فى كثير من فروع المعرفة ، والتحولات النفسية والسلوكية والاجتماعية ، بل والسياسية والاقتصادية والحضـارية هى موطن تنقيب عن دالاتها اللغوية · ومع كل هذا فأنا أشعر أن المحاولات التكنولوجية التى تسعى لتحليل المواد اللغوية الى مكوناتها ، سواء تم ذلك بالأجهزة الحاسبة أو بالعمليات الرياضية ستبقى غير قادرة على اماطة كثير من الحجب ، لأن اللغة هى بانية العقل ووليدته ، وكأن كل سعى لتسطيحها هو تسطيح للعقل ، وعند ذلك لابد أن تتراجع الجهود لأنه سر الحياة ·

الفهرس

صفحة